موسوعة
التربية الجهادية وأهدافها
عند الإمام علي

تقديم الكاتب الكبير
جورج جرداق
مؤلف موسوعة الإمام علي صوت العدالة الإنسانية

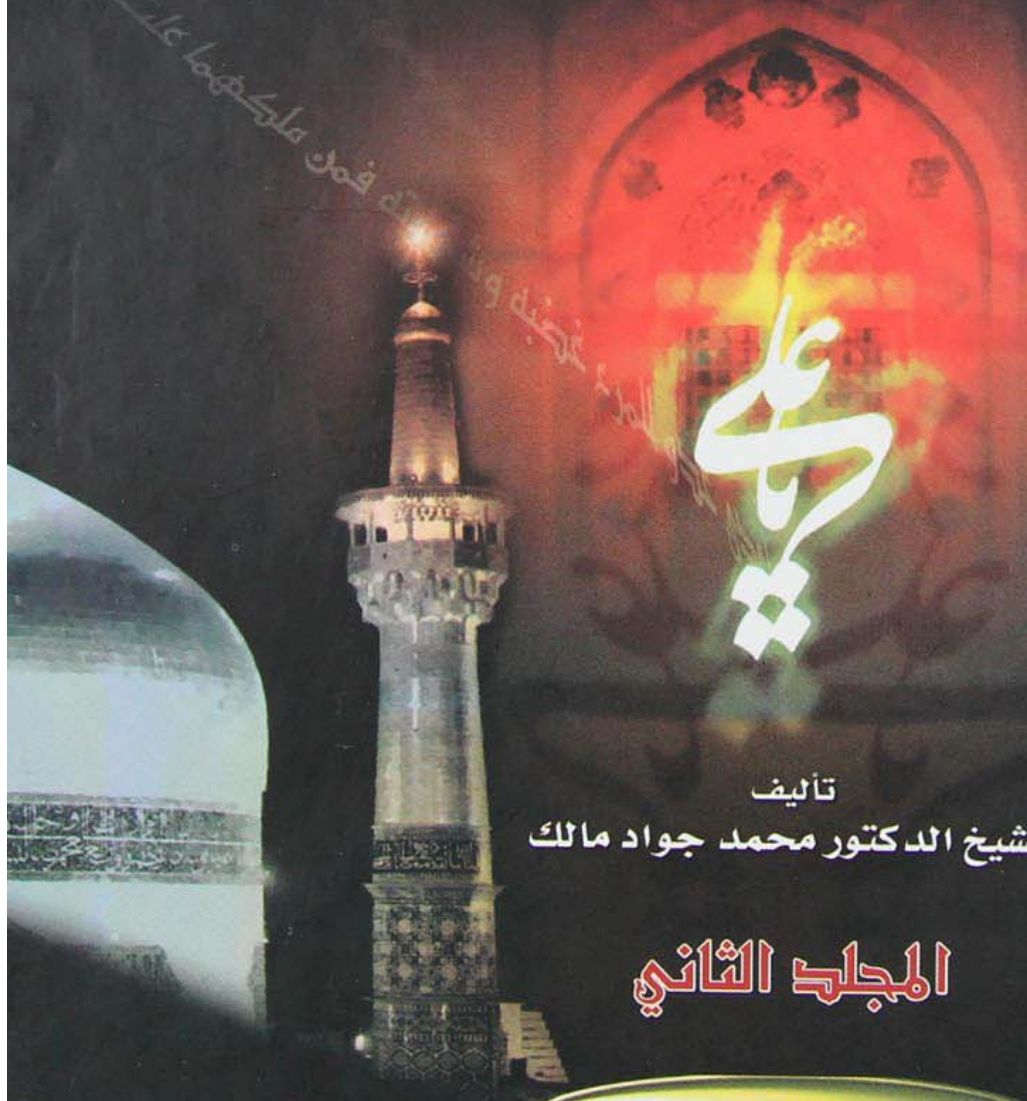

تأليف
الشيخ الدكتور محمد جواد مالك

المجلد الثاني

الدار العربية للموسوعات

www.haydarya.com

موسوعة
التربية الجهادية وأهدافها
عند الإمام علي

اسم الكتاب: موسوعة التربية الجهادية وأهدافها عند الإمام علي

المؤلف: الشيخ الدكتور محمد جواد مالك

الطبعة الأولى: ٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ

© جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-614-424-025-0 (أربع مجلدات)
ISBN 978-614-424-027-4 (المجلد الثاني)

الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني

الحازمية - مفرق جسر الباشا - ستر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

موسوعة
التربية الجهادية وأهدافها
عند الإمام علي

تقديم الكاتب الكبير

جورج جرداق

مؤلف موسوعة الإمام علي صوت العدالة الإنسانية

تأليف

الشيخ الدكتور محمد جواد مالك

المجلد الثاني

الدار العربية للموسوعات

المبحث الثاني

أساليب التربية الجهادية

وفيه أربعة مطالب وهي:

* المطلب الأول : إثارة الحمية والنخوة في النفوس *

* المطلب الثاني : رسم معالم عطاءات النفس الكبيرة في التضحية والإيثار *

* المطلب الثالث: الدعاء - بصدق وإخلاص - إلى الله سبحانه *

* المطلب الرابع : ترويض النفس لغرض تحمل الصعاب وحب الآخرين *

المطلب الأول

إثارة الحميّة والنخوة في النفوس

تكمن في شخصية الإنسان عدة نزعات ذاتية ونفسية، وإن لم يتم توجيهها ضمن القنوات الإيجابية على ضوء التربية الواعية، فإنها ستتحول إلى أمراض اجتماعية خطيرة، تفتك بالمجتمع وتمزّق رباط الأخوة الإسلامية والإنسانية معاً. إنها أمراض اجتماعية، بأسباب نفسيّة متأصلة في الإنسان. وفي حالة اشتدادها وطغيانها لا يستفيد منها إلّا من يقف وراء تأجيجها من أصحاب النفوذ المصلحي، من كبراء المجتمع، وساسته، وأصحاب المصالح الشخصية ليجنوا أكبر قدر ممكن من الثمار لذواتهم ومصالحهم، دون النظر إلى الآخرين وحاجياتهم وظروفهم ومصيرهم. وبالفعل إنهم يثيرون العصبية القبلية لمحوريتهم، والحميّة الجاهلية لكبريائهم، والنخوة العاطفية لمصالحهم الشخصية. فيجتمع الناس بأجسادهم حول هذه الأهداف النفعيّة لهذه الأسباب، من دون ألفةٍ حقيقية ومحبةٍ قلبية، وتماسكٍ فعلي. إنما يجتمعون لغريزة حب الذات والعدوان على الآخرين والاستعلاء عليهم، فتتحول الحياة بذلك إلى مأساة إنسانية مدمرة، تسودها لغة الغاب حيث الاستغلال والاقتتال والاعتداء وإشباع

الغرائز الحيوانية حسب الأهداف المزاجية. خصوصاً حينما يغيب العدو الفعلي المهدّد لعموم الحياة سواء كان من طرف إنساني أو حيواني. فالعدو بهذه الصفة التدميرية يكون محفزاً للانسجام والتماسك الاجتماعي. أي إنه في حالة ظهور تهديدات مصيرية، تنكمش كثيراً تلك العصبيات الجاهلية والخصوصيات الأنانية، ولكن بمجرد جلاء تلك المرحلة تعود تلك الآفات الاجتماعية المنطلقة من الأسباب النفسية، إلى مواقعها لتستفحل مجدداً فتتلاءم مع ظروفها الجديدة، وربما تقنّن على أسسها، ليضمن أصحاب المصالح أهدافهم التي عُطلت لأسباب استثنائية.

يقول الإمام شمس الدين: «روح العدوان غريزة أصيلة في الإنسان.. وليس في النفس الإنسانية جهاز يولد هذه الغريزة في أوقات الخطر ويعدمها في أوقات الأمان، ولذا فإن هذه الغريزة موجودة في جميع الأوقات. وهي في أوقات الخطر تعمل عملها الذي يسرت له وأودعت في الإنسان لأجله. وأما في أوقات الأمان فإن وجودها يصبح مشكلة خطيرة قد تمتد بآثارها إلى الآخرين من أفراد وجماعات»[1]. بينما من الإنصاف والتعقل أن تؤخذ العبرة من تلك الحالة الخطيرة التي هدّدت الإنسانية، وتعمّم تلك التوجهات الإنسانية على مختلف الظروف والمراحل ليسود الوئام في المجتمع والتوادّ واحترام حقوق الإنسان. ولكن مصيبة الإنسان في النسيان، وإلّا فإن الفجائع الإنسانية، والكوارث الطبيعيّة، هي كذلك تشد أواصر المجتمع بدوافع إنسانية، فتتلاشى - مؤقتاً - غريزة العدوان

(١) شمس الدين، محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ص ٢٥٠-٢٥١.

والاستعلاء، وتتوجه العواطف للإحسان والتعاون، ومن هنا يمكن أن نقول: إن الموت يجمع الناس، ويجمّد الأزمات. إلّا أن عدم القدرة على تعميم هذه التوجهات الإنسانية على سائر مراحل الحياة المتغيّرة من جانب، ومن جانب آخر هنالك الدوائر المصلحية التي تثير تلك النزاعات، وبالنتيجة تعود إلى الأمةِ بدوافع الحمية والنخوة أوليات الحالة المرضية من جديد.

إنّ أسلوب إثارة الحمية والنخوة في النفوس بالاتجاه الإيجابي من أساليب التربية الجهادية التي أتبعها الإمام علي عليه السلام، فقدّم معالجة جذرية فذّة لتلك النزعات النفسية. حيث سحب منها - برفقٍ وبصيرةٍ- صواعق الانفجار الطائش والعشوائي، الذي يخضع لأمزجة المتسلطين والمستفيدين. ليوفر لها ذلك المناخ الإسلامي الصادق، لتنمو وتشق طريقها بالإسلام، في اتجاه صالح الأمة الإسلامية، والبشرية معاً، وفي تقديري لم ينتهِ عمل الإمام عليه السلام بهذا القدر، وإنما وضع تلك الصواعق بأيدٍ أمينةٍ واعيةٍ، وتحذيراتٍ مستمرةٍ بتعميق الوعي الإيماني والحذر من السقوط في وحل المنازعات والصراعات والعصبيات القاتلة. وفي نهج البلاغة نتلمس هذا الإنجاز التربوي الفذ عبر التوجيهات التالية:

١• توجيه غريزة العدوان نحو الشيطان، باعتباره العدو الأكبر للإنسان.

٢• الالتزام الواعي بمبادئ الإسلام والإيمان، يعني صياغة روحية جديدة للإنسان.

٣• توجيه الاقتتال نحو أعداء الإسلام.

٤• الاعتبار من تجارب الأمم السابقة والتذكير الدائم بمصائرهم.

● **توجيه غريزة العدوان نحو الشيطان، باعتباره العدو الأكبر للإنسان:**

فهو السبب في إخراج أبينا آدم عليه السلام من الجنّة، وإنه يزيّن المعاصي للإنسان، ويغريه بالتعلق بالدنيا، وإشباع الشهوات وذلك بارتكاب الآثام. لنقتطف بعض أقوال الإمام في هذا المجال.

قال الإمام علي عليه السلام: «الحمد لله الذي لبس العزَّ والكبرياءَ، واختارهما لنفسه دون خَلْقه، وجعلهما حِميً وحَرماً على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنةَ على منْ نازعَهُ فيهما من عباده، ثم اخْتبرَ بذلك ملائكته المقرّبين ليميزَ المتواضعين منهمْ منَ المستكبرينَ، فقال سبحانه وهو العالم بمُضمرات القلوبِ، ومحجوبات الغيوب: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ۝٧٤﴾[1]. اعْترضتْهُ الحميّةُ فافْتخر على آدم بخلقه، وتعصّبَ عليه لأصْله، فعدوُّ الله إمامُ المتعصِّبينَ، وسَلَفُ المستكبرينَ، الذي وضعَ أساسَ العصبيّة، ألا ترونَ كيف صغّرَهُ اللهُ بتكبره، ووضعهُ بترفعه، فجعلَهُ في الدنيا مدحوراً، وأعدَّ لَهُ في الآخرة سعيراً؟!، فاعْتبروا بما كانَ من فعْل الله بإبليسَ إذْ أَحبَطَ عملَهُ الطويلَ، وجَهْدَهُ الجهيدَ، فاحْذروُا عباد الله عدوَّ الله أن يُعْديَكم بدائه، وأنْ يَسْتفزّكُم بندائِهِ، وأنْ يُجْلبَ عليكم بخيْلِهِ ورَجله فلعَمْري لقدْ فوَّقَ لكم سَهْمَ الوعيد، وأغْرقَ إليكم بالنّزْع الشَّديد، ورماكمْ من مكان قريب، فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]،

---

(١) سورة ص، ٣٨، الآيات ٧١-٧٤.

(٢) سورة الحجر، ١٥/٣٩.

قَذْفاً بغيبٍ بعيد، وَرَجْماً بظنّ غير مُصيبٍ، صدّقَهُ به أبناءُ الحميَّةِ، وإخوانُ العصبيَّة، وفرسانُ الكِبْر والجاهليّة. حتى إذا انْقادَتْ له الجامحَةُ منكم، واسْتحكمتِ الطّمَاعيَّةُ منهُ فيكم، فنَجمت الحالُ من السّرِّ الخفيّ إلى الأمر الجليّ، اسْتفحَلَ سلطانُهُ عليكم، ودَلَفَ بجنوده نحوَكم، فأقْحموكم وَلَجات الذُّلِّ، وأحَلُّوكم ورطاتِ القتْل.. فاجْعلوا عليه حدّكُمْ، وله جَدّكم، فلعَمْرُ الله لقد فخَرَ على أصْلكم، ووقَعَ في حسَبكم، ودفعَ في نسبكم، وأجْلَبَ بخيله عليكم، وقصَد بَرجِله سبيلَكم، يَقتنصونكمْ بكلّ مكانٍ، ويَضربونَ منكم كلّ بنانٍ. لا تَمتنعون بحيلَةٍ، ولا تدفعون بعزيمةٍ، في حوْمةِ ذُلٍّ، وحَلْقَةِ ضِيقٍ، وعَرْصَةِ موتٍ، وجَوْلة بلاءٍ. فأطْفِئوا ما كَمَن في قلوبكم من نيران العصبيّة وأحقاد الجاهليّة، فإنَّما تلك الحميّةُ تكون في المسلم من خطراتِ الشيطانِ ونَخَواتِهِ، ونزعاتِهِ ونفثاتِهِ.. فإنَّ لهُ مِنْ كلّ أمّةٍ جنوداً وأعواناً، وَرَجِلاً وفُرساناً، ولا تكونوا كالمتكبِّر على ابْن أمّه من غيرِ ما فَضْلٍ جعلَهُ الله فيه سوى ما ألْحقَت العظمةُ بنفسه من عداوة الحسَدِ، وقدَحَتِ الحميَّةُ في قلبه من نارِ الغضبِ، ونَفَخَ الشيطانُ في أنفهِ من ريحِ الكِبْر الذي أعقبَهُ اللهُ بهِ النَّدامةَ، وألْزَمَهُ آثامَ القاتلين إلى يومِ القيامةِ»[1]. فالإمام عليه السلام يوجّه طاقة الإنسان

(١) باب الخطب، رقم ١٩٢. (الخطبة القاصعة من بدايتها، وشيء من المقاطع التالية: رأس العصيان، وطلب العبرة، والتحذير من الشيطان). القاصعة: من قصع فلان فلاناً: أي حقّره، لأنه عليه السلام حقر فيها حال المتكبرين. العَصَبية: الاعتزاز بالعصبة وهي قوم الرجل، وهي هنا عصبية الجهل. أحبط عمله: أضاع عمله. يستفزكم: يستنهضكم لما يريد. أجلب عليكم بخيله: أي رُكبانه، ورَجِلِه: أي مشاته. والمراد أعوان السوء. فوّق السهم: جعل له فوقاً، والفوق موضع الوتر من السهم. أغرق =

نحو محاربة الشيطان وأعوانه بكل ما أوتي من حول وقوة فهو محور الشر للإنسان والحياة وبه تسفك الدماء وبتزيّنه للمعاصي تُهتك الحرمات. فالشيطان وأعوانه هم أعداء المؤمنين حقاً، وعليهم يصب المؤمنون غضبهم، من دون تحويل المعركة إلى عصبيات العرق واللون والفئوية. لذلك ركّز الإمام في التحذير من مرضه المُعدي، وطرقه الاستفزازيّة بندائه المغري، فقد هيّأ أدواته وجهّز لكم سهام معاركه، ثم طالبهم بالسعي الحثيث لمحاربته، و«أمرهم أن يجعلوا عليه حدّهم، أي بأسهم وسطوتهم، لأن حدّ الرجل بأسه وسطوته، أو منعهم ودفعهم. وأن يجعلوا له جدَّهم، أي يجتهدوا للخلاص من فتنته بمقاومته وقهره»[1]. لأنه موضع الابتلاء في حياة المسلمين خصوصاً في عصرنا الحالي، ويقول الشيخ مغنية: «وما كان إبليس

= النازع: إذا استوفى مدّ قوسه. النزع في القوس: مدّها. الجامحة: من (جَمَحَ الفرس)، وأراد بها هنا الطائفة التي لم تطعه من أصحابه متأثرين بالروح العصبية. الطّماعية: الطمع. نجمت من السّر الخفي إلى الأمر الجلي: أي بعد أن كانت وسوسة في الصدور، وهمساً في القول، ظهرت إلى المجاهرة بالنداء ورفع الأيدي بالسلاح. دلفت الكتيبة في الحرب: تقدّمت. أقحموكم: أدخلوكم بغتة. الولجات - جمع وَلَجة -: بالتحريك كهف يستتر فيه المارة من مطر ونحوه. أوطأه: أركبه. حدّكم: غضبكم وحدّتكم. جَدّكم - بفتح الجيم - أي قطعكم. يريد قطع الوصلة بينكم وبينه. البنان: الأصابع. حومة الشيء: معظمهُ وأشدّ موضع فيه. النخوة: التكبر والتعاظم. النزغة: المرة من النزْغ بمعنى الإفساد. النفثة: النفخة. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٦٥٠-٦٥١. والأرقام ما بين ٢٥٢٠-٢٥٥٢.النَّخوة -بالفتح -: المروءة والحماسة والعظمة، البستاني، عبد الله: البستان، باب النون، ص١٠٨٤.

(١) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٢٣٤.

في يوم من الأيام أقوى سلطاناً، وأعزّ نفراً منه في هذا العصر، فجنوده في الغرب يصنعون ويخترعون أسلحة الخراب والدمار، أما الشرق فقد أصبح وكراً للخونة وعملاء الغرب. وعلى دويّ القنابل، وأغنيات العملاء، وبكاء المنكوبين، وأنين الجائعين، يرقص الشيطان ويطرب»[١]. ولذلك شدّد الإمام في تحذيره من الشيطان وأساليبه العدوانية، في قوله: «واتقوا مدارج الشيطان، ومهابط العدوان..»[٢]. وقال أيضاً محذراً أصحابه من الشيطان وطرقه: «إن الشيطان يُسنّي لكم طُرُقَهُ، ويريدُ أنْ يَحُلّ دينكم عُقْدةً عُقْدةً، ويُعطيكم بالجماعة الفُرقةَ، وبالفرقةِ الفتنةَ. فاصْدفوا عن نزغاتِه ونفثاتِهِ..»[٣]. وهنا يحذّر الإمام من محاولات الشيطان التدريجيّة في محاربة أسس الإيمان في القلوب، كأنه يتبع سياسة الخطوة - خطوة، ويسهّل طرق نفوذه، لذلك جاء أمره حازماً بقوله «فاصْدفوا»، «أي: أعرضوا، «عن نزغاته» جمع نزغة، بمعنى الحث، «ونفثات» كأنه ينفث أي ينفخ في قلب الإنسان ويحثه على العصيان»[٤].

- **الالتزام الواعي بمبادئ الإسلام والإيمان، يعني صياغة روحية جديدة للإنسان:**

هذه الصياغة الأصيلة التي تنبذ العصبيات الجاهلية الباطلة، وتبني العلائق الإنسانية على أساس الإيمان والتقوى والمحبة.

---

(١) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة ج٣، ص ١١٧.

(٢) باب الخطب، رقم ١٥١.

(٣) باب الخطب، رقم ١٢١. يُسنّي: يسهّل. فاصْدفوا عن نزغاته: أي فأعرضوا عن وساوسه. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٣٠٢.

(٤) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٥٥.

يقول الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر، لما ولّاه مصر: «.. وأشْعرْ قلبَك الرحمةَ للرعيّة، والمحبّةَ لهم، واللّطْفَ بهمْ، ولا تكونَنّ عليهم سَبُعاً ضارياً تَغْتنِمُ أكْلَهُمْ، فإنَّهُمْ صنفان: إمّا أخٌ لكَ في الدِّين، أو نظيرٌ لك في الخَلْق، يفرُطُ منهم الزَّلَلَ، وتَعرضُ لهُمُ العِلَلُ، ويُؤتى على أيديهم في العَمْدِ والخطأ، فأعْطهمْ عَفْوَك وصفحَك مثلَ الذي تُحبُّ وترضى أن يُعطيكَ اللهُ من عفوه وصَفْحِهِ»[1]. وبالفعل، إن الرعيّة تنتظر من الرّاعي محبّته ولطفه وعفوه، كما يحبّ الراعي عفو الله له. وبهذه الأحاسيس النبيلة يضع الراعي رعيّته على سلمّ الرّقي والنمو في الإيمان والالتزام بالنسبة للمسلمين حيث الإخوة الدينيّة، ولعموم الناس حيث الإخوة الإنسانية، وذلك لكونهم «غير معصومين، بل هم ممّن يؤتون من قبل العمد والخطأ، وتأتي على أيديهم أوامر الولاة والمؤاخذات فيما يقع منهم من عمدٍ أو خطأ، وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فينبغي أن يرحم ويشمل بالمحبة ذو اللطف به ويقابل خطأه بالعفو والصفح»[2].

هذا البناء الإنساني بمنطلقاته ووقائعه وأهدافه، قد أسّسه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في بداية دعوته المباركة، «وقد أحرز النبي صلى الله عليه وآله نصراً باهراً حين استطاع، عن طريق الإسلام، أن يجمع العرب على عقيدة توحّد بينهم في الوسائل والغايات، وأن يكوّن من الشراذم العربية أمّة

(١) باب الرسائل، رقم ٥٣. يفرط: يسبق من غير رويّة. البستاني، عبد الله: البستان، باب الفاء، ص٨١٨. الزلل: الخطأ. والنقصان، واقتراف الذنوب. البستاني، عبد الله: البستان، باب الزاي، ص٤٥٩.

(٢) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٣٣.

[إسلامية]. ولكن الظرف الزماني لم يسعفه على استئصال الروح القبلية من نفس العربي.. حتى ولي الخلافة عثمان فعبّرت عن نفسها بسبب سياسات معينة... فلما ولي الإمام الحكم جوبه بهذا الواقع، واقع المجتمع العربي المسلم الذي ساقته الروح القبلية إلى مصير وبيل. فنصب نفسه لمحاربة هذه الروح. وقد كانت طريقته في العلاج فذة رائعة»[١].

قال الإمام عليه السلام: «فبعث الله محمداً، صلى الله عليه وآله، بالحق ليُخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته»[٢].

فالأمم التي تبقى في إطاعة الشيطان، وشهوات الغرائز، أو يقودها من يسعى لذلك - حتى لو أظهر الإسلام مصلحيّا - فإنها تعتمد القاعدة الباطلة التي لا تنظر إلى الإنسان باعتباره هدف الرسالة الإسلاميّة لتنمية إيمانه وأخلاقه وحياته الخاصة والعامة، في صياغة روحية جديدة، توصله إلى درجات متقدمة من السمو والنبل والكرامة. بل تنظر إليه من زاوية - فاز باللذات من كان جسوراً - فتدفعه لإشباع غرائزه وشهواته - كهدف أساس - مهما كلفت هذه النتائج من ويلات اجتماعية ونكبات إنسانية ومظالم متعددة وإراقة الدماء البريئة. ولديها تنقلب الفرضيّة الطموحة للرسالة الإسلامية في بناء الإنسان والحياة الإنسانية على أسس المحبة والوئام والإيثار، إلى حياة عدوانية ذئبيّة يتنازع فيها البشر إلى مستويات الاقتتال والمكر والفجور، لغرض إشباع الميول والغرائز والعصبيات. لذلك حرص

---

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) باب الخطب، رقم ١٤٧.

الإمام عليه السلام في أيام خلافته بالتحديد، لتثبيت هذه الهدفيّة الرسالية كقيمة إنسانية عليا نابعة من صميم الإسلام والإيمان، وتحمّل الإمام في سبيل تثبيت هذه القيم المبدئية الكثير من المظالم والضغوط، وقد نجح في ذلك نجاحاً عظيماً. وعليه تبقى الأجيال الإسلامية على مر العصور تستلهم من أقواله ومواقفه معاني الالتزام المبدئي الواعي بالإسلام من أجل صياغة الإنسان على أسسها. فمن كلام له للخوارج: «.. ألم تقولوا عند رفْعهمُ المصاحفَ حيلةً وغيلةً، ومكراً وخديعةً إخوانُنا وأهلُ دعوتِنا.. فقلتُ لكمْ: هذا أمرٌ ظاهرُهُ إيمانٌ، وباطنُهُ عدوانٌ، وأوّلُهُ رحمةٌ، وآخرهُ ندامةٌ، فأقيموا على شأنِكم، والْزَمُوا طريقتَكم، وعَضُّوا على الجهاد بنواجذكم.. ولكنّا إنّما أصبحنا نقاتلُ إخوانَنا في الإسلام على ما دخَلَ فيه منَ الزّيغِ والاعوجاج، والشُبهةِ والتأويلِ..»[1].

وضمن هذه الصياغة الدقيقة التي بموجبها يتقيّد المؤمن بالأطر الشرعية المحدّدة لحركته، وهو يرى ويعلم بالطرق الملتوية التي توصله إلى أهدافه الغريزية، ولكنه يأبى أن يسلكها استجابةً لإسلامه وتقواه. ففي خطبة للإمام عليه السلام وفيها ينهى عن الغدر ويحذر منه: «.. ولقدْ أصبَحْنا في زمانٍ قد اتَّخَذَ أكثرُ أهلِهِ الغَدْرَ كيْساً، ونسَبَهُمْ أهلُ الجهل فيه إلى حُسْنِ الحيلة. ما لهم! قاتلَهُمُ اللهُ! قد يرى الحُوَّلُ القُلَّبُ وجهَ الحيلةِ ودونها مانعٌ من أمر الله ونهيه، فَيَدعُها رأيَ عَيْنٍ بعد القدرةِ عليها، وينتهزُ فرصتَها من لا حريجة له في الدين»[2]. فالمؤمن الواعي

---

(١) باب الخطب، رقم ١٢٢.

(٢) باب الخطب، رقم ٤١. الكيْس -بالفتح-: الفطنة والذكاء. الحُوّل القُلّب - بضم الأول وتشديد الثاني من اللفظين هو: البصير بتحويل الأمور وتقليبها. الحريجة: =

والفطن لا ينزلق في دهاليز الحيلة والمكر استجابة لأهوائه ودنياه، وإنما يتركها -بالرغم من معرفته بها- تنفيذاً لأوامر الله سبحانه.

● **توجيه الاقتتال نحو أعداء الإسلام:**

فهم الذين يهددون أمن المسلمين وحياتهم وخيرات بلادهم، ويكيدون للإسلام ويغدرون بالمسلمين ويعتدون على بلادهم، ويسرقون ثرواتهم ويحاربون أولياء الله ويتآمرون لإطفاء نور الله.

هذا التوجيه المركّز نحو العدو الحقيقي، يجعل المسلمين متراصّين متماسكين بعيدين عن الإثارات الممزقة لجهودهم ووحدة صفوفهم خصوصاً في ميادين المواجهة والجهاد. وبهذه الحالة يقطع دابر العصبية الجاهلية والحمية الباطلة، لتسود حالة الوفاق والرحمة والتعاون داخل الأمة. بينما تتوجه حالة الشدة والردّ بالعداوة والغضب نحو أعداء الإسلام والإنسانية الذين يتربصون بهذه الأمة ويتآمرون عليها. قال الإمام عليه السلام: «.. فأسْرِعوا إلى أميرِكم، وبادِروا جهادَ عدوِّكم»(١).

وكتب إلى أهل مصر: «.. ألا تَرْون إلى أطرافِكُمْ قد انْتَقَصَتْ، .. وإلى بلادكم تُغزى! انْفِروا - رحمكُمُ اللهُ- إلى قتال عدوّكم، ولا تثّاقَلوا إلى الأرضِ فتُقِرّوا بالخَسف، وَتَبوؤوا بالذُّلِّ..»(٢).

= التحرج والتحرّز من الآثام. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٥٨٠، رقم ٤٨١-٤٨٣.

(١) باب الرسائل، رقم ١.

(٢) باب الرسائل، رقم ٦٢. أطراف البلاد: جوانبها، وانتقصت: حصل فيها النقص =

فلا بد من إعداد العدّة لضرب الأعداء في معاقلهم وإظهار هيبة الإسلام وعزة المسلمين بقوتهم وصلابتهم وبسالتهم، ومبادرتهم في صد العدوان منذ بداية عمليات الاختراق لبلاد المسلمين، لذلك كتب إلى كميل بن زياد النخعي، وهو عامله على هيت، ينكر عليه تركه دفع من يجتاز به من جيش العدو طالباً الغارة، قوله: «فقد صِرْتَ جِسْراً لمن أرادَ الغارَةَ من أعدائِكَ على أوليائِكَ، غيرَ شديدِ المنْكِبِ، ولا مَهيبِ الجانبِ، ولا سادٍّ ثُغْرةً، ولا كاسِرٍ لعدوٍّ شوكةً..»[١]. فالمسألة تحتاج إلى توجيه جاد في قتال العدو: «.. وصبراً على مضض الألم، وجدّاً في جهاد العدو..»[٢].

● **الاعتبار من تجارب الأمم السابقة والتذكير الدائم بمصائرهم:**

فقد عاشت الأمم السابقة تجارب كثيرة انتابتها حالات من إثارة النعرات والحميات الجاهلية، لحماية ساداتها ومصالح أمرائها، كيف انتهت وتلاشت؟ إن أساس اصطفافها الموحّد لها غير سليم، لأنه قائم على اعتبارات باطلة. وبالفعل إنها تجارب جديرة بالمراجعة والتوقف الطويل عندها، لغرض أخذ العبر والدروس منها. وهي ذات بُعديْن: إيجابي وسلبي، فحينما اجتمعت على الألفة والمحبة والإيمان،

= باستيلاء العدو عليها. تُقرّوا بالخسف: تعترفوا بالضيم وتصبروا له. تبوؤا بالذّل: ترجعوا به. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٧٢٧-٧٢٨.

(١) باب الرسائل، رقم ٦١. المنكب - كمسجد -: مجتمع الكتف والعضد، وشدته كناية عن القوة والمنعة. هيت: بلدة على نهر الفرات في نواحي بغداد فوق الأنبار، ذات نخل كثير وخيرات واسعة، وهي مجاورة للبرية. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٤٢١.

(٢) باب الخطب، رقم ٥٦.

استجابةً لداعي الله، وجهاداً لعدو الله، استطاعت أن تبني حضارتها ومجدها وعزّها. بينما انتكست إلى الحضيض، وانهارت حضارتها، وتمزقت وحدتها وعزتها إلى أمم متناحرة متقاتلة، حينما توقفت عن محاربة العدو الأساس: الشيطان وأعوانه، وانصرفت إلى معاداة ومقاتلة إخوة الدين والإنسانية، استكباراً وطغياناً. هذه الخلاصة الجوهرية يقدمها الإمام في أكثر من نموذج تاريخي واضح، بقراءات واعية متدبرة، وتشخيص مدروس لخلفيات تلك المصائر، ويحذّر الأمة من تكرار تلك التجارب المأساوية، لتُشد العزائم، وتُسحق التوجهات المصلحية والشخصية، وتُنبذ الإثارات الجاهلية، في سبيل إحياء المبادئ على الدوام والمحافظة على الهوية الإسلامية والإيمانية بشكل تام. وإنه أسلوب تربوي جهادي يحيط ذاكرة الأمة ويمنحها وعياً تاريخياً وتجريبياً صادقاً. لنسمع إلى مقاطع من خطبة القاصعة للإمام عليه السلام في هذا الصدد حيث يقول: «.. فاعتبروا بما أصابَ الأمم المستكبرين من قبلكم منْ بأس الله وصولاته.. واحْذَرُوا ما نزَلَ بالأمم قبلَكُمْ من المثُلاتِ بسوءِ الأفعالِ، وذميمِ الأعمال، فتذكَّروا في الخير والشرّ أحوالهم، واحْذروا أن تكونوا أمثالَهُمْ.

فإذا تفكَّرْتُمْ في تفاوُتِ حالَيْهم فالْزَموا كلّ أمرٍ لَزمَت العزّةُ به شأنَهُمْ، وزاحت الأعداءُ له عنهم، ومُدّت العافيةُ به عليهم، وانْقادت النِّعمةُ له معهم، ووصلت الكرامةُ عليه حبلَهُمْ، من الاجتناب للفُرْقَةِ، واللُّزوم للألْفَة، والتَّحاضّ عليها، والتَّواصي بها، واجْتنبوا كلّ أمرٍ كَسَرَ فِقْرتَهُمْ، وأوْهَنَ مُنّتَهُمْ، مِنْ تَضاغُنِ القلوبِ، وتشاحُنِ الصُّدور، وتدابُر النُّفُوس، وتخاذُل الأيدي، وتدبّروا أحوالَ

الماضين من المؤمنين قبلَكم، كيف كانوا في حال التَّمحيص والبلاء، ألمْ يكونوا أثقَلَ الخلائق أعباءً، وأجهدَ العباد بلاءً، وأضْيقَ أهلِ الدنيا حالاً. اتّخذَتْهُمُ الفَراعنةُ عبيداً فساموهمْ سوءَ العذابِ، وجرّعوهُمُ المُرَارَ، فلم تَبْرَح الحالُ بهم في ذُلّ الهلكة وقَهْر الغَلَبة، لا يجدونَ حيلةً في امْتناع، ولا سبيلاً إلى دفاع. حتى إذا رأى اللهُ سبحانَه جِدّ الصَّبْر منهمْ على الأذى في محبّته، والاحتمالَ للمكروهِ من خوفه، جَعَلَ لهم منْ مضايِقِ البلاء فَرَجاً، فأبْدَلَهُم العزّ مكانَ الذُّلِّ، والأمنَ مكانَ الخوف، فصارُوا ملوكاً حُكّاماً، وأئمّةً أعلاماً، وقد بلغت الكرامةُ من الله لهمْ ما لمْ تَذْهَبِ الآمالُ إليهِ بهمْ.

فانظروا كيف كانوا [أي: بنوا إسرائيل] حيثُ كانتِ الأمْلاءُ مجتمعةً، والأهْواءُ مؤْتلفَةً، والقلوبُ معتدلةً، والأيدي مترادفةً، والسّيوفُ متناصِرةً، والبصائرُ نافذةً، والعزائمُ واحدةً. ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضينَ، وملوكاً على رقاب العالمين! فانْظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهمْ، حين وقعت الفُرْقَةُ، وتشتّتت الألْفَةُ، واخْتلفتِ الكلمةُ والأفئدةُ، وتشعَّبوا مختلفينَ، وتفرّقوا متحاربينَ، قد خلع الله عنهم لباسَ كرامته، وسلبهَم غضارةَ نعمته، وبقّي قَصَصُ أخبارهم فيكم عبراً للمُعْتبرين»[1]. فيريدنا الإمام أن ندرس أحوال

---

(١) باب الخطب، الخطبة القاصعة رقم ١٩٢. من مقطع، (العبرة بالماضين)، ومن مقطع (عصبية المال)، المثلات: العقوبات. الفِقْرة - بالكسر والفتح - كالفقارة بالفتح -: ما انتظم من عظم الصلب من الكاهل إلى عَجْب الذّنب. المُنّة - بضم الميم-: القوة. التمحيص: الابتلاء والاختبار. المُرار - بضم ففتح -: شجر شديد المرارة تتقلص منه شفاه الإبل إذا أكلته. والمراد هنا عُصارته. الأملاء - جمع ملأ -: بمعنى الجماعة والقوم. والأيدي المترادفة: المتعاونة. أرباباً: سادات. غضارة =

الأمم الماضية، التي عاشت مراحل العزّةِ والذّلة، حيث السعادة والشقاء، وذلك لنتعرّف على أسباب وصولهم إلى العزّةِ والسعادة، وعوامل نزولهم إلى درجات الذّلة والشقاء. ودعوته تتركز حول وحدة الصف، والتعاون والتحابب في ظل بصائر الإسلام، بوعي الصادقين. لذلك ذكّرهم بالواقع العربي قبل الإسلام وبعده حيث أصبحوا قوّة كبرى في ظل الإسلام، وحذّرهم من إثارة النعرات المفرّقة والعودة إلى التشرذم والذل في الخطبة ذاتها فقال عليه السلام: «.. فإنَّ اللهَ سبحانَه قد امْتَنّ على جماعةِ هذه الأمة فيما عَقَدَ بينهمْ من حبل هذه الألفةِ التي ينتقلون في ظلّها، ويأْوُون إلى كَنَفِها، بنعمةٍ لا يَعْرِفُ أحدٌ من المخلوقينَ لها قيمةً، لأنها أرجحُ من كلِّ ثمنٍ، وأجلُّ من كلّ خطرٍ.

واعلموا أنّكم صرتُمْ بعد الهجرة أعْراباً، وبعد المُوالاة أحْزاباً. ما تتعلّقُون من الإسلام إلّا باسْمه، ولا تعرفونَ من الإيمان إلّا رسَمهُ»[1].

يقول السيد محمد الشيرازي في توضيحه: «.. لولا ألفتهم لم يتمكّنوا من السير في آفاق الأرض والسيطرة على البلاد والعباد. «ويأووُن إلى كنفها» أي يستريحون إلى جانب هذه الألفة، في أمن من الأخطار «بنعمةٍ لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة» أي لا تقدر بثمن، من عظم ثمنها (لأنها) أي الألفة «أرجح من كل ثمن»

= النعمة: سعتها.الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة ص٦٥٢ وما بعدها. الأرقام هي: ٢٥٦٥، ٢٦٢٩، ٢٦٣٢-٢٦٣٩.

(١) الخطبة ذاتها، مقطع (لوم العصاة).

يقدّر. «وأجلّ من كل خطر» أي من كل عظيم، إذْ بها يؤتى كل شيء، وبدونها لا يحصل الشخص على أيّ شيء.

«واعلموا أنّكم صرتم بعد الهجرة» وهي كناية عن الالتزام بأحكام الإسلام «أعراباً» كناية عن صيرورتهم كأهل البادية الذين قال تعالى فيهم: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾. «وبعد الموالاة» لجهة واحدة «أحزاباً» كل حزب له جهة خاصة، وآراء مخصوصة»[1]. وذلك هو الابتلاء الشديد الذي يصيب الأمة، حيث تظهر شخصيات وواجهات وتكتلات تحمل شعارات برّاقة، ولكن بعض رموزها يصاب بداء حب الدنيا والمال والسلطة، وعندها تكثر الرؤوس وتتمزق وحدة الصف. نرجوه سبحانه أن يلهمنا وعياً ناضجاً لمحبة الآخرين وقبول الرأي الآخر ما دام في طريق الهدى تحت سقف الإسلام، لتظهر عزّته للناس جميعاً.

(١) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٣، ص ٢٢٩-٢٣٠. والآية الكريمة من سورة التوبة ٩/ ٩٧.

المطلب الثاني

رسم معالم عطاءات النفس الكبيرة في التضحية والإيثار

تكبر عطاءات النفس كلما ازدادت وعياً رسالياً ناضجاً وعمقاً إيمانياً مخلصاً، في ظل الشريعة الإسلامية، وهي خاتمة الرسالات الإلهية، فالذي يطبق أحكام الإسلام، ويتربى على مناهجه، ويستقي من علومه وتعاليمه ثقافة وعي الحياة، وتنظيم العلائق فيها، إنما يزداد بصيرةً في مسيرته، وتقوىً في سريرته، وثقةً في نفسيته، وعندها تعظم روحه وتكبر نفسه في كل الخطوات، فيسعى بكل جهده وقابلياته في سبيل الاستجابة التامة لمتطلبات الشريعة بتمام التضحية والإيثار، بل تكون عطاءاته للإسلام والمسلمين لها الأولوية في سلّم المتطلبات.

هكذا نلاحظ الإمام عليه السلام قد اتبع هذا الأسلوب في التربية الجهادية ليزرع الثقة لدى المؤمنين لاقتحام الصعاب والتوصل إلى الطموح الذي رسمه الإمام للعطاءات الكبيرة. وبذلك يضع المؤمنين في دائرة الاستجابة لنداءات الإيمان، ويحفّزهم للاستمرار والبقاء ضمن مساحة النفوذ الجهادي، وأمامهم معالم شاخصة بالعطاء الهائل والتضحيات الجسام. فتسهل إمكانية البلوغ إليها بقرار الإرادة

النفسيّة التي عظمت بالتربية الواعية، فتحملت المسؤولية الجهادية، باستمرارية متنامية. وذلك بالتوجهات التالية:

١• إيجاد محفزات التنافس الإيجابي.

٢• معالجة حالات العطاء المتباطئ بكثرة محاسبة النفس.

٣• الجهاد فريضة تنموية.

سنتناول هذه التوجهات الثلاثة بإيجاز:

● **إيجاد محفّزات التنافس الإيجابي:**

وذلك لغرض تعبيد الطرق الموصلة إلى قمم العطاء والتضحية. فالمؤمن المتيقن بالسعادة في الدنيا في ظل الإسلام والإيمان، والمتيقن بأنه سينال ثواب الآخرة والمنزلة الرفيعة على ضوء إيمانه وجهاده وإحسانه في الدنيا. حينذاك يبدأ بالتنافس الإيجابي مع إخوانه المؤمنين لكسب المزيد من عوامل التقوى والأجر والتقرب إلى الله سبحانه ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[١].

وقد تبلغ الدقة بالمؤمن إلى درجة إنه يتنافس مع ذاته يوماً بيوم، ليحقق المزيد من الصعود درجةً درجة إلى ذروة الإخلاص في العبادة والجهاد والتضحية. لعلّه يصل إلى معالم تلك العطاءات التي رسمها الإمام عليه السلام، يقول الإمام عليه السلام: «والمغبونُ من غَبَنَ نفسَه»[٢]. وبالفعل فإن الإنسان المخدوع هو الذي يخدع نفسه بسراب الدنيا وشهواتها،

---

(١) سورة البقرة ٢/ ١٩٧.

(٢) باب الخطب، رقم ٨٦. المغبون: أي المخدوع. البستاني، عبد الله: البستان، باب الغين، ص٧٧٢.

فيخسرها خسارته الكبرى، وذلك لأن «خسارات المعاملة وقتية وخسارة النفس أبديه»[١]. وفي كل هذه الحالات يضع المؤمن هدفه الأسمى نصب عينيه ألا وهو الفوز بالجنان في الآخرة. يقول الإمام علي عليه السلام: «الركونُ إلى الدُّنيا مع تُعايِنُ منها جَهْلٌ، والتقصيرُ في حُسْنِ العملِ إذا وَثِقْتَ بالثَّوابِ عليه غَبْنٌ»[٢]. «المراد بالركون هنا العمل للدنيا دون الآخرة، وهذا عين الجهل، لأنه عمل يزول ويفنى، . . ومن أيقن بالربح وأحجم عنه فهو من الخاسرين»[٣]. فالمؤمن العاقل يسعى بكل جهده لبلوغ حق العبادة والجهاد والعطاء، يقول الإمام عليه السلام: «. . سُبحانَك ما أعظمَ شأنَك! سبحانَك ما أعظمَ ما نرى من خلقك! . . وما أسبَغَ نِعَمَك في الدنيا، وما أصغرَها في نعم الآخرة! . . لو عايَنوا كُنهَ ما خَفِيَ عليهم منكَ لحقَّروا أعمالَهم، ولَزَرَوْا على أنفسهم، ولَعرفوا أنَّهُمْ لَمْ يعبدوكَ حقَّ عبادتِك، ولم يُطيعوك حقَّ طاعتِك»[٤]. «الحمدُ للهِ الذي لا يبلُغُ مدحتَهُ القائلون، ولا يُحصي نعماءهُ العادُّون، ولا يؤدّي حقَّه المجتهدون»[٥].

فمهما صدرت عن الملائكة المقربين، والعباد المجتهدين، العبادة والطاعة والأعمال الصالحة، فهي لا تؤدي حقّه -جلّ وعلا-

---

(١) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص١١.

(٢) باب الحكم، رقم ٣٨٤. تُعايِنُ: أي ترى بعينك من الدنيا تقلّباً وتحوّلاً، لا ينقطع ولا يختص بخيّر ولا شرير. الغَبْن - بالفتح-: الخسارة الفاحشة. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٧٢٧، رقم ٤٩٣٣، ٤٩٣٤.

(٣) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤ ص٤٤٤.

(٤) باب الخطب، رقم ١٠٩. زَرَى عليه - كرمى -: عابَهُ وأذلّه واستهان به. البستاني، عبد الله: البستان، باب الزاي، ص٤٥٠.

(٥) باب الخطب، رقم ١. في بدايتها.

وذلك لعظمة نعمائه وألطافه ومنته. فإذن لا بد من الاجتهاد في العبادة والطاعة، وتصعيد همّة النفس إلى أقصى الدرجات في الجهاد والعطاء والتضحية في سبيل الله، لنيل رضاه وثوابه يوم الحساب. يقول الإمام علي عليه السلام في وصيته لولده الحسن: «.. وجاهِدْ في الله حقَّ جهادِهِ، ولا تأخُذْك في الله لومةُ لائمٍ. وخُضِ الغَمَراتِ للحقّ حيثُ كان..»[١]. فالهدف الأساس هو الفوز والنجاح يوم القيامة. لذلك يقول الإمام: «.. فإنّ الغايةَ القيامةُ، وكفى بذلك واعظاً لمنْ عَقَلَ، ومعتَبراً لمنْ جَهلَ!»[٢].

● **معالجة حالات العطاء المتباطئ بكثرة محاسبة النفس:**

يرسم الإمام عليه السلام معالم عطاءات النفس الكبيرة، ويحفّز المؤمنين بالمضي لتحقيق هذا الطموح. فمرة يصف المؤمنين المتقين وسلوكهم وعبادتهم بقوله: «أين القوم الذين دُعُوا إلى الإسلام فقبِلوه، وقرؤُوا القرآن فأحكموه، وهِيجوا إلى الجهاد فوَلِهُوا وَلَهَ اللّقاح إلى أولادها.. لا يُبشَّرون بالأحياء، ولا يُعَزَّوْن عن الموتى، مُرْهُ العيون من البكاء، خُمْصُ البطون من الصيام، ذُبُلُ الشفاه من الدعاء، صُفْرُ الألوان من السّهر. على وجوههم غبرةُ الخاشعين، أولئك إخواني الذاهبون..»[٣].

---

(١) باب الرسائل، رقم ٣١. من مقطع بدايته (أحي قلبك بالموعظة).

(٢) باب الخطب، رقم ١٩٠. مقطع (العظة بالتقوى).

(٣) باب الخطب، رقم ١٢١. اللّقاح: جمع لقوح، وهي الناقة. وولهها إلى أولادها: نزعها إليها إذا فارقتها. مُره العيون: إذا فسدت أو ابيضت حماليقها. عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص٢٣٤-٢٣٥.

ومرّةً يرسم آفاق التحدي والمقاومة بثقةٍ نفسيةٍ عاليةٍ، وروحٍ وثّابةٍ طَموحةٍ، ومعنوياتٍ ثابتةٍ فيقول: «.. وأنا من رسول الله كالضوء من الضوء، والذراع من العَضُد، والله لو تظاهرت العربُ على قتالي لما ولّيْتُ عنها، ولو أمكنت الفُرَصُ من رقابها لسارعتُ إليها، وسأَجهدُ في أن أطهّرَ الأرض من هذا الشخص المعكوس، والجسم المركوس حتى تخرجَ المدَرَةُ من بين حبّ الحصيد»[١]. ويقصد من العرب الضالين والمضلّين منهم، وأما الشخص المعكوس، والجسم المركوس الذي يجهد نفسه لتطهير الأرض منه «هو معاوية، ونعته بالمعكوس لانعكاس عقيدته وفسادها، وبالمركوس لارتكاسه بالشهوات والمحرمات.. ومجمل المعنى أنّ الإمام يريح الإنسانية من شرّ معاوية إن استطاع إلى ذلك سبيلا»[٢]. وقوله عليه السلام: «حتى تخرج المدّرَة من حبّ الحصيد» بمعنى «حتى يتطهر الدين وأهله منه، وذلك لأن الزُّرّاع يجتهدون في إخراج المَدر والحجر والشوك والعوسج ونحو ذلك من بين الزرع كي لا تفسد منابته، فيفسد الحب الذي يخرج منه، فشبّه معاوية بالمدر ونحوه من مفسدات الحبّ، وشبّه الدين بالحبّ الذي هو ثمرة الزرع»[٣].

بعد هذا الرسم البياني للعطاءات الكبيرة للنفس المؤمنة

---

(١) باب الرسائل، رقم ٤٥. المعكوس، يعني في عقيدته، وإنها ليست عقيدة هدى، بل هي معاكسة للحق والصواب. المركوس: من الركس، وهو ردّ الشيء مقلوباً وقلبُ آخره على أوله، والمراد مقلوب الفكر. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٦٧.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص٢١.

(٣) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٥، ج٥، ص١١٣.

المطمئنة، إلى درجة التحدي الأعظم في مواجهة الانحراف لوحده وقد اجتمعت عليه الناس، فهو يثبت لمقاومتهم لثبات إيمانه ويقينه.

للوهلة الأولى - عند المتلقين - تشحن النفوس وتطلب التوفيق للوصول إلى هذه الدرجة من اليقين والعطاء، إلّا أن هذه الساعات تعتبر عاطفية، قد تزول بعد ضعف الحماس المؤقت، فتبدأ النفوس بالتباطؤ في العطاء والتضحية والإقدام تحت ذرائع متعددة. إن علاج هذه الظاهرة الابتلائية يكمن في محاسبة النفس باستمرار، لغرض ترميم الضعف والتحلي الدائم بصفات المؤمنين والمتقين في عطائهم الكبير. يقول الإمام عليه السلام: «من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر»[١]، «عباد الله، زِنوا أنفسكم من قبْل أن توزنوا، وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا. . واعلموا أنه من لم يُعَنْ على نفسه حتى يكونَ له منها واعظ وزاجر، لم يكن له من غيرها لا زاجرٌ ولا واعظ»[٢]. كأنه يريد من الإنسان المؤمن أن يتخذ من نفسه واعظاً لنفسه، وأن يتعامل معها معاملة الشريك في الأداء والمصير، لكافة السلوكيات الصادرة، فتربطه بهذا الشريك رابطة المحاسبة الدقيقة في ميزان العدالة، لغرض تقويمها وتزكيتها. «أي مراعاة استقامتها على حاق الوسط من طرفي الإفراط والتفريط اللّذيْن هما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما فالنقصان لازم والخسران قائم. . [و] محاسبة النفس ضبط الإنسان على نفسه أعمالها الخيريّة والشريّة ليزكيها بما ينبغي لها ويعاقبها على فعل ما لا ينبغي، وهي باب عظيم من أبواب المرابطة في سبيل الله. .»[٣]. وبذلك

(١) باب الحكم، رقم ٢٠٨.

(٢) باب الخطب، رقم ٩٠.

(٣) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٣٣٠-٣٣١.

يتسابق الإنسان مع نفسه في مدارج الترقية والنمو للوصول إلى درجاتٍ عالية من التقوى، تمنعه من ارتكاب الآثام والمعاصي، لذلك قال في بيان أثر التقوى: «عبادَ اللهِ، إنَّ تقوى الله حَمَتْ أولياءَ الله محارمَهُ، وألْزمتْ قلوبَهم مخافتَه.. فأخذوا الرّاحةَ بالنَّصَبِ، والرِّيَّ بالظَّمإ، واسْتقربوا الأجلَ، فبادَروا العملَ»[1].

● الجهاد فريضة تنمويّة:

إن فريضة الجهاد هي محور اختبار المؤمنين وابتلائهم، وهي تعكس مدى التزامهم وإخلاصهم للإسلام وفرائضه. سواء كان الجهاد الأكبر ضد الشيطان والهوى وميول النفس، أو الجهاد الأصغر ضد العدو المعتدي، فالثبات في حلبة الصراع إلى جانب الحق في داخل الذات، وكذلك في جبهة القتال والمواجهة حتى الموت، إنما هي النتيجة النهائية لمسيرة الإنسان الجهادية. ولكن، ونحن في صدد تبيان معالم عطاءات النفس في التضحية والإيثار على مستوى المال والولد والنفس، إنها عطاءات متفاوتة الدرجات، على ضوء الإمكانيات الخاصة، والمبادرات الهادفة، وما تمليه الظروف الموضوعية والتوفيقات لهذه الدرجة من التضحية أو تلك. فالاشتغال الدائم بالعملية الجهادية يضمن التطور في سلّم النمو والتصاعد فيها، وهو الذي يجعل من الإنسان المؤمن مجاهداً على طول الطريق دون توقف. ويكون على أهبّة الاستعداد لخوض غمار المرحلة الأخيرة من

---

(١) باب الخطب، ١١٤. حمى الشيء: منعه، أي منعتهم ارتكاب محرماته. النّصب: التعب ويروى: (فاستبدلوا الراحة). استقربوا الأجل: رأوه قريباً، والأجل هنا: المدّة.. بمعنى الموت. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٢٨٨.

الجهاد أي الاستشهاد في سبيل الله، إذا اقتضى الأمر. إن التوقف أو المراوحة على أسلوب الحياة التقليدية، يعني التراجع والتآكل، وذلك لأن عجلة الحياة لا تتوقف والمعركة مستمرة بين الحق والباطل. فإذن لا بد من الاشتغال بفريضة الجهاد وبأية مرتبة كانت، لينمو المؤمن صفاءً وإخلاصاً وعطاءً.

يقول الإمام عليه السلام: «الصَّلاةُ قربانُ كلّ تقيٍّ، والحجُّ جهادُ كلّ ضعيفٍ، ولكلّ شيءٍ زكاةٌ، وزكاةُ الأبدانِ الصِّيامُ، وجهادُ المرأةِ حُسْنُ التَّبعُّلِ»(١).

فأداء الحج بمثابة الجهاد للضعيف، وجهاد المرأة حسن التبعّل، معناه «حسن معاشرة بعلها وحفظ ماله وعرضه، وإطاعته فيما يأمر به»(٢). فإذا فعلت ذلك كانت بدرجة المجاهد في سبيل الله. وقال عليه السلام أيضاً: «.. وحجُّ البيتِ واعْتمارُهُ، فإنَّهما ينفيانِ الفقْرَ ويَرْحَضان الذَّنْبَ»(٣). فالحج والعمرة يغسلان ذنوب الإنسان، ليتهيأ إلى درجة أعلى في الصفاء الذاتي والعطاء والتضحية.

إن الإمام عليه السلام ضمن أساليب تربيته الجهادية، كأنه يأخذ بيد المؤمنين، ليرتقي بهم خطوةً خطوةً في مسيرة تنموية مستمرة، تطهر - من خلالها - ذواتهم من الذنوب والمعاصي، وتتبلور نواياهم وطموحاتهم، وتتهيأ نفوسهم للمزيد من العطاءات، حتى تصل إلى

---

(١) باب الحكم، رقم ١٣٦.

(٢) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مج ٩، ج١٨، ص٣٩١.

(٣) باب الخطب، رقم ١١٠. رحضه - كمنعه -: غسله. البستاني، عبد الله: البستان، باب الراء، ص٣٩٨.

أعلى الدرجات والمنازل. وبهذه الطريقة تذلّل العقبات أمام المسيرة الجهادية، تغفر الخطيئات والذنوب، وتزال تراكمات المسوّغات والتبريرات وآثارها. وكأنه عليه السلام يسلّط أشعة الإيمان والتقوى على دواخل الإنسان لتأتي نقية الخلفيات، صافية النوايا والتطلعات، كلها عزيمة في العطاء والإخلاص لأداء فريضة الجهاد على كافة المستويات.

قال الإمام عليه السلام: «.. والجهادُ منها على أربع شُعَبٍ: على الأمرِ بالمعروفِ والنهي عنِ المنكرِ، والصِّدقِ في المواطنِ، وشنآنِ الفاسقين: فمنْ أمرَ بالمعروفِ شدّ ظهورَ المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوفَ الكافرين، ومن صَدَقَ في المواطنِ قضى ما عليه، ومن شَنئَ الفاسقين وغَضِبَ لله، غَضِبَ اللهُ له وأرضاه يُوَم القيامة»[1]. والمقصود من المواطن هي «مواطن القتال في سبيل الحق. والشَنَآن -بالتحريك- البغض»[2]. يقول الشارح البحراني: «عبّر عن الشجاعة بالجهاد لاستلزامه إيّاها إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه. والشجاعة هي ملكة الإقدام الواجب على الأمور التي يحتاج الإنسان أن يعرض نفسه لاحتمال المكروه والآلام الواصلة إليه منها»[3]. ونلاحظ آثار العمليات الجهادية في كل شعبة من شعب الجهاد في حالة التنمية حتى تصل إلى قمتها في قتال الأعداء، واستمرار بغضهم غضباً لله سبحانه، وذلك في توضيحه لثمرة كل شعبةٍ جهادية، حيث ستظهر حالة من التماسك في صفوف

(١) باب الحكم، رقم ٣١.

(٢) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٨.

(٣) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٢٣٨.

المؤمنين، تقابلها حالة الذلة لدى الكافرين، ثم الوقوف بصدق في مواطن القتال في سبيل الله، واستمرارية حالة الغضب الخالص لله نحو الفاسقين. وفي موقع آخر قال: «ولكنَّ اللهَ يختبرُ عبادهَ بأنواع الشَّدائِدِ، ويتعبَّدُهُمْ بأنواع المَجَاهد، ويبْتليهم بضروبِ المكاره، إخراجاً للتكبُّر من قلوبهم، وإسْكاناً للتَّذلُّلِ في نفوسِهم، وليجعلْ ذلك أبواباً فُتُحاً إلى فضله، وأسباباً ذُلُلاً لعفوه»[1]. فإن الذي يدخل في دورة تربوية جهادية في حياته، بأنواع الشدائد والمشاق والمجاهدة والابتلاء بالمكروهات تُصقل شخصيته، وتصفّي نفسيته وأخلاقه، وترشد أفكاره، ويعالج ذله وانكساره النفسي لضعفه بالاعتماد على الله سبحانه فيفتح له آفاقاً مرنةً وسهلة لنيل فضله وعفوه - جلّ وعلا - وبذلك تتحقق تنمية إيمانه وجهاده وعطاءاته.

---

(١) باب الخطب، رقم ١٩٢. نهاية مقطع (الكعبة المقدسة). الفُتُح -بضمتين -: الباب الواسع المفتوح، ويقابله الغُلُق. البستاني، عبد الله: البستان، باب الفاء، ص٨٠٤.

المطلب الثالث

الدعاء - بصدق وإخلاص - إلى الله سبحانه

يؤمن المجاهدون بأن قوتّهم الذاتية وإمكانياتهم الخاصة، إنما تكلّل بالنجاح، وتهزم العدو، لاعتمادها على الدعم الإلهي. فهم يدركون يقيناً بأن الله سبحانه وتعالى هو صاحب القدرة والهيمنة على هذا الوجود ومن فيه .﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾[1] فهو القادر على قطع دابر الكافرين، وقطع نياط قلوب المعتدين، بل ويجعل هلاكهم على أيدي المؤمنين المجاهدين ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2]. كل ذلك ضمن الحكمة الربانية والمصلحة العامة التي تقع في التقديرات الإلهية الخاصة. فمهما كانت قدرات المؤمنين - التي هي أساساً من منح الله وفضله - المستخدمة لمواجهة الشيطان أو العدوان الخارجي، ومهما كانت ثقة المجاهدين بأنفسهم وإمكانياتهم المتاحة فإنهم ببصيرة الإيمان ووعي الحقائق بحاجة ماسةٍ إلى التوفيق الإلهي المتواصل ليضمنوا نجاحهم ويحققوا أمنياتهم في السيطرة على هوى الذات وإغراءات الشيطان، وطرده

---

(١) سورة الفتح ٤٨/ ١٠.

(٢) سورة الأنفال ٨/ ١٧.

من ساحتهم الداخلية والخارجية. وكذلك في السيطرة والغلبة على الأعداء بجبروتهم وطغيانهم.

هذه العلاقة الجوهرية بالخالق الكريم تتعزّز بالدعاء الخالص، إلى جانب العمل الإيماني والجهادي. فالله سبحانه بيده أسباب المغفرة والحكمة والانتصار، وبيده قلوب الأعداء أيضاً. قال الإمام علي عليه السلام في وصيته لولده الحسن عليه السلام: «.. واعْلَمْ أنَّ الذي بيدِهِ خزائنُ السماواتِ والأرضِ قدْ أذن لك في الدعاء، وتكفّلَ لك بالإجابةِ، وأمرَك أن تسألهُ ليُعطيك، وتسترحمَهُ ليرحمَك، ولم يجعل بينَك وبينَه من يَحجُبُك عنه، ولم يُلجئْكَ إلى منْ يشفعُ لك إليه، . . . فإذا ناديتَهُ سمع نداك، وإذا ناجيتَهُ علمَ نجواك، فأفْضيْتَ إليه بحاجتك، وأبْثَثْتَه ذاتَ نفسِك، وشكوْتَ إليه همومَك، واسْتكشفتَهُ كروبَك، واستعنتهُ على أمورك، وسألْتَهُ من خزائنِ رحمتِهِ ما لا يقْدِرُ على إعطائِهِ غيرُهُ، من زيادة الأعمار، وصحّةِ الأبدانِ، وسَعَةِ الأرزاق. ثم جعل في يديْك مفاتيحَ خزائِنِه بما أذِنَ لك فيهِ من مسألتِهِ، فمتى شئتَ اسْتَفْتَحْتَ بالدُّعاءِ أبواب نعمتِهِ..»[1]. والملاحظ أن الإمام عليه السلام قد «استعار لفظ المفاتيح للأدعية باعتبار أنها أسباب لتحصيل النعمة وكمال الرحمة، متى شاء استفتح بها أبواب خزائنها، وكذلك استعار لفظ الأبواب لأسباب جزئيات النعم الواصلة إلى العبد. وخزائن نعمِه هي خزائن السماوات والأرض. إذْ الكلُّ منه وبيده»[2]. ومن هنا نفهم

(١) باب الرسائل، رقم ٣١. (بداية مقطع). المناجاة: المكالمة سرّاً. أفضيت: ألقيت. أبثثته: كاشفته. ذات النفس: حالتها وحاجتها. كروبك: طلبت كشفها. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٦٤٤.

(٢) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٣٥.

-أيضاً- أنّ السعيَ لدى المؤمن يعني الدعاء الخالص لله سبحانه المقترن بالعمل، وعليه «يجب أن لا نغتر بأعمالنا ولا نركن إليها في علاقتنا مع الباري ﷻ، لأن الذي يرشحنا لرحمة الله سبحانه وتعالى هو الدعاء»[(١)]. فالمؤمن يستحيل أن يفصل نفسه وقدراته عن الخالق المدبر المهيمن. فالدعاء - إذن - أسلوب مهم من أساليب التربية الجهادية، نتناوله ضمن المحاور التالية:

١• صدق النوايا وإخلاص السريرة، والتوكل على الله وحده.

٢• في آداب الدعاء.

٣• عمل المؤمن بين الخوف والرجاء.

• صدق النوايا وإخلاص السريرة، والتوكل على الله وحده:

إن الصدق في نوايا القلب، وإدعاءات اللسان، والعمل في الميدان، المرفقة بالدعاء، من أساسيات الاستجابة الإلهية، فالله سبحانه وتعالى يميّزها وهو العالم بالخفيّات ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[(٢)]. وليست المسألة خاضعة للادعاء اللساني فقط. فالمؤمنون ينطلقون في عملهم وجهادهم بالأسباب المادية المتاحة لديهم، متوكلين على الحي القيوم بكامل قواهم، داعين إلى الله في نيات قلبية صادقة وخفايا نفسية مخلصة، بالنصر على الأعداء لغرض إعلاء كلمة الله في الأرض، خدمة للمسلمين والإنسانية معاً. وذلك بشكل يضمن التوازن والتطابق بين العمل الميداني، والدعاء

---

(١) المدرسي، السيد محمد تقي: الدعاء، معراج الروح ومنهاج الحياة، ص ٣٠.

(٢) سورة غافر ١٩/٤٠.

بالتسديد، والقبول والفوز بالآخرة وهذا التطابق من عوامل الصدق الذي يؤدي إلى استجابة الدعاء. يقول الإمام علي عليه السلام: «لا تكن ممّن يرجو الآخرةَ بغير العمل، ويُرَجّي التوبةَ بطول الأمل، يقولُ في الدنيا بقولِ الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الرّاغبين، . . إنْ أصابَهُ بلاءٌ دعا مُضْطرّاً، وإنْ ناله رخاءٌ أعرضَ مُغْتَرّاً. . يُقصّر إذا عَمِلَ، ويبالغُ إذا سَأَلَ، . . فهو بالقوْل مُدلٌّ، ومن العمل مُقلٌّ، ينافسُ فيما يَفنى، ويُسامِحُ فيما يَبقى. .»[١]. بينما من المفروض أن يصدر العمل والدعاء عن صدق وإخلاص لله وحده سبحانه. يقول الإمام: «يدّعي بزعمِهِ أنّهُ يرجو اللهَ، كَذَبَ والعظيم! ما بالُهُ لا يَتبيَّنُ رجاؤُهُ في عملِهِ؟ فكلُّ منْ رجا عُرِفَ رجاؤُهُ في عملِهِ. وكلُّ رجاءٍ - إلّا رجاءَ الله تعالى - فإنّه مدخولٌ، وكلُّ خوفٍ محقَّقٌ - إلّا خَوْفَ اللهِ- فإنّهُ معلولٌ»[٢]. «ومراد الإمام: أنّ الراجي لعبدٍ من العبيد يظهر رجاؤه في سعيه واهتمامه بشأن من رجاه، وموافقته على أهوائه، وكذلك الخائف من أمير أو سلطان يرى أثر خوفه في تهيّبه، والامتناع من كلّ ما يحرّك غضبه، بل ما يتوهم فيه أنه غير حسنٍ عنده، لكنهم في رجاء الله يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، مع أنهم يرجون الله في سعادة الدارين، ويخافونه في شقاء الأبد، فيعطون للعبيد ما لا يعطون لله»[٣].

---

(١) باب الحكم، رقم ١٥٠. يُرَجّي التوبة - بالتشديد -: أي يؤخر التوبة. أدلّ على أقرانه: استعلى عليهم. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٧١٨، رقم ٤٦٦٣، ٤٦٥٠.

(٢) باب الخطب، رقم ١٦٠. مقطع (كيف يكون الرجاء؟).

(٣) التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٣٧٣. المدخول: المغشوش غير الخالص، أو هو المعيب الناقص الذي لا يترتب عليه عمل. الخوف المحقّق: =

نعم، إن هذه الدقة في معرفة النوايا القلبية لا يميّزها إلا الله سبحانه وتعالى، فإن كانت صادقة والحكمة الإلهية تقتضي استجابة دعاء هؤلاء العباد في مشروعهم الجهادي، فسينزل الله سبحانه الدعم والنصر لهم، وبعدوّهم الهزيمة والانكسار. يقول الإمام علي عليه السلام: «فلمّا رأى اللهُ صدقَنا أنْزلَ بعدوّنا الكبْتَ، وأنْزلَ علينا النصرَ..»[1]. فهو وحده القادر على كل شيء، وإليه مصائر الأمور، لذلك يقول في وصيته لولده الحسن عليه السلام: «.. وألْجِئْ نفسك في أمورك كلِّها إلى إلهِك،.. وأخْلِصْ في المسألةِ لربّك، فإنَّ بيده العطاءَ والحرمانَ»[2]. إن من دواعي استجابة الدعاء، صدق التطابق والتوازن بين القول والعمل والدعاء - كما أسلفنا- ومن مصاديق ذلك عدم الركون إلى الدعاء فقط من دون الدخول في تفاصيل العمل الإصلاحي والجهادي داخل الأمة. لذلك يقول عليه السلام في وصيته للإمامين الحسن والحسين - عليهما السلام -: «واللهَ اللهَ في الجهادِ بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله.. لا تتركوا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر فيُوَلّى عليكم شرارُكم، ثم تَدعونَ فلا يستجابُ لكم»[3].

= الثابت.. وهو في جانب الله ما يمنع عن إتيان نواهيه. الخوف المعلول: هو ما لم يثبت في النفس، ولم يخالط القلب، وإنما هو عارض في الخيال، يزيله أدنى الشواغل. المرجع ذاته.

(١) باب الخطب، رقم ٥٦.

(٢) باب الرسائل، رقم ٣١. مقطع (أحْي قلبك بالموعظة).

(٣) باب الرسائل، رقم ٤٧.

● في آداب الدعاء:

ركّز الإمام عليه السلام على تكريس منهجية الدعاء والتوسل بالله القادر الحكيم، ضمن تربيته الجهادية. وذلك لما للدعاء من آثار نفسية وأخلاقية عالية، بالإضافة إلى الآثار المعنوية الهائلة لدى المجاهدين بالتحديد. فكان الإمام كثير الدعاء والتوسل بالله سبحانه. فالأدعية التي أشرنا إليها سابقاً أثناء بحثنا في الدعاء، ذكرنا ما أورد الشريف الرضي في النهج من أدعية، بعناوين مستقلة فقد ذكر أربعة أدعية في باب الخطب، ودعاء في باب الرسائل[١]. إلّا أننا نقرأ ضمن نهج البلاغة - أيضاً - الكثير من الأدعية ضمن خطب الإمام ورسائله وحِكَمه، ذكر الأستاذ أويس كريم محمد في كتابه «المعجم الموضوعي لنهج البلاغة» ٢٦ دعاءً[٢]. منها مثلاً دعاؤه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بقوله: «اللهم افْسَحْ له مَفْسَحاً في ظلّك، واجْزِهِ مُضاعفاتِ الخيرِ من فضلِك... اللهم اجْمَعْ بيننا وبينه في بَرْدِ العيشِ وقرار النِّعْمة»[٣].

إن الاهتمام الكبير الذي أولاه الإمام عليه السلام للدعاء، حدّد له مجموعة آداب تربوية، لغرض الارتفاع بنفسية المؤمنين إلى درجات من اليقين والخشوع التي تؤهلهم لمخاطبة الله سبحانه، والاستسلام لقدرته وعظمته ولطفه. ومن أهم تلك الآداب هي:

---

(١) راجع باب الخطب، الأرقام التالية: ٧٨، ٢١٥، ٢٢٥، ٢٢٧. وباب الرسائل رقم ١٥.

(٢) محمد، أويس كريم: المعجم الموضوعي لنهج البلاغة، ص ١٩٠-١٩١.

(٣) باب الخطب رقم ٧٢، مقطع (الدعاء للنبي). قرار النعمة: مستقرها حيث تدوم ولا تَفنى.

أ • افتتاح الدعاء بذكر الله سبحانه والثناء عليه، والصلاة على الحبيب المصطفى محمد وآله. قال الإمام علي عليه السلام: «إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجةً فابْدَأ بمسألةِ الصلاةِ على رسوله، صلّى الله عليه وآله وسلّم، ثم سَلْ حاجَتَك، فإنّ اللهَ أكرمُ من أنْ يُسألَ حاجتيْن، فيقضيَ إحداهُما ويمنعَ الأخرى»(١).

ب• الزمان والمكان: قال الإمام في وصيته لولده الحسن: «.. فمتى شئْت اسْتفتحت بالدُّعاء أبوابَ نعمتِهِ، واسْتمطرتَ شآبيبَ رحمتِه»(٢). إن الله سبحانه في كل مكان وزمان بعلمه، إذا توجه العبد بقلبه ومشاعره بالدعاء إليه فإنه قريب مجيب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(٣). يقول الإمام عليه السلام في خطبة له: «.. فاسْتفتحُوهُ، واسْتنجحُوهُ، واطْلُبُوا إليه واسْتَمْنِحُوهُ، فما قطعَكم عنه حِجابٌ، ولا أغلقَ عنكم دونه بابٌ، وإنّه لَبكُلّ مكانٍ، وفي كلّ حينٍ وأوانٍ، ومع كلّ إنسٍ وجانٍ، لا يَثْلمُهُ العطاءُ، ولا ينقصُهُ الحِباءُ.. ولا يُلهيه صوتٌ عن صوتٍ، ولا تحْجُزُهُ هبَةٌ عن سَلْبٍ، ولا يُشغلُه غضبٌ عن

(١) باب الحكم، رقم ٣٦١.

(٢) باب الرسائل، رقم ٣١. مقطع (واعلم إن الذي بيده..) شآبيب: جمع الشُّؤبوب - بالضم -: وهو الدفعة من المطر، وما أشبه رحمة الله بالمطر ينزل على الأرض الموات فيحييها. الصالح، د. صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة: ص٦٨٥، رقم ٣٦٦٥.

(٣) سورة البقرة ٢/١٨٦.

رحمةٍ.. قرُبَ فَنَأى، وعلا فَدَنا..»[١]. وقال أيضاً: «.. ادفعوا أمواجَ البلاءِ بالدّعاءِ»[٢]. نعم هنالك خصوصيات لبعض الأزمنة والأمكنة، كالدعاء في البيت الحرام مكاناً، وفي نصف الليل زماناً. قال الإمام: «.. إن داوُودَ عليه السلام قام في مثل هذه الساعة من الليل، فقال: إنها لساعةٌ لا يدعو فيها عبدٌ إلّا اسْتُجيبَ له..»[٣].

ج • التيقّن من أن الله سبحانه وتعالى سميع مجيب للدعاء، قال الإمام: «.. من أُعطيَ الدُّعاءَ لم يُحْرَمِ الإجابَةَ..»[٤]. إلّا أن مسألة الاستجابة وظهور الأثر، فهي تخضع للحكمة الإلهيّة، والمصلحة المنشودة حيث يحددها الله - عزّ وجلّ - قال الإمام عليه السلام: «.. فلا يُقَنّطَنّكَ إبْطاءُ إجابَتِهِ، فإنَّ العطيةَ على قَدْرِ النيَّةِ. وربّما أُخّرتْ عنك الإجابةُ، ليكونَ ذلك أعظمَ لأجْرِ السائِلِ، وأجْزَلَ لعطاء الآمل. وربّما سألتَ الشيءَ فلا تُؤْتاهُ، وأُوتيتَ خيراً منه عاجلاً أو آجلاً، أو صُرِفَ عنك لما هو خيرٌ لك، فلرُبّ أمْرٍ قد طلبْتَهُ فيه هلاكُ دينك لو أوتيتَهُ، فلتكُن مسألتُك فيما يبقى لك

---

(١) باب الخطب، رقم ١٩٥. من مقطع (العظَة). استفتحوه: اسألوه الفتح على أعدائكم. استنجحوه: اسألوه النجاح في أعمالكم. استمنحوه: التمسوا منه العطاء. ثلم السيف: كسر جانبه، مجاز عن عدم انتقاص خزائنه بالعطاء. الحباء - ككتاب-: العطية لا مكافأة. عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص١٦٨.

(٢) باب الحكم، رقم ١٤٦.

(٣) باب الحكم، رقم ١٠٤.

(٤) باب الحكم، رقم ١٣٥.

جمالُهُ، ويُنفى عنك وبالُه، فالمالُ لا يبقى لك ولا تبقى له»[١]. فالمؤمن متيقن بأنّ الله سبحانه يريد مصلحته وبشخصها، فعدم الاستجابة للدعاء أو تأخيرها إنما هو لصالح الإنسان، لأن «الله أعلم من الإنسان ما يصلحه ويفسده، فيصرف عنه ما سأل، ويعيطه خيراً منه وأفضل»[٢].

د • الندم والتوبة والبكاء والخشوع، من آداب الدعاء في صورته الواعية والصادقة. قال الإمام عليه السلام عند تلاوته الآية الكريمة: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٣]: «..وقد نَشَروا دواوينَ أعمالِهم، وَفَرَغوا لمحاسبةِ أنفسِهم على كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ أُمِروا بها فقَصَّروا عنها، أو نُهُوا عنها ففرَّطوا فيها، وحَمّلوا ثِقْلَ أوزارِهِمْ ظهورَهم، فضَعفوا عن الاستقلال بها، فَنَشَجوا نشيجاً، وتجاوبوا نحيباً، يَعِجُّون إلى ربِّهم من مقام نَدَمٍ واعْترافٍ، لرأيتَ أعلامَ هدى ومصابيح دجى، قد حفَّتْ بهمُ الملائكةُ، وتنزَّلتْ عليهمُ السَّكينةُ، وفُتحتْ لهم أبوابُ السماءِ، وأُعِدَّتْ لهم مَقاعِدُ الكرامات، في مقعدٍ اطّلع اللهُ عليهم فيه، فَرَضيَ سعيَهُم، وحَمِد مقامهم. يتنسّمون بدعائه روحَ التَّجاوُزِ، رهائنُ فاقةٍ إلى فضلِه،

---

(١) باب الرسائل، رقم ٣١. من مقطع (واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض). القنوط: اليأس والمنع. البستاني، عبد الله: البستان، باب القاف، ص٩١٥.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٣، ص٥٠٧.

(٣) سورة النور ٢٤/ من الآيتين ٣٦، ٣٧.

وأسارى ذِلَّةٍ لعظمتِه، جَرَح طولُ الأسى قلوبَهم، وطولُ البكاءِ عيونَهم. لكلِّ باب رغبةٍ إلى اللهِ منهم يدٌ قارعةٌ، يسألون من لا تضيقُ لديه المنادحُ، ولا يخيبُ عليه الراغبون»[١]. يقول ابن ميثم البحراني: «نشيجهم ونحيبهم وعجّهم بالندم والاعتراف بالذنب، إشارة إلى حالهم في تدارك ذلك الخسران بالشروع في الجبران. فأول مقاماته التوبة ولوازمها المذكورة، ثم العمل»[٢].

● عمل المؤمن بين الخوف والرجاء:

إن الحالة المتأرجحة بين الخوف والرجاء، تسلب من الإنسان المجاهد السلوكية السلبية في عدم المبالاة أو الارتخاء على رضاه بنفسه فيما قدّم إلى دينه وأمته. وتزوّده بطاقات معنوية متجددّة لكسب المزيد من الأعمال الخيرّة والصالحة، والانشداد المتواصل بعمله الجهادي وتطويره. لأنه يخاف التقصير أو الخلل في مسيرة

---

(١) باب الخطب، رقم ٢٢٢. الدواوين: جمع ديوان، وهو مجتمع الصحف. الأوزار: جمع وِزر، الحمل، ويراد به هنا: الذنوب فجعلوها حملاً على ظهورهم، فضعفوا عن القيام بحملها. نشج الباكي: ينشج - كضرب يضرب - نشيجاً: غصّ بالبكاء في حلقه. النحيب: أشد البكاء. وتجاوبوا به: أجاب بعضهم بعضاً يتناحبون. عجّ: صاح ورفع صوته، فهم يصيحون في مواقف الندم والاعتراف بالخطأ. تنسّم النسيم: تشمّمه. والرَّوْح - بالفتح - النسيم، أي يتوقعون التجاوز بدعائهم له. الأسى: الحزن. المنادح - جمع مندوحة -: وهي كالنُدْحة - بالضم والفتح - والمتندَح - بفتح الدال-: المتسع من الأرض. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٥٤٤-٥٥٥.

(٢) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، مج ٤، ص٧٣.

عطائه، الذي يؤدي إلى عدم القبول عند الله سبحانه. وعليه لا بد أن يجبر حالته المصيرية المتأرجحة بين الخوف والرجاء بالدعاء إلى الله ﷻ، للتوفيق في الاستزادة من العمل الجهادي والإصلاحي، وكذلك في الإخلاص المطلوب لضمان نيل رضا الله وثوابه. وهذا الأمر يجري في عموم أعمال وإنجازات المؤمن، من عبادته وتقواه، إلى سلوكياته وخدماته، إلى جهاده وعطائه.

إن حالة الحذر المرتبطة بالرجاء تزيد من فاعلية التقوى في الحياة وتعمق الارتباط بالله عن طريق الدعاء والتوسل. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[1].

قال الإمام عليه السلام في وصف أصحاب رسول الله ﷺ: «.. لقد رأيتُ أصحابَ محمّدٍ ﷺ.. إذا ذُكر الله هَمَلَتْ أعينُهم حتى تَبُلّ جيوبَهم، ومادوا كما يميدُ الشجرُ يوم الرِّيح العاصِف، خوفاً من العقاب ورجاءً للثواب»[2]. قال ابن أبي الحديد في شرحه: «ومادوا: تحركوا واضطربوا، إمّا خوفاً من العقاب كما يتحرك الرجل ويضطرب، أو رجاءً للثواب كما يتحرّك النشوان من الطرب، وكما يتحرك الجذل المسرور من الفرح»[3]. وقال في عهده إلى محمد بن أبي بكر - رضي الله عنه - حين قلده مصر: «.. فاحْذروا عبادَ اللهِ الموتَ وقُرْبَه، وأعِدّوا له عُدَّته.. فاحْذروا ناراً قعرُها بعيدٌ، وحرّها شديدٌ،

(١) سورة الأعراف ٧/ ٥٦.

(٢) باب الخطب، رقم ٩٧. مقطع (أصحاب رسول الله).

(٣) ابن أبي الحديد المعتزلي، عز الدين: شرح نهج البلاغة، مج ٤، ج٧، ص٥٤.

وعذابُها جديدٌ.. وإن اسْتطعتم أن يشتدَّ خوفُكم من الله، وأن يَحْسُنَ ظنُكم به، فاجْمَعوا بينهما، فإنّ العبد إنما يكون حُسْنُ ظنّه بربّه على قَدْرِ خوفِه من ربِّه، وإنّ أحسنَ النّاس ظناً بالله أشدُّهم خوفاً لله..»[١].

قال السيد الشيرازي في توضيحه لقوله عليه السلام: «وان استطعتم أن يشتد خوفكم من الله»: «بتوليد موجبات الخوف منه تعالى في أنفسكم بكثرة التفكير والعبادة، «وأن يحسن ظنكم به» بأن تظنوا به سبحانه أن يدخلكم الجنّة «فاجمعوا بينهما» أي الخوف والرجاء. «فإن العبد إنما يكون حسن ظنه بربه على قدر خوفه من ربه» فإن من خافه سبحانه كان عارفاً بنقمته، ومن كان عارفاً بنقمته يكون عارفاً برحمته، فيكون حسَنَ الظن به، إذ لازم المعرفة عرفان كلٍ من الرحمة الموجبة للرجاء، والنقمة الموجبة للخوف. «وإن أحسن الناس ظناً بالله» بأن يرحمه ويتفضل عليه «أشدّهم خوفاً لله» باحتمال أن يعاقبه وينكل به»[٢].

وجاء في كتابه إلى الأسود بن قُطبة، صاحب جند حلوان: «..وابْتذلْ نفسَك فيما افْتَرَضَ اللهُ عليك، راجياً ثوابَه، ومتخوّفاً عقابَه»[٣]. بمعنى «أن يبذل نفسه فيما افترض الله عليه حالتي رجائه لثوابه وخوفه من عقابه لكونها داعي العمل»[٤].

---

(١) باب الرسائل، رقم ٢٧.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٤ص٢٦.

(٣) باب الرسائل، رقم ٥٩.

(٤) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٨٥.

المطلب الرابع

ترويض النفس لغرض
تحمل الصعاب، وحبّ الآخرين

من أساليب التربية الجهادية المهمة للغاية، موضوع ترويض النفس، وذلك عبر الإحاطة بمعرفة قوى النفس، ومعالجتها بالتمارين الشديدة لغرض حملها على الثبات في المواقف الصعبة، على أسس الاستقامة والعطاء وحب الآخرين. ولتصبر على المشاق والمعاناة في مسيرة العمل الجهادي المضْني. وهذه المسألة في غاية الدقة والخطورة، تستدعي اليقظة الدائمة، والانتباه المتواصل، والتفكير في الارتقاء بها إلى أعلى المراتب صدقاً ونقاوة وتضحية.

إن نجاح العمليات الترويضية للنفس، يعني النجاح في المعركة الداخلية مع الهوى وإغراءات الشيطان. والنجاح في معركة النفس، يعني نجاح الاستعدادات لخوض المعركة الخارجية مع العدو في ساحة القتال. فإذن أساس الانتصار لدى المجاهدين ينطلق في ميدان الجهاد الأكبر أي جهاد النفس - كما سمّاه الرسول الأعظم ﷺ في حديثه الشريف الذي أشرنا إليه سابقاً[1]. وبالفعل «إن المعركة مع النفس أشق وأخطر معركة يخوضها الإنسان في حياته.. فهي معركة

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر: بحار الأنوار ج٧٠ ص٦٤.

حتمية لا خيار لأحد فيها ولا يستثنى أحد منها.. وهي معركة دائمة مساحتها طوال عمر الإنسان.. كذلك فإنها معركة شاملة تستوعب كل جوانب حياة الإنسان ومختلف شؤونه..»[١].

فإذن يحتل أسلوب ترويض النفس، لأجل السيطرة عليها موقفاً في غاية الأهمية والخطورة، ومن خلال هذه المعركة يتحدد مصير الإنسان في مستقبله. يقول الإمام عليه السلام: «.. ولا يَلُمْ لائمٌ إلّا نفسه»[٢].

نتناول ترويض النفس ضمن المحاور التالية:

١• المراقبة والمحاسبة الدائمة للنفس، لكسب المزيد من التقدم والنجاح.

٢• عدم الرضى عن النفس واتهامها دوماً.

٣• حمل النفس على الصبر في الطاعة والعبادة والجهاد.

٤• تطبيقات للتعاليم القتالية.

• المراقبة والمحاسبة الدائمة للنفس، لكسب المزيد من التقدم والنجاح:

إن جهاز المراقبة الذاتية لتصرفات الإنسان وسلوكياته، يعدّ من الألطاف الإلهية الخفيّة، والمنن الخاصة بالإنسان. وبواسطته يتم رصد أعمال الإنسان وآثارها في الحياة، ومن ثم مراجعتها من قبل الإنسان نفسه، ليعدّ الإجابات المقنعة عن تلك السلوكيات التي صدرت عنه،

---

(١) الصفار، حسن: معرفة النفس، ص ٣٧.

(٢) باب الخطب، رقم ١٦، آخر الكلام.

فيسرع إلى معالجتها سلباً أو إيجاباً، ويكون في وعيه المبدئي إنه سيُسأل عنها بدقة يوم الحساب، وأية محاولات للتلفيق والغش والتلاعب مردودة من الأساس، لأن المحاكمة الإلهية يوم القيامة لها مقاييسها الخاصة التي لا مفرّ من الإذعان التام لها. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[1] وفي آية كريمة أخرى يقول ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[2].

كما ويمكن تطوير هذا الجهاز بالتغذية الإيمانية واليقظة الوجدانية بالمصير المنتظر للإنسان، فتشكل محاكمات بدائية للسلوكيات العامة، لغرض تصنيفها وتوجيهها ودراسة انعكاساتها على الناس الآخرين، شركائنا في الحياة. خصوصاً في الحالات الخالية من الانفعالات والغضب والضغوط، وذلك ليتم التوصل من قبل الإنسان بذاته إلى سبل المعالجة على ضوء درجة الإيمان.

ومن ثمّ قد يتم تمييز المرافعات واستئنافها بين فترة وأخرى، ومقارنتها بالجديد من السلوكيات بعد المراجعة الأولى والعتاب والتوبيخ، إلى أن تصل بالإنسان إلى درجة تقربه من الاطمئنان والرضى لسلوكه، وإيمانه، وجهاده. هذا بالنسبة للإنسان المؤمن السّوي المتطلع للنجاة والتقرّب إلى الله سبحانه.

أما الإنسان الذي لا يمتلك بصيرة اليقين ووعي الإيمان، ففي حينها تتوسع لديه دائرة اللامبالاة والمخالفات والمعاصي شيئاً فشيئاً،

---

(١) سورة يس، ٨٣/ ٦٥.

(٢) سورة ق، ٥٠/ ١٨.

وتكرار تلك الآثام خصوصاً الكبائر منها، ستشل عمل هذا الجهاز وينطفئ نور المحاسبة الإيمانية من تلك القلوب المتحجرة، يقول ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴿١٤﴾﴾[1] (والمعنى غلبت ذنوبُهم على قلوبهم وقيل: إن معنى الرين هو الذنب على الذنب حتى يموت القلب، وروى العياشي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما من عبدٍ مؤمنٍ إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في تلك النكتة نكتة سوداء، فإذا تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطّي البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خيرٍ أبداً، وهو قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾[2]. وبالمناسبة إن مجتمع المؤمنين لا يحتاج إلى أجهزة أمنية لمراقبة تصرفاتهم وحركاتهم، فهم مع وجود نور الإيمان في قلوبهم في غنىً عن تلك الأجهزة الحكومية، فهم يعالجون ضعفهم ويراجعون حساباتهم ويطوّرون إيجابياتهم ضمن المصلحة العامة في أطر الشريعة. لذلك نلاحظ الإمام علي عليه السلام يعتمد هذه الوسيلة بقوّة في تربيته الجهادية، لضمان مسيرة الإنسان في إيمانه وجهاده. فنقرأ كثيراً في وصاياه وأقواله، إثارات تنشيطيّة لجهاز المراقبة والمحاسبة الدائمة للنفس، وبذلك يتم تزكيتها من الانحراف وعموم السلبيات والآثام، وكذلك يُضمن تطوير العمل الجهادي باستمرار. لنستمع إلى بعض أقواله عليه السلام في هذا الصدد.

يقول الإمام في إحدى حكمه: «من حاسب نفسه ربحَ، ومن

---

(١) سورة المطففين، ٨٣/ ١٤.

(٢) الطبرسي، الشيخ أبو علي الفضل: مجمع البيان في تفسير القرآن، المجلد السادس، ج٣٠ ص ٦٦-٦٧.

غَفَلَ عنها خسِرَ»[١]. وقال في وصف أهل الذكر: «إن الله سبحانه وتعالى جعل الذِّكرَ جِلاءً للقلوب، تسمَعُ به بعد الوَقْرَةِ، وتُبْصِرُ به بعدَ العَشْوَة، وتنقادُ به بعد المعانِدِة، وما برحَ لله - عزَّتْ آلاؤُهُ - في البُرْهَة بعدَ البُرْهَةِ، وفي أزمانِ الفَتَراتِ، عبادٌ ناجاهم في فكرهمْ، وكلَّمهم في ذاتِ عقولِهم، فاسْتصبحوا بنور يَقَظَةٍ في الأبصارِ والأسماعِ والأفئدة، يُذكِّرون بأيّام الله. ويخوِّفون مقامَه.. [حتى يقول في آخر كلامه]، فحاسبْ نفسَك لنفسِك، فإن غيرها من الأنفسِ لها حسيبٌ غيرُك»[٢]. فالذي يحاسب نفسه إنما يخدم نفسه لغرض نجاتها من يوم الحساب الأكبر، وعليه أن يدع الانشغال بمحاسبة الآخرين، لأن حسابهم عند الله سبحانه. وقال في خطبة أخرى: «عبادَ الله، زِنوا أنْفسَكم من قبل أن تُوزَنوا، وحاسِبوها من قبل أنْ تُحاسبوا..»[٣].

- **عدم الرضى عن النفس، واتهامها دوماً:**

وذلك لنبذ الحالات السلبية، والاستزادة من الإيجابيات بالترغيب والترهيب، حتى يصل المؤمن في جهاده إلى أعلى المستويات كطموح عملي مشروع. لذلك يقول الإمام عليه السلام: «ومن

---

(١) باب الحكم، رقم ٢٠٨.

(٢) باب الخطب، رقم ٢٢٢. جِلاء - بالكسر -: من جلا السيف يجلوه إذا صقله وأزال منه صدأه. الوَقْرة: ثقل في السمع. العشوة: ضعف البصر. ناجاهم: أي خاطبهم بالإلهام. استصبح: أضاء مصباحه. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٦٦٨، الرقم ٢٠٨٨-٢٠٩٣.

(٣) باب الخطب، رقم ٩٠.

رضيَ عن نفسِه كَثُرَ السّاخِطُ عليه»[١]. وقال في وصف المتقين: «. . لا يرضَوْن من أعمالِهِمُ القليلَ، ولا يَستكثرون الكثيرَ. فهمْ لأنفسهم متَّهمونَ، ومن أعمالهم مُشْفِقون، إذا زُكّيَ أحدٌ منهم خاف ممّا يقالُ له، فيقول: أنا أعْلمُ بنفسي من غيري، وربِّي أعلمُ بي منّي بنفسي! اللهم لا تؤاخذْني بما يقولون، واجعلْني أفضلَ ممّا يُظنُّون، واغفِرْ لي ما لا يعلمون»[٢]. ومعنى هذا الجزء من وصف المتقين «إنهم «لا يرضون من أعمالهم القليل» أي لا يقتنعون بالقليل، لعلهم بشرف الغايات المقصودة من العبادات وعظم ما يترتب عليها من الثمرات، وهو العتق من النار والدخول في الجنّة والوصول إلى رضوان الله الذي هو أعظم اللذات وأشرف الغايات. . . وإنهم «لا يستكثرون» من أعمالهم «الكثير»، أي لا يعجبون بكثرة العمل ولا يعدّونه كثيراً، وإن أَتعبوا فيه أنفسهم، وبلغوا غاية جهدهم. . «فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون» يعني أنهم يتّهمون أنفسهم وينسبونها إلى التقصير في العبادة»[٣]. والطاعة والجهاد في سبيل الله.

- **حمل النفس على الصبر في الطاعة والعبادة والجهاد:**

بل أكثر من ذلك تعويدها على العطاء، والخوض بها في الصعاب، لإجهادها وإرضاخها لمسيرة الإيمان والجهاد في سبيل الله

---

(١) باب الحكم، رقم ٦.

(٢) باب الخطب، رقم ١٩٣. مشفقون: خائفون من التقصير وحاذرون من القلّة. البستاني، عبد الله: البستان، باب الشين، ص. . ٥٦٥ زُكّي أحدهم: مدحه أحد الناس. البستاني، عبد الله: البستان، باب الزاي، ص٤٥٧.

(٣) الخوئي، العلامة ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج١٢، ص١٣٠-١٣٣.

وحبّ الآخرين من الناس. قال الإمام عليه السلام في وصيته لولده الحسن عليه السلام: «.. أي بُني.. وعَوّدْ نفسك التصبُّرَ على المكروه، ونعمَ الخُلُقُ التَّصَبُّرُ في الحقِّ.. يا بُنَيَّ اجعلْ نفسَك ميزاناً فيما بينَك وبينَ غيرِك، فأحْبِبْ لغيرك ما تُحِبُّ لنفسِك، واكرَهْ له ما تكرهُ لها، ولا تَظلمْ كما لا تُحِبُّ أن تُظلَمْ، وأحْسِنْ كما تُحِبّ أن يُحسَنَ إليكَ..»[1].

وقال الإمام عليه السلام في وصف المتقين: «..فمن علامةِ أحدهمْ أنَّك ترى له قوةً في دينٍ، وحزْماً في لينٍ.. وصبراً في شدّة.. يعملُ الأعمالَ الصّالحة وهو على وَجَلٍ. يُمْسي وهمُّهُ الشكرُ، ويُصبح وهمُّهُ الذكر.. إن اسْتصعبتْ عليه نفسُهُ فيما تكرَهُ لم يُعطها سُؤْلَها فيما تُحبُّ.. الخيرُ منه مأمولٌ، والشرُّ منه مأمونٌ.. في الزَّلازلِ وقورٌ، وفي المكاره صبورٌ، وفي الرخاءِ شكورٌ... وإن بُغيَ عليه صبرَ حتى يكونَ اللهُ هو الذي ينتقمُ له. نفسُهُ منه في عناءٍ، والناسُ منه في راحةٍ. أتعبَ نفسه لآخرتِهِ، وأراح الناسَ من نفسِهِ..»[2]. فهو قد «ألزم نفسه أن يقوم بما عليه من واجب، وأن يتساهل بما له من حقّ خاص، وأن يناصر المحقين، ويجاهد المبطلين.. وأن لا يسيء إلى مخلوق، ولا يتكل إلا على نفسه بعد الله، وأن يتأدب بآداب الشرع والدين بلا تحجّر وتزمّت، ولا رياء ونفاق»[3].

---

(١) باب الرسائل، رقم ٣١. ضمن المقطع الأول.

(٢) باب الخطب، رقم ١٩٣. استصعبت: أي إذا لم تطاوعه نفسه فيما يشقّ عليها من الطاعة عاقبها بعدم إعطائها ما ترغبه من الشهوة. الزلازل: الشدائد المرعدة. الوقور: الذي لا يضطرب،أي لا تحرّكه الطارقة. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٤٩٦-٤٩٧.

(٣) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٣، ص١٧١.

وقال عليه السلام - أيضاً -: «أفضلُ الأعمالِ ما أكرهتَ نفسَك عليه»[١]. ويقدّم تجربته الشخصية الفذّة في هذا المضمار لتكون نبراساً للمسلمين وقدوةً لهم على مرّ العصور، وإن كان من الصعوبة بمكان أن يبلغ أحد درجته في الترويض النفسي. لنقرأ من كتابه الذي بعثه إلى عامله على البصرة، عثمان بن حنيف الأنصاري، قوله عليه السلام: «.. ألا وإنّكم لا تَقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفّةٍ وسَدَادٍ. [حتى يقول]: وايْمُ الله - يميناً أستثني فيها بمشيئةِ اللهِ- لأرُوضَنَّ نفسي رياضةً تَهِشُّ معها إلى القُرْص إذا قَدَرْتُ عليه مطعوماً، وتَقنعُ بالملح مأدوماً، ولأدَعَنَّ مُقلتي كعين ماءٍ، نَضَبَ معينُها، مُستفرغةً دموعَها..»[٢]. ويقول عليه السلام أيضاً في وصيةٍ له: «..واسْتَتِمّوا نِعَمَ الله عليكم بالصَّبرِ على طاعتِهِ، والمُجانبةِ لمعصيتِهِ»[٣]. ويقول في إحدى حكمه موضحاً منزلة المطيع العفيف: «ما المجاهدُ الشهيدُ في سبيلِ اللهِ بأعظمَ أجراً ممّن قَدَرَ فَعَفَّ: لكادَ العفيفُ أن يكونَ مَلَكاً من الملائكة»[٤]. وهنا يبيّن الإمام منزلة الممتنع عن ارتكاب المعاصي والآثام بدافع العفة والالتزام، ويضعه بمنزلة الملائكة في الطهر والنقاوة، وذلك لعظمة شأن المسيطر على هوى نفسه.

---

(١) باب الحكم، رقم ٢٤٩.

(٢) باب الرسائل، رقم ٤٥. تهش إلى القرص: تنبسط إلى الرغيف وتفرح به من شدة ما حرمته. مأدوماً: حال من الملح، أي مأدوماً به الطعام. مقلتي: عيني. نضب: غارَ. مَعينها: ماؤها الجاري. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٦٩٤، رقم ٣٩٢٩-٣٩٣٤.

(٣) باب الخطب، رقم ١٨٨.

(٤) باب الحكم، رقم ٤٧٤.

وهكذا يتعين على المؤمنين أن يبادروا بتربية أنفسهم على الصبر والطاعة والجهاد. قال الإمام عليه السلام: «أيها الناس، تولّوْا من أنفسكم تأديبها، واعْدلوا بها عن ضَراوة عاداتها»(١). فهو عليه السلام يؤكد «على أن وظيفة الإنسان تأديب نفسه بإمساكها عن مشتهياتها، فلا مؤدب لها غيره، ويلزم كبح جماحها وصرفها عن عاداتها بالولوع على الدنيا ومشتهياتها»(٢).

● **تطبيقات للتعاليم القتالية:**

وهي تمثل الجانب العملي للمشروع التربوي للنفس، فبالتطبيقات الميدانية تستكمل العملية الجهادية من جوانبها التربوية، ولم يبق - حينذاك - إلّا إدامة رعايتها على الجانبين - النفسي والجسدي - وذلك لتستمر الإرادة النفسية على قوتها إلى جانب اللياقة الجسدية المطلوبة في ساحة القتال، لذلك كان يركّز الإمام عليه السلام على بيان التعاليم الحربية والفنون القتالية والآداب العسكرية - دفاعاً وهجوماً - لقادة الجيش وعموم مراتبه، وكذلك لكتائب المجاهدين في كافة بقاع الدولة الإسلامية. وذلك ضمن أنواع التدريبات والتوجيهات الميدانية، على المستوى النظري، وكذلك العملي. وهي بمثابة المناورات العسكرية التي تجري في عالمنا اليوم. لغرض إعداد المقاتلين وتجديد خبراتهم الحربية، على أتمّ صورة، من الناحية المادية والمعنوية.

---

(١) باب الحكم، رقم ٣٥٩. تولّى الشيء: تحمّل ولايته، أي ملك أمره وقام به. البستاني، عبد الله: البستان، باب الواو، ص١٢٥٣.

(٢) الخوئي، العلّامة ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة، ج٢١، ص ٤٤٢.

ولقد كانت هذه التعليمات والإرشادات الحربية تصدر عن الإمام عليه السلام كدروس توجيهية، في أيام السّلم، وقد كانت تصدر منه عليه السلام قبيل الخروج للقتال ونشوب المعركة، أو أثناء اندلاع الحرب، ضمن متابعاته الميدانية التفصيلية لشؤون المعركة، وذلك «في كيفية القتال، وطريقة إدارة المعارك، وتفادي النكسات أثناء سير المعركة، واحتواء النكسة حين تحصل والتفوق عليها، والمحافظة على العنفوان وإرادة النصر لدى المقاتلين، وتأثير الجغرافيا على سير المعركة، والأوقات التي ينبغي للجيش أن يتحرك فيها أو يسكن ويستريح، وما إلى ذلك من اعتبارات وقواعد فن الحرب، وقيادة الجيوش في عصر الإمام عليه السلام»[1]. فقد كان اهتمام الإمام منصبّاً على تكوين الجيش، وتجهيزه، وإدارته، ومعالجة مشكلاته، واستيعاب الصدمات أثناء المعركة، وتقوية معنوياته القتالية، وتعزيز إيمانه بالقضايا العادلة، كمسألة أساسية في بناء الجيش، ومن هنا ندرك اهتمامات الإمام في تربية المجاهدين على المستوى العقيدي، والعبادي، والمعنوي، والأخلاقي إلى جانب المستوى التقني المادي. لذلك قال عليه السلام في إحدى رسائله إلى عمّاله: «..ولا تدَّخروا أنفسكم نصيحةً، ولا الجُنْدَ حُسْنَ سيرةٍ.. وأبْلوا في سبيل الله ما استوجب عليكم..»[2]. فرعاية الجند بحُسن السيرة والمعاملة يساهم بشكلٍ فعّال في البناء الإيماني والسلوكي لهم، لأن الإمام من الجيش الإسلامي العقدي أن يتماسك برباط الأخوة الإسلامية،

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ص٩٩.

(٢) باب الرسائل، رقم ٥١.

وأسس الإيمان والتعاون. ومعنى ذلك ذوبان الخصوصية الفردية أو القبلية في إطار وحدة الجيش. ومن المعلوم أن التكوين الاجتماعي القبلي والعشائري كان سائداً - آنذاك - وربما كان يهدّد وحدة الجيش وتلاحمه فيما بين وحداته القتالية، انطلاقاً من تلك الاعتبارات الضيّقة والحسابات الخاصة التي تؤدي إلى تفرقة الجهود وضعف العزيمة في المواجهة. يقول شمس الدين: «ومن هنا فقد كان يحدث أن تجد وحدة قتالية مكونة من مقاتلي قبيلة ما نفسها في مأزق خطر في مواجهة عدوٍّ متفوق عليها بشكلٍ أو بآخر، دون أن تستجيب لنجدتها وحدة قتالية مكونة من مقاتلي قبيلة أخرى. . وقد كان يحدث أن تمتنع الوحدة القتالية التي تواجه المصاعب عن طلب النجدة، لأنها لا تريد أن تجعل للقبيلة الأخرى فضلاً عليها تمتدح به على حساب سمعتها أمام القبائل الأخرى»[١].

لقد تصدّى الإمام عليه السلام لبناء جيش يقوم على أسس الإيمان والمحبة والإيثار فيما بينه، بناءً على مجمل تعاليمه وإرشاداته الدفاعية والهجومية في المعركة.

يقول الإمام عليه السلام: «فخذوا للحرب أهْبتها، وأعدّوا لها عُدّتها، فقد شبّ لَظَاها، وعلا سناها»[٢]. فالإمام عليه السلام يدعو المسلمين إلى إعداد أنفسهم بأسباب القوة ومتطلبات الحرب والقتال، وقد استجمعت شرائط الحرب ضد أهل الشام. فعندها «أمر عليه السلام بتهيئة أسباب الجهاد مع القاسطين بقوله: «فخذوا للحرب أهبتها» أي

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ص ١٠١.

(٢) باب الخطب، رقم ٢٦.

سلاحها»[١]. «وأعدوا لها عدّتها»: «أي لوازمها من سلاح ونحوه، والعدّة هي ما يهيئه الإنسان لملاقاة العدو. «فقد شبّ» أي اشتعل «لظاها»: أي نار الحرب، واللظى هي النار المشتعلة، «وعلا سناها»: أي ضوءها. كناية عن قرب الحرب»[٢]. ومن كلام له عليه السلام وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب الشام بعد إرساله جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية، ولم ينزل معاوية على بيعته: «. . والرأي عندي مع الأناة فأرْوِدوا، ولا اكرهُ لكمُ الإعداد»[٣]. فهنا الإمام يأمر أصحابه بالإعداد من دون ضجيج وإعلان، وإنما بهدوء وسرّية لحفظ التحرك السياسي والدبلوماسي الذي قد يكتب له النجاح، فالاستعدادات العسكرية تستمر مثل المناورات - كما أسلفنا - وإعداد العدة الحربية والقتالية إلى حين فشل المحاولات السياسية مع العدو. يقول ابن أبي الحديد في شرحه: «. . ونهيه لهم عن الاستعداد، وقوله بعد: «ولا اكره لكم الإعداد» غير متناقض، لأنه كره منهم إظهار الاستعداد والجهر به، ولم يكره الإعداد في السرّ، وعلى وجه الخفاء والكتمان»[٤].

سنسلط الأضواء على مجمل هذه التعاليم والفنون القتالية، أثناء حديثنا عن حروب الإمام، في الفصل الرابع.

---

(١) الخوئي، العلامة ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة، ج٣، ص٣٧٥.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج١، ص١٦٠.

(٣) باب الخطب، رقم ٤٣. الأناة: التثبّت والتأني. أرْودوا: أرفقوا، أصله من أرْوَدَ في السير إرواداً، إذا سار برفق. الإعداد: التهيئة. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٥٨٠، رقم ٤٨٩-٤٩١.

(٤) ابن أبي الحديد المعتزلي، عز الدين: شرح نهج البلاغة، مج ١، ج٢، ص٤٧٧.

الفصل الثالث

أهداف التربية الجهادية عند الإمام علي عليه السلام

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول : بناء الإنسان والأمة -إيمانياً وجهادياً-
- المبحث الثاني : بناء الدولة الإسلامية القوية
- المبحث الثالث : حماية وتطوير البناء الإيماني والجهادي

المبحث الأول

بناء الإنسان والأمة - إيمانياً وجهادياً -

وفيه مطلبان:

★ المطلب الأول : بناء الإنسان المؤمن المجاهد ★

★ المطلب الثاني : بناء الأمة المؤمنة المجاهدة ★

المطلب الأول

بناء الإنسان المؤمن المجاهد

ترتكز اهتمامات التربية الجهادية على صياغة الإنسان المؤمن المجاهد، كنقطة بداية في المسيرة التربوية من ناحية، وكعامل محوري وأساسي في تقدم الأمة من ناحية أخرى.

وفي حالة نجاح الانطلاقة البنائية المحددّة بشخص الإنسان، عبر تفاعله الصادق مع مناهج التربية الجهادية، فإنه سيتحول إلى تيار اجتماعي متنام في الأمة، يَقْفو إثر نهجه الكثيرون من أبناء الإسلام، باعتباره قدوة حسنًة لهم، خصوصاً لو أُختتمت حياة المسلم بالشهادة في سبيل الله. ولذلك يُعتبر: الشهيد هو قلب التاريخ النابض، وصوت الحق المدوّي، يضخّ الأمة بالعطاء، ويمنحها الحياة، ويوضح لها سبيل الخلاص، بخطه الفكري، ونهجه التربوي، ووعيه الجهادي ومقاومته حتى الشهادة، من هنا يسعى الأدباء بتمجيد روح الشهيد المقاوم، فمثلاً: [البسيط]

امضِ! رُحمتَ لألفِ عفّةٍ هُتكتْ ... لألفِ ألفِ يتيمٍ باتَ منزلقا
حزناً بقبضةِ سجّانٍ هناك جرى ... دمعٌ حزينٌ أدمى الجفنَ والحَدَقا
أقسمتُ بالروحِ أنت النبضُ في دَمِنا ... وما سواك كنملٍ في الوغى سُحِقا[1]

---

(١) من قصيدة لي نظمتها في ذكرى شهداء الإسلام في العراق.

إن العملية البنائية في جوهرها، تعتبر أسمى الغايات الإنسانية في الحياة، تتناول في خطوتها الأولى الإنسان بكيانه الفردي، لأنه نواة الحركة التغييرية في عموم الأمة. هكذا بدأت مسيرة الأنبياء في تبليغ الرسالات السماوية بشكل عام، ومن ثمّ تواصلت حلقات تلك المهمة الشاقة.

قال الإمام علي عليه السلام: «عبادَ الله، إنّ مِنْ أحَبِّ عبادِ الله إليه عبداً أعانَهُ اللهُ على نفسِه، . . قد ألزم نفسَهُ العدلَ، فكان أوَّلَ عدلِهِ نفيُ الهَوَى عن نفسه. .»[١]. وقال أيضاً في إحدى حكمه: «من نَصَبَ نفسَهُ للنّاس إماماً فليبدأ بتعليمِ نفسِهِ قَبْلَ تعليم غيرِهِ، ولْيكنْ تأديبُه بسيرتِهِ قبلَ تأديبِه بلسانِهِ، ومعلّمُ نفسِهِ ومؤدِّبُها أحقُّ بالإجلالِ من معلّمِ النّاسِ ومؤدِّبِهِمْ»[٢].

● عوامل أساسية في تربية الإنسان المؤمن المجاهد:

إن هذه المهمة الشاقة بحاجة إلى توافر ثلاثة عوامل أساسية، تتكامل فيما بينها، وتتكيّف وفق ظروف بيئية مناسبة، وهي: -

أولاً • إبقاء الفطرة على نقاوتها وصفائها في داخل الإنسان، لضمان استجابته المتواصلة مع خطة التربية الجهادية. وذلك بتجنب ارتكاب الآثام والمعاصي.

ثانياً • إنجاز عمليات الصياغة لشخصية المجاهد الواعي، بأيدٍ أمينةٍ ماهرةٍ، وأنفاسٍ طيّبةٍ طاهرةٍ، ونوايا صادقةٍ

---

(١) باب الخطب، رقم ٨٧. بالمقطع الأول.

(٢) باب الحكم، رقم ٧٣.

مخلصةٍ. لأن الإبقاء على سلامة الفطرة لا يستوفي شروط البناء المتكامل للإنسان - كما هو معلوم-، بل: كيف نضمن استمرار سلامة ونقاوة الفطرة الإنسانية من دون التربية الصالحة؟ إن هذه المسألة بالغة الأهمية، إلّا أننا نعيش حالة الاطمئنان والضمان من هذه الناحية - في بحثنا - لأننا في مدرسة الإمام علي عليه السلام، ربيب رسول الله صلى الله عليه وآله، وباب مدينة علمه، لذلك لا نعاني من هذه المسألة إطلاقاً.

- ثالثاً • إتقان عملية بناء المؤمن المجاهد، في وضع اللّبُنات الأولية كأساس، وتنمية ذلك البناء التربوي وتغذيته المستمرة، وصيانته الدائمة للمحافظة عليه، عبر خطة تربوية محكمة، تحقق له وعياً حركياً، ونهوضاً عملياً، يقوم على أسس التقوى، فيتحمل مسؤوليته الشرعية، ويصبر على أدائها في زمن التحديات، بلا مللٍ ولا كللٍ.

وهنا لا بد أن نشير إلى أن هنالك مساحة مشتركة ومتداخلة ما بين أسس البناء التربوي للإنسان الفرد وللإنسان النوع، لذلك تناولنا ضمناً في بعض محاور هذا المطلب أسس بناء النوع الإنساني، ولكن بالمعنى الخاص، ضمن الجماعة المترابطة والمتعاهدة فيما بينها، لا عموم الأمة. حيث يصدق عليها الحديث النبوي الشريف: «مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى سائر الجسد بالسهر والحمّى»[1].

(١) السنن الكبرى للبيهقي ج٤، ص١٣٥٣ باب استسقاء إمام الناحية المخصبة لأهل =

ففي المجتمع الإسلامي متى ما تماسك في وحدة إيمانية متحابّة في الله، يتحول المجتمع إلى كتلة متراصّة كالإنسان الواحد في حركته وهمومه وطموحاته كما كان الأمر بالنسبة للمسلمين الأوائل، حيث كانوا يحصلون على جُرعات تربوية مكثفة من قبل الرسول الأكرم ﷺ، لترسيخ العقيدة الإسلامية في القلوب، ولتزويد المسلمين دروس الصبر والتحمل في طريق المقاومة والنهوض. فمن دار الأرقم بن أبي الأرقم وأمثاله انطلقت مسيرة التربية والتوجيه نحو عموم الأمة، وعرفت البشرية مدارس الإيمان والإرشاد، وحفل التاريخ برايات الجهاد وأسماء المجاهدين والشهداء.

سنتناول المحاور المهمة التي اعتمدها الإمام عليه السلام في خطته البنائية للإنسان من خلال كلماته، وهي:

١• إبقاء الفطرة السليمة على نقاوتها في الذات، وصيانتها من التلوث.

٢• ترسيخ الإيمان بالله وسائر أسس العقيدة، بالأدلة والبراهين.

٣• لزوم التمسك بروح العبادة.

٤• معالجة المتطلبات الفطرية في الإنسان.

٥• التحلّي بأوصاف المؤمن المقدام من الناحية النفسية والسلوكية.

= الناحية المجدبة ولجماعة المسلمين، رواه النعمان بن بشير. وقال: أخرجاه في الصحيح من حديث زكريا.

● **إبقاء الفطرة السليمة على نقاوتها في الذات، وصيانتها من التلوث:**

يقول الإمام علي عليه السلام في تبيان اختيار الأنبياء عليهم السلام ودورهم: «واصطفى سبحانَه من وَلَدِهِ [آدم عليه السلام] أنبياءَ أخَذَ على الوحي ميثاقَهُمْ، وعلى تبليغ الرِّسالة أمانتَهم، لمّا بَدَّلَ أكْثَرُ خلقِه عَهْدَ اللهِ إليهم فجَهِلوا حقَّهُ، واتَّخذوا الأندادَ معه. واجْتالتْهُمُ الشياطينُ عن معرفته، واقتْطعتْهم عن عبادته، فبعثَ فيهم رُسلَه وواتَرَ إليهمْ أنبياءهُ لِيَسْتَأدوُهُمْ ميثاقَ فطرتِهِ، ويذكِّروهم مَنسْيّ نعمتِهِ. ويحتجُّوا عليهم بالتبليغ، ويُثيروا لهم دفائن العقولِ، ويُرُوهم آياتِ المقْدِرة: من سقفٍ فوقَهم مرفوعٍ، ومَهادٍ تحتَهم موضوعٍ، ومعايشَ تُحْييهمْ، وآجالٍ تُفنيهم، وأوصابٍ تُهْرمُهُم، وأحداثٍ تَتَابَعُ عليهم..»[(١)].

إنّ المراد بعهد الله في هذا المقطع من خطبته عليه السلام ميثاق الفطرة، حيث تعرّض للتبديل والتغيير لدى أكثر الناس نتيجة تطور المؤثرات على حياة الإنسان وتقلب بعض المقاييس والأمور بفعل الشياطين والأهواء وغلبة الميول والشهوات. وإن قوله: «لما بدّل أكثرُ خلقه»، «يومئ إلى أن البعض من عباد الله ثبتوا على ميثاق الفطرة، واستطاعوا بثباتهم هذا أن يعرفوا حق الله ويعملوا به، ويسمى هؤلاء بالحنفاء، وكان منهم قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله أفراد..»[(٢)]. بينما أكثر الخلق

---

(١) باب الخطب، رقم ١. مقطع (اختيار الأنبياء). ميثاقهم: عهدهم. الأنداد: الأمثال، وأراد المعبودين من دونه سبحانه وتعالى. اجتالتهم: صرفتهم عن قصدهم. واتَرَ إليهم أنبياءه: أرسلهم وبين كل نبي ومن بعده فترة. ليستأدوهم: ليطلبوا الأداء. الأوصاب: المتاعب. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٥١٤، رقم ٤٩-٥٣.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج١ ص ٥٧.

بدّلوا أسس تلك الوديعة وثوابت العهد الإلهي أي الفطرة النقية بالجهل والشرك والإثم وسوء الأعمال. ومن ألطافه سبحانه وتعالى انه بعث الرسل والأنبياء للبشر ليثبتوا الناس على العهد. يقول الشيخ محمد عبده: «كأن الله تعالى بما أودع في الإنسان من الغرائز والقوى، وبما أقام له من الشواهد وأدلة الهدى قد أخذ عليه ميثاقاً بأن يصرف ما أوتي من ذلك فيما خلق له. وقد كان يعمل على ذلك الميثاق ولا ينقضه لو لا ما اعترضه من وساوس الشهوات فبعث الله النبيين ليطلبوا من الناس أداء ذلك الميثاق، أي ليطالبوهم بما تقتضيه فطرتهم، وما ينبغي أن تسوقهم إليه غرائزهم. «ويثيروا لهم دفائن العقول»، دفائن العقول أنوار العرفان التي تكشف للإنسان أسرار الكائنات وترتفع به إلى الإيقان بصانع الموجودات، وقد تحجب هذه الأنوار غيوم من الأوهام وحجب من الخيال، فيأتي النبيّون لإثارة تلك المعارف الكامنة وإبراز تلك الأسرار الباطنة..»[١].

وقوله: «فبعث فيهم رسلَهُ وواتَرَ أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكرّوهم منسيَّ نعمته..»، أي ليطالبوا الناس عبر الرسالات الإلهية وتوجهاتهم وسلوكهم بالعودة إلى ميثاق الفطرة الإلهية، ليتم الأداء والعمل والسلوك بموجب ذلك العهد أو الميثاق كأساس صالح لتقبل الرسالات السماوية. يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[٢]. ويقول الرسول الأكرم ﷺ: «كل

(١) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص٢٣-٢٤.

(٢) سورة الروم ٣٠ آية ٣٠.

مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهوِّدانه وينصرانه»[١]. وفي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «قال موسى بن عمران عليه السلام: يا ربّ أيّ الأعمال أفضل عندك؟ فقال: حبّ الأطفال، فإنّ فطرَتَهم على توحيدي، فإن أمِتْهم أدْخلهم برحمتي جنتي»[٢].

ويقول عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[٣] لذلك قالوا: «كل ما ثبت على الإسلام فهو على الفطرة الأولى، ومن كفر وجحد فقد تغيّر على الفطرة الأولى»[٤] فميثاق الفطرة في شأن العقيدة الحقة، يبلغها الأنبياء عليهم السلام للناس، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[٥].

---

(١) القمي، المحدث الشيخ عباس: سفينة البحار، ج٢ باب الفاء بعده الطاء ص ٣٧٣. وفي طبع دار الأسرة مج٧، باب الفاء والطاء، ص١١٥، أورد الحديث السيد المرتضى في كتاب (الغرر والدرر) وشرحه ٢/ ٨٨٨١. راجع منتهى المطلب للعلامة الحلّي ج٢ ص٩٣. فقد ذكر أقوال العلماء في مسألة: إذا سبي من لم يبلغ صار رقيقاً في الحال، وان مَن يسبى مع أبوية أو مع أحدهما أو منفرداً. وذكر اختلاف الفقهاء، منهم الأوزاعي الذي قال: يكون مسلماً لقوله صلى الله عليه وآله: «كل مولود..»، وذكر الحديث.

(٢) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار ج١٠١ كتاب العقود والإيقاعات، ١٠٥- باب فضل الأولاد ص١٠٥ حديث ١٠٣، رواه يحيى بن المساور عن الإمام الصادق.

(٣) سورة الأعراف ٧ آية ١٧٢.

(٤) الخوئي، العلامة ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج٢، ص ١٤٥.

(٥) سورة آل عمران ٣ آية ٨١.

«روي عن أمير المؤمنين عليه السلام وابن عباس وقتادة: إن الله أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبينا صلى الله عليه وآله أن يخبروا أممهم بمبعثه ورفعته، ويبشروهم به ويأمروهم بتصديقه»(١).

- **ترسيخ الإيمان بالله وسائر أسس العقيدة بالأدلة والبراهين:**

وذلك لتستقر في القلوب إلى درجة القناعة التامة في الإنسان بكافة توجهاته الفكرية والسلوكية والعملية، على عكس ما إذا حصل الإنسان على عقيدته عن طريق الوراثة أو التعايش غير الواعي، وفي حينها ستصبح التزاماته الفكرية والسلوكية غير دقيقة بل متذبذبة ومتناقضة، لأنه أساساً غير مقتنع بها أو إنه غير واعٍ لضرورتها والالتزام بها.

وعلى ما تقدم فإن ترسيخ دعائم العقيدة الإسلامية في الإنسان بمثابة الأساس المتين لبناء كيان الإنسان في الحياة، وأي خلل في كيفيّة أو كميّة خلطة البناء الأساسي هذا، سيعرّضه لخطر الهدم والانجراف في المستقبل بمجرد حصول عواصف معينة، من الصعوبة مقاومتها. وحينذاك لا تنفع الترميمات الظاهرية التي ستجري على البناء الإنساني ما لم تعالج الأسس بمهارة ووضوح. ومن هنا نلاحظ تركيز القرآن الكريم والرسول المصطفى صلى الله عليه وآله على غرس جذور العقيدة وترسيخها في الإنسان المتلقي بشكل دقيق، لضمان بنائه المبدئي المتين ولحمايته من التيارات المضادة في

---

(١) الطبرسي، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، المجلد الثاني، ج٣، ص ١٣٠.

المستقبل. وهكذا نلاحظ الإمام علي عليه السلام في نهجه - أيضاً - فإنه يولي مسألة البناء الإيماني في القلب اهتماماً بالغاً في سلّم أولوياته في عملية بناء الإنسان المجاهد.

هذا، وان أساسيات البناء الإيماني تشمل الإيمان بوجود الله سبحانه، خالقاً مبدعاً، ومهيمناً عادلاً، ومحاسباً دقيقاً، وكذلك معرفة صفاته جلّ وعلا، وتشمل أيضاً الإيمان بالنبوة والنبوة الخاتمة بالتحديد، والقرآن الكريم والإمامة والمعاد يوم القيامة، كل ذلك بطرق استدلالية واضحة توفر الاقتناع بها من دون إكراه أو جبر، يقول سبحانه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1].

ونحن إذ نتناول هذه المسألة الجوهرية من زاوية التلميح والإشارة، فلا يسعنا أن نسبر أغوار هذه المسألة بالتفصيل، لأن الدخول في أعماق كلمات الإمام بهذا الخصوص، ومسايرة الشارحين لها والمعلقين عليها، يستوجب أن نفرد رسالة كاملة في هذا الاتجاه لسعة وعمق الأبحاث فيها. وعليه سنتناول استدلالاته في أسس العقيدة من كلامه عليه السلام[2] بما يتناسب مع بحثنا.

- **الله هو الخالق:**

يعتمد الإمام عليه السلام في مسألة إثبات الخالق على الدليل الحسي والعقلي معاً، وذلك للتوصل إلى حقيقة معرفة وجوده - جلّ وعلا -

(١) سورة البقرة ٢، آية ٢٥٦.

(٢) للمزيد من معرفة أصول العقيدة الإسلامية بشكل عام راجع الكتب العقديّة عموماً ومنها كتابنا: العقائد الإسلامية دراسة منهجية في أصول الدين، طبع مؤسسة البلاغ بيروت - لبنان ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(ومنهجه في إثبات وجود الله تعالى عين منهج القرآن، وهو الاعتماد على منطق الحس والعقل، وأعني بمنطق الحس مشاهدة الكون المادي، وما فيه من صنعة وقصد وحكمة وتدبير يشمل ويعمّ جميع الكائنات من الذرة إلى أعظم المجرّات، وما لها من أوضاع محكمة وأبعاد محددّة تؤدي إلى غايات معقولة. أما منطق العقل فأعني به التفكير الهادئ السليم، والتساؤل عن السبب الموجب لهذا النظام والتدبير: هل وجد بلا سبب؟ كيف؟ وهو لا يحمل في ذاته العلة الكافية لوجوده... هذا، إلى أن الطبيعة عمياء صماء، فكيف تُنظِم وتُتقِن؟ وإذن لا محيص من الانتهاء إلى قاصد حكيم، وقادر عليم يمنح الوجود، وهو قائم بذاته لا يستمد من غيره.. وقد أشار سبحانه إلى هذا النهج بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، والمراد بالحق هنا وجود الله سبحانه»[1].

يقول الإمام علي عليه السلام: «أوَّلُ الدِّينِ معرِفَتُهُ، وكمالُ معرفتِه التَّصديقُ به، وكمالُ التَّصديق به توحيدُه، وكمالُ توحيده الإخلاصُ له، وكمالُ الإخلاص له نفيُ الصِّفاتِ عنه، لشهادةِ كلِّ صفةٍ أنَّها غيرُ الموصوف، وشهادةِ كلِّ موصوفٍ أنَّهُ غيرُ الصِّفَةِ: فمنْ وَصَفَ اللهَ سبحانَه فقد قرَنهُ، ومن قرنَهُ فقد ثنّاهُ، ومن ثنّاهُ فقد جزّأهُ، ومن جزّأهُ فقد جهِلَه، ومن جهِلَه فقد أشارَ إليه، ومن أشارَ إليه فقد حَدَّهُ، ومن حدَّهُ فقد عَدَّهُ، ومن قال (فيمَ) فقد ضمَّنهُ، ومن قال (علامَ؟) فقد أخْلى منه. كائنٌ لا عن حدَثٍ، موجودٌ لا عن عَدمٍ. مع كلِّ شيءٍ لا بمقارَنَةٍ، وغيرُ كلِّ شيءٍ لا بمُزايَلَةٍ، فاعلٌ لا بمعنى الحركاتِ والآلةِ،

(١) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة.. ج١ ص٩. والآية الكريمة من سورة فصلت ٤١/٥٣.

بصيرٌ إذْ لا منظورَ إليه من خلقِهِ، متوحّدٌ إذْ لا سَكَنَ يستأنِسُ به ولا يَستوحِشُ لفقدِهِ»[١].

فاللبنة الأساسية الأولى - في المنهج التربوي عند الإمام عليه السلام - للالتزام والانقياد للدين الإسلامي، تنطلق من المعرفة الواعية بالخالق القادر المهيمن وهو الله سبحانه، فالعلم - يقيناً - بوجوده و آثاره ونعمه وألطافه على الإنسان والحياة، يدفع الإنسان إلى الإيمان والعمل بأوامره ونواهيه، وعموم تعاليمه في اتجاه بناء العقيدة الحقة في الذات، والسلوك والعبادة، وكذلك بناء نظم الحياة بتمام تفاصليها على أسس الإسلام.

كما وان قمة التصديق بالله سبحانه، الإيمان بوحدانيته في الخلق والإبداع والهيمنة والقدرة، من دون شريك أو معاون، فالله عز وجل منزّه عن كل نقص أو عيب أو زيادة. هذا وان ذروة الإيمان بوحدانيته سبحانه التصديق بانفراده بالكمال المطلق، وانه منزّه عن النقائص بشكل مطلق أيضاً. يقول محمد جواد مغنية: «والذي نفهمه أن الإخلاص المقصود في قول الإمام عليه السلام هو الإيمان والتصديق بأن الله سبحانه منفرد بالكمال المطلق ومنزّه عن المادة ولوازمها، وعن الجور وغيره من القبائح، وغني عن كل شيء، وإليه يفتقر كل شيء، وليس كمثله شيء»[٢].

وأما موضوع صفات الله عز وجل فهو من الموضوعات الكلامية التي اشتد فيها الجدل، بينما يحسمها الإمام عليه السلام بقوله: «وكمال الإخلاص

---

(١) باب الخطب، رقم١، ضمن المقطع الأول (الحمد لله).

(٢) مغنية، محمد جواد: المرجع ذاته، ص ٢٣.

له نفي الصفات عنه»، حيث يتجلى الإخلاص في قمة صفائه وكمال نقاوته، بنفي الصفات المحدودة عنه، وإنما يوصف - جلّ وعلا - كما وصف نفسه في كتابه الكريم، لا كما تعكسه تصورات بشرية محدودة أو مركبة، أو انفعالية. . هذا وإن اتّحدت الألفاظ، إلّا أنها حينما تطلق على صفات الله تعالى تتميز بعمق الأبد والأزل والدوام وعدم الحاجة للغير. فالصفات التي لا بد أن تنفى من الله سبحانه هي الخارجة عن ذاته والتي تستدعي التركيب في ماهيته، لا نفي الصفات التي هي عين ذاته، وتدل على حقيقته، فقد بيّن عليه السلام في بداية خطبته هذه امتناع إدراك ذات الله على عقول البشر، وإنما يستدل عليه عن طريق صفاته وآثاره في الخلق، فيقول: «الحمدُ لله الذي لا يبلُغُ مدحتَهُ القائلونَ، ولا يُحْصِي نعماءهُ العادّون، ولا يؤدّي حقَّه المجتهدون، الذي لا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الهِمَم، ولا ينالُهُ غوصُ الفِطَنِ، الذي ليس لصفته حدٌّ محدودٌ، ولا نعتٌ موجودٌ، ولا وقتٌ معدودٌ، ولا أجلٌ ممدودٌ. .»[1]. فالمقصود - إذن - من نفي الصفات، هي التي توقعنا في مطب تعدّد القدماء، والتركيب، والحاجة إلى الغير، والتشخيص الجسماني، والتصورات الوهمية الأخرى - العياذ بالله - يقول الشيخ محمد عبده: «فالصفات المنفية بالإخلاص صفات المصنوعين، وإلّا فللإمام كلامه قد ملئ بصفاته سبحانه، بل هو في هذا الكلام يصفه أكمل الوصف»[2].

---

(١) باب الخطب، رقم١، بداية المقطع الأول.

(٢) عبده، محمد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص١٥. وشرْح هذه المقاطع من خطبة الإمام عليه السلام يستلزم حديثاً طويلاً، اكتفي بهذا القدر، لكي لا يطول بنا المقام. راجع كتابنا المشار إليه سابقاً - العقائد الإسلامية دراسة منهجية - (صفات الله تعالى)، ص ١٢١- ١٥٣. وفي الفصل الثاني (العدل)، ص ١٥٥- ٢٢٨.

يقول الإمام عليه السلام: «الحمدُ لله الدَّالِّ على وجودِهِ بِخلْقِه، وبمُحْدَثِ خلْقِهِ على أزليَّتِهِ، وباشْتباههم على أنْ لا شَبَهَ له»(١).

ويستدل على وجود الخالق المدبر من خلال نظم الحياة وآثاره في الكون وعموم خلق الله فيقول عليه السلام: «و عجبت لمنْ شكَّ في الله وهو يَرى خَلْقَ الله»(٢). وفي خطبة أخرى في الشأن ذاته يقول: «وأرانا مِنْ ملكوتِ قُدرتِهِ، وعجائِبِ ما نطقتْ به آثارُ حكمتِهِ.. فظهرتِ البدائعُ التي أحدثَتْها آثارُ صَنْعتِهِ، وأعْلامُ حكمتِه، فصار كلُّ ما خَلَقَ حجّةً له ودليلاً عليه. وانْ كان خَلْقاً صامتاً، فحُجَّتُهُ بالتدبير ناطقةٌ، ودلالتُهُ على المُبْدِعِ قائمةٌ»(٣). وبالفعل «ان كل ما ظهرت فيه آثار حكمة الله فهو ناطق بربوبيّتهِ وكمال أُلوهيّته، فبعضٌ ناطق بلسان حاله ومقاله كالإنسان، وبعضٌ بلسان حاله فقط إذْ لا عقل له ولا لسان كالجماد والنبات»(٤). فكل ما خلق يظهر إبداعه وتدبيره، الذي يدرك بالعقل والقلب لا بالحواس القاصرة، لذلك يقول: «لا تُدركُهُ العيونُ بمشاهدةِ العَيانِ، ولكنْ تُدركُهُ القلوبُ بحقائق الإيمان»(٥). وحقّا كما يقول: «وامْتنعَ على عينِ البصيرِ، فلا عينُ من لم يَرَهُ تُنكرُهُ، ولا قلبُ من أثْبته يُبصره.. لم يُطْلع العقولَ على تحديدِ صفتِهِ، ولم يحجُبْها عن واجبِ معرفتِهِ، فهو الذي تشهدُ له أعلامُ الوجودِ، على إقرارِ قلبِ ذي الجحُود»(٦). فيستحيل على الإنسان أن

(١) باب الخطب، رقم ١٥٢.

(٢) باب الحكم، رقم ١٢٦.

(٣) باب الخطب، رقم ٩١. خطبة الأشباح، المقطع الثاني - صفاته تعالى في القرآن -.

(٤) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٣٥٢، طبع دار الثقلين.

(٥) باب الخطب، رقم ١٧٩. / (٦) باب الخطب، رقم ٤٩.

يرى الله سبحانه بعينه أو يحدّه بحواسه، كما يفعل مع بقية الأشياء، لأنه -جلّ وعلا- ليس كمثل الأشياء، كما ويستحيل أن ينفي وجوده - أيضاً - لأن عقل الإنسان يدلُّ على وجود الله عن طريق آثاره، فهو «سبحانه ليس بمرئيٍّ بالعين، ومع ذلك فلا يمكن منْ لم يرَهُ بعينه أن ينكره، لدلالة كلِّ شيءٍ عليه..»[١]. هذا، وان المتتبع لكلام الإمام عليه السلام في هذا الصدد يتطلع إلى عظمة الخالق الكريم، في خلق الكون والإنسان، مما يوفر مناخاً واقعياً يستلزم المزيد من الخضوع لله والانقياد التام لتعاليمه وأوامره، وهذه الحالة هي الأساس للانطلاقة نحو الطاعة لله ولرسوله والجهاد في سبيل الإسلام.

● النبوة وخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله:

إن الأنبياء والرسل هم حجج الله على خلقه يبلّغونهم رسالاته، ويرشدونهم سبل الرشاد، وهم نماذج عملية وقدوات شاخصة للعباد في تطبيق تعاليم الله سبحانه. وقد توّج الله - عز وجل - أنبياءه ورسله بالرسول المصطفى محمد صلى الله عليه وآله، الخاتم لما سبق.

نقتطف بعض كلمات الإمام في شأن الرسل والرسالات بشكل عام، ثم نعرّج إلى شيء من أقواله حول سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وآله. يقول الإمام علي عليه السلام: «بعثَ اللهُ رسلَهُ بما خصَّهم به من وحْيه، وجعلَهُم حجَّةً له على خلقِهِ، لئلّا تَجِبَ الحجّةُ لهمْ بتركِ الأعذار إليهم، فدعاهم بلسانِ الصِّدْقِ إلى سبيلِ الحقِّ..»[٢]. وفي موقع آخر

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٢، ج٣، ص١٤٩.

(٢) باب الخطب، رقم ١٤٤.

يقول عليه السلام: «.. فبعثَ فيهم رُسُلَه، وواترَ إليهم أنبياءه.. ولم يُخْلِ اللهُ سبحانه خلقَه من نبيٍّ مرسَلٍ، أو كتابٍ منزلٍ، أو حجَّةٍ لازمةٍ، أو محجّةٍ قائمةٍ: رسلٌ لا تقصّرُ بهم قلّةُ عددهم، ولا كثرةُ المكذبين لهم.. إلى أن بعثَ اللهُ سبحانَه محمداً رسولَ الله ﷺ لإنجازِ عِدَتِهِ، وإتمام نبوّتِهِ، مأخوذاً على النبيِّين ميثاقُهُ، مشهورةً سماتُهُ، كريماً ميلادُهُ. وأهلُ الأرض يومئذٍ مِللٌ متفرقةٌ، وأهواءٌ منتشرةٌ، وطرائقٌ متشتّتةٌ، بين مشبِّهٍ لله بخلقه، أو ملحدٍ في اسْمه، أو مشيرٍ إلى غيره، فهداهم به من الضَّلالة، وأنقذَهم بمكانهِ من الجهالة..»[١].

فالميثاق هو ميثاق الله سبحانه وهو عهده لأنبيائه أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ، ويبشّروا الناس بظهوره ليؤمنوا به. وقد ذكرت علاماته وسماته «في كتب الأنبياء السابقين الذين بشروا به»[٢]. ولقد أنجز الله وعده ببعثته ﷺ.

وفي خطبة أخرى يقول: «.. بل تعاهَدَهم بالحُجَجِ على ألسُنِ الخِيَرَةِ من أنبيائه، ومتحمّلي ودائعِ رسالاتِهِ، قَرْناً فَقَرْناً، حتى تمّتْ بنبيِّنا محمّدٍ ﷺ حجَّتُهُ..»[٣]. «أرسلَه بحجَّةٍ كافيةٍ، وموعظةٍ شافيةٍ، ودعوةٍ مُتلافيةٍ، ظَهَر به الشرائعَ المجهولةَ، وقمعَ به البِدَعَ المدخولةَ، وبيَّنَ به الأحكامَ المفصولةَ..»[٤]. فحجة الرسول ﷺ كافية ووافية

---

(١) باب الخطب، رقم ١، مقطع (اختيار الأنبياء) ومقطع (مبعث النبي).

(٢) عبده، محمد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص٢٤-٢٥.

(٣) باب الخطب، رقم ٩١، خطبة الأشياح، مقطع (ومنها في صفة الأرض ودحوها على الماء).

(٤) باب الخطب، رقم ١٦١.

بالدلائل والبراهين، وموعظته شافية من أمراض الجهل والتخلف والرذيلة، ودعوته المباركة تداركت إصلاح الناس قبل هلاكهم بالفساد والانحراف، «فلولا الرسول ﷺ لكان مصير الناس الشّقاء الأبدي»[١]. ويبين الإمام ثلاثة أهداف رئيسية - في هذا المقطع من خطبته- من بركات البعثة النبوية، فقد أظهر الله سبحانه بالحبيب المصطفى الشرائع الإلهية المجهولة عند الناس، وربما يريد بها تحريفات الكهنة والملوك لأحكام التوراة والإنجيل[٢]. وكذلك قمع الله سبحانه بالنبي الأكرم ﷺ البدع التي أدخلت في الأديان السماوية السابقة، مثل عبادة المسيح والرهبانية والوثنية، وقد بلّغ ﷺ الأحكام الإسلامية بوضوح، في شريعةٍ كاملةٍ فصلت بين الحق والباطل، ونسخت الأحكام الباطلة آنذاك. واليوم - في القرن الحالي- يُعاني الكثير من المسلمين انحرافات حادة -أرى ضرورة الإشارة إليه هنا - نشأت من عبادة الأموال وحب التسلط والاحتكار، أو من الرؤى الضبابيّة العنيفة، التي بالنتيجة تُسوّغ لهم ظلم العباد واستحلال أموالهم ودمائهم، ممّا تسببت في إشعال نيران الفتنة والحروب والدمار، فما أحرى بنا أن نعود إلى بيان الإمام حول أهداف الرسالة المحمدية، والتي هي شافية من جميع الأمراض، وقامعة لكل البدع، ومستوعبة لتطورات الحياة بأحكامها التفصيلية.

هذا، وقد ذكر عليهم السلام الأنبياء والرسل في كثير من كلامه[٣] مشيراً إلى شذرات من سلوكهم وزهدهم وشجاعتهم وأخلاقهم وعملهم،

---

(١) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة: ج٢، ص٤٥٩.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٢، ص٤٤١.

(٣) راجع الخطبة رقم ١٦٠، ورقم ١٩٢.

وكذلك تحملهم للأذى في سبيل تبليغ الرسالة - أمانة الله - إلى الناس، وبالفعل يحصل المتلقي لكلمات الإمام حول الأنبياء على صور جهادية وتربوية رائعة في حياتهم، وبذلك يكونون مناهج سلوكية تقتدى في الحياة.

وكذلك تحدث طويلاً عن سيدنا النبي محمد ﷺ مبيّناً معاناته مع قومه، وصور نادرة من جهاده وسلوكياته ويطالب المسلمين بالاقتداء بسنته والسير على خطاه[1].

● **المعاد يوم الحساب:**

إن الإيمان بالمعاد يوم القيامة، والحساب الذرّي الدقيق من قبل المحاكم الإلهية على كل ما فعله الإنسان في حياته الدنيوية، يخلق رقابة داخلية في ذات الإنسان بين الخوف من عقاب الله، والرجاء لعفوه وثوابه، وبالفعل إن هذا الإيمان يدفع نحو كسب المزيد من التقرب إلى الله - جلّ وعلا - ونيل رضاه، عبر الأعمال الصالحة والمواقف الحسنة فضلاً عن العبادة والالتزامات الشرعية والأخلاقية. والإمام عليه السلام في نهج البلاغة، وفي مواقع كثيرة يتناول هذه المسألة الاعتقادية، في سبيل إثباتها، وتصوير بعض وقائعها، وتذكير الإنسان بهذه العاقبة الحتمية، التي تحددّ مصيره في الآخرة. ابتداءاً بالموت وانتهاءاً بيوم الحساب، ومروراً بعالم البرزخ. كل ذلك يكسب المتلقي حشداً من عوامل التفكير التي تترجم إلى إصرار إرادي للتغيير نحو الأفضل، وبذلك تتشكل لديه انعطافة واعية لنبذ الانحراف

(١) للمثال راجع باب الخطب، رقم ١٦٠. مقطع «الرسول الأعظم ﷺ».

والتكبر والسلوك الملتوي، وانتهاج السلوك السوي والاستقامة والعمل النبيل الذي يرضي الله سبحانه.

سنذكر شيئاً من كلماته عليه السلام في هذا الصدد لتكتمل صورة البناء العقدي، يقول الإمام علي عليه السلام: «وذلك يومٌ يَجمعُ اللهُ فيه الأولينَ والآخرينَ لنقاشِ الحسابِ وجزاءِ الأعمالِ، خضوعاً، قياماً، قد ألْجَمَهُمُ العرَقُ، ورجفَتْ بهم الأرضُ، فأحسنَهم حالاً من وَجدَ لقدميهِ موضعاً، ولنَفْسِه مُتَّسعَاً»[1]. فهو يوم المناقشة والتدقيق لجميع أعمال الناس حيث يقومون خضوعاً لله سبحانه، «وقد ألجمهم العرق»، أي: «بلغ منهم مكان اللجام، وهو كناية عن بلوغهم الغاية من الجهد»[2]. فيكثر عرقهم إلى هذه الدرجة من شدة تعبهم وقلقهم، فلا استقرار لهم، وحتى الأرض ترجف تحت أقدامهم، قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾[3]. لشدة أهوال يوم الحساب. وأفضل الناس من يحصل على موضع لقدميْه بين الخلائق. ويقول في عهده إلى محمد بن أبي بكر رضي الله عنه -حين قلده مصر -: «..فإنَّ الله تَعالى يُسائِلُكم معشرَ عبادِهِ عن الصَّغيرةِ من أعمالِكم والكبيرةِ، والظاهرةِ والمستورةِ، فإنْ يعذِّبْ فأنتم أظلَمُ، وإن يَعْفُ فهو أكرمُ.. فاحذَروا عبادَ الله الموتَ وقربَهُ، وأعِدُّوا له عُدَّتَهُ، فإنه يأتي بأمرٍ عظيم، وخَطْبٍ جليلٍ، بخيرٍ لا يكونُ معه شرٌّ أبداً، أو شرٍّ لا يكون معه خيرٌ أبداً. فمن أقربُ إلى الجّنةِ من عامِلها! ومن أقربُ إلى النار من عاملها! وأنتم طرداءُ الموتِ، إن أقمتُم له أخذَكم، وإن فَررتُم منه أدرَكَكُم، وهو ألزمُ

(١) باب الخطب، رقم ١٠٢.

(٢) البحراني، كما الدين: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١٣.

(٣) سورة المزمل، ٧٣/ ١٤.

لكم من ظلّكم. الموتُ معقودٌ بنواصيكم، والدنيا تُطوى من خلفِكم. فاحْذَروا ناراً قعرُها بعيدٌ، وحرُّها شديدٌ، وعذابُها جديدٌ. دارٌ ليس فيها رحمةٌ، ولا تسمعُ فيها دعوةٌ، ولا تُفرَّجُ فيها كربةٌ. وإنِ اسْتطعتُمْ أنْ يشتدَّ خوفُكم من الله، وأن يَحسُنَ ظنّكُم به، فاجْمعوا بينهما، فإنَّ العبدَ إنما يكون حُسْنُ ظنّهِ برّبهِ على قَدْرِ خوفِهِ من ربِّه. وإنَّ أحسنَ النّاس ظناً بالله أشدُّهُمْ خوفاً لله..»[١]. فالجمع بين شدة الخوف منه سبحانه، وبين حُسن الظنّ به، هو المطلوب في حياة المؤمنين، لضمان الاستقامة والعدل. ويصور لنا الإمام زين العابدين دقة هذه الحالة بقوله: «لو أنزل الله ﷻ كتاباً أنه معذّب رجلاً واحداً لخفت أن أكونه، وأنه راحم رجلاً واحداً لرجوتُ أن أكونه»[٢].

وللإمام علي عليه السلام أقوال كثيرة في ذكر الموت وحساب الآخرة، منها «فبادروا العمَلَ وخافوا بَغْتَةَ الأجلِ»[٣]. «ومن ارْتَقَبَ الموتَ سارَعَ إلى الخيرات»[٤]. «اعْلموا عبادَ الله، أنَّ عليكُمْ رَصَداً من أنفسكم، وعُيوناً من جوارِحِكمْ، وحُفّاظَ صدقٍ يحفظون أعمالَكم، وعَدَدَ أنفاسِكم، لا تَسْتُرُكم منهم ظُلمةُ ليلٍ داجٍ، ولا يُكِنّكُم منهمْ

---

(١) باب الرسائل، رقم ٢٧. «فأنتم أظلم» أفعل هنا بمعنى الصفة، لا بمعنى التفضيل، وإنما يراد فأنتم الظالمون. «فمن أقرب إلى الجنة من عاملها»، استفهام بمعنى النفي، أي لا أقرب إلى الجنة من العامل لها. طُرداء الموت: جمع طريد، أي يطردكم عن أوطانكم ويخرجكم منها. معقود بنواصيكم: أي ملازم لكم، والنواصي: جمع ناصية، مقدم شعر الرأس. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٦٢٢.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٨، ج١٥، ص١١٤.

(٣) باب الخطب، رقم ١١٤.

(٤) باب الحكم، رقم ٣١.

بابٌ ذو رِتاجٍ، وإنّ غداً من اليوم قريبٌ. . . وكأنَّ الصيحةَ قد أتتكم، والساعةَ قدْ غشيتكم، وبرزتُم لفصل القضاءِ. .»[١]. بهذه النهاية الحتمية التي لا مفرَّ منها، وحالة الرصد الدقيق لأعمال وسلوكيات الإنسان بشهادة الجوارح، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[٢] وكذلك بوجود الحَفَظة الصادقين من الكرام الكاتبين، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[٣]. يفكر الإنسان طويلاً في طريق النجاة من يوم الحساب الأكبر. فقد قال عليه السلام: «إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يَخفى عليه ما العبادُ مقترِفونَ في ليلِهم ونهارِهم، لَطُفَ به خُبْراً، وأحاط به عِلماً. أعضاؤُكم شهودُهُ، وجوارِحُكم جنودُهُ، وضمائرِكم عيونُهُ، وخلواتُكم عِيانُهُ»[٤]. «وعجبتُ لمن نسيَ الموتَ وهو يرى الموتى، وعجبتُ لمن أنكرَ النَّشأةَ الأخرى، وهو يرى النشأةَ الأولى، وعجبْتُ لعامرٍ دار الفناء وتاركٍ دار البقاء»[٥].

• لزوم التمسك بروح العبادة:

إن العبادات المفروضة هي الوسيلة الشرعية للارتباط بالله سبحانه وتعالى، فالالتزام بها يعني التعبير العملي عن الطاعة وإقرار العبودية لله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٦].

---

(١) باب الخطب، رقم ١٥٧.
(٢) سورة النور، ٢٤/ ٢٤.
(٣) سورة ق، ٥٠/ ١٨.
(٤) باب الخطب، رقم ١٩٩، آخر مقطع (علم الله تعالى).
(٥) باب الحكم، رقم ١٢٦.
(٦) سورة الذاريات ٥١، الآية ٥٦.

وحقاً إنه مهما سعى المؤمنون في أداء العبادات والدعوات شكراً وحمداً لأنعم الله فلا يبلغوا حقها لعظم تلك النعم والألطاف الإلهية على الإنسان والمجتمع والحياة ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[١].

يقول الإمام علي عليه السلام: «.. سُبْحانَكَ ما أعْظَمَ شأنَكَ! سبحانك ما أعظمَ ما نرى من خلقك! وما أصغرَ كلَّ عظيمةٍ في جنبِ قدرتك! وما أهولَ ما نرى من ملكوتك! وما أحقرَ ذلك فيما غابَ عنّا من سلطانِك! وما أسبغَ نِعمَك في الدنيا، وما أصغرَها في نِعَمِ الآخرة!.

ومنها: من ملائكةٍ أسْكَنْتَهم سماواتِك، ورفعتَهم عن أرضِك.. وإنَّهم على مكانِهم منكَ ومنزلتِهم عندَك، واسْتجماعِ أهوائِهم فيك، وكَثرةِ طاعتِهم لكَ، وقلَّةِ غفلتِهم عن أمرِك، لو عاينوا كُنْهَ ما خَفِيَ عليهم منكَ لحقَّروا أعمالَهم، ولَزَروْا على أنفسهم، ولعرفوا أنَّهم لم يعبدوك حقَّ عبادتِك، ولم يطيعوك حقَّ طاعتِك..»[٢]. إنها المقارنة المحفزّة للمؤمنين للانطلاق نحو عبادة الله، والشحنة الاستنهاضية للتفكير الجدّي لأداء الواجبات بالعبادة الواعية، والإطاعة المخلصة، بل يتزّود المتلقي بوعيٍ معرفيٍّ يفتح له آفاقاً أوسع مما في علم الملائكة، لذلك قال: «لحقّروا أعمالهم، ولزَروْا على أنفسهم». أي ان الملائكة عابوا أنفسهم واستصغروا عبادتهم، لأنها ليست حقّ العبادة، قياساً بعظمة الله ونعمه[٣]. والطاعة حقّ الله على العباد، فقد قال في خطبة أخرى: «.. ولكنَّه سبحانَه جعَلَ حقَّه على

(١) سورة النحل ١٦، الآية ١٨.
(٢) باب الخطب، رقم ١٠٩. في المقطع الأول والثاني.
(٣) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص١٨٦.

العبادِ أنْ يُطيعوهُ..»[١]. وطالبهم أن يستعينوا بالله ﷻ لأداء حقّه، فقال: «.. واسْتَعِينوا اللهَ على أداءِ واجبِ حقّهِ، وما لا يُحصَى مِنْ أعْدادِ نِعَمِهِ وإحسانِه»[٢].

والحقيقة أنّ الله - جلّ وعلا - غني عن عبادة عباده، ولا تضّره معاصيهم وإنما يعود الأمر في الحالتين إلى العباد أنفسهم.

يقول الإمام في هذا الصدد: «أما بعد، فإنّ الله - سبحانه وتعالى - خلقَ الخلْقَ حينَ خَلَقَهُمْ غنيّاً عن طاعتهم، آمِناً من معصيتِهم، لأنه لا تَضُرُّه مَعصيةُ منْ عصاهُ، ولا تنفعُهُ طاعةُ من أطاعَه»[٣]. وبذلك يدفع أوهاماً قد تخطر في نفوس الجاهلين، مفادها: إن الله تعالى في تقواه وطاعته منفعة، وله بمعصيته مضرّة، فصدّر الخطبة بتنزيهه عن الانتفاع والتضرّر. والحقيقة إن هدف الرسالة الإسلامية إنقاذ الناس من حالة الضياع والجهل والانحراف حيث عبادة الأصنام والأوثان، وتحويلهم إلى حالة الاستقرار والعلم والاستقامة حيث عبادة الله الخالق الكريم، يقول عليه السلام: «فبعثَ اللهُ محمداً، ﷺ، بالحقِّ ليُخرجَ عبادَه من عبادةِ الأوثانِ إلى عبادتِهِ، ومن طاعةِ الشيطانِ إلى طاعتِهِ، بقرآنٍ قد بيّنه وأحكمه..»[٤].

وهل من المعقول أن يستغل الإنسان نعم الله سبحانه في معصيته ومخالفة أوامره؟ وهو يعيش على أرض الله وينعم بخيراته، وقد بعث

---

(١) باب الخطب، رقم ٢١٦، خطبها بصفين، في المقطع الأول.

(٢) باب الخطب، رقم ٩٩، في نهاية الخطبة.

(٣) باب الخطب، رقم ١٩٣، من بدايتها.

(٤) باب الخطب، رقم ١٤٧، من بدايتها.

إليه الرسالة المحمدية إتماماً لنعمه. يقول الإمام في بعض حكمه «أقلُّ ما يَلْزَمُكم لله ألّا تَسْتَعينوا بِنِعَمِهِ على معاصِيهِ»[١].

● **العبادة طقوس جامدة أم معانٍ روحية متنامية:**

ان المهم في أداء الفرائض العبادية تحقيق روح العبادة بدلالاتها المعنوية، فلا يكتفي المؤمن بأداء مراسيمها الشكلية، أي طقوسها الظاهرية فقط. بل يؤدي العبادة الحقة بروحها فتنجلي انعكاساتها في صفاء الإنسان وسلوكياته، وحينها تتهذب أخلاقه وتنقّى معاملاته من الغش والخداع، خوفاً من عقاب الله، ورغبةً في نيل رضاه وثوابه، فالعبادة ليست وسيلة لإرضاء السلطان أو كسب المؤيدين وجلب السمعة الحسنة بين الناس. يقول الإمام عليه السلام: «فاحْذروا مِنَ الله ما حذَّركم من نفسه، واخْشَوْهُ خشيةً ليست بتعذير، واعْملوا في غير رياء ولا سمعة، فإنّه من يعمل لغيرِ اللهِ يكِلْهُ اللهُ لمن عَمِلَ له»[٢]. فلقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالحذر والخشية منه بقوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾[٣].

وقال أيضاً: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[٤] وغيرهما من الآيات المباركة. على ان تكون هذه الخشية «ليست بذات تعذير، أي تقصير.. [بمعنى] ولتكن التقوى منكم أقصى نهايات جهدكم، لا

---

(١) باب الحكم والكلمات القصار، رقم ٣٣٠.

(٢) باب الخطب، رقم ٢٣. بالمقطع الأول. التعذير: أي لم يثبت له عذر، إذ لم يأتِ بعذر صدق. البستاني، عبد الله: البستان، باب العين، ص٦٩٩.

(٣) سورة البقرة، ٢من الآية ٤١.

(٤) سورة المائدة، ٥ من الآية ٤٤.

ذات تقصيركم، فإن العمل القاصر قاصر الثواب، قاصر المنزلة»[١]. بينما يكون نتاج الخشية الخالصة لله عملاً خالصاً لوجهه الكريم، نقياً عن الرياء وطلب السمعة. وعليه كان عليه السلام يرى أن تمام العبادة بظهور آثارها الإيجابية في السلوك الخلقي والتعامل الحياتي، وإلّا ستؤدّى بالفعل كطقوس شكلية فارغة من مضامينها التربوية والمعنوية العالية. يقول عليه السلام: «كَمْ مِنْ صائمٍ ليس له من صيامِهِ إلّا الجوعُ والظَّمأ، وكم من قائمٍ ليس له من قيامه إلّا السَّهَرُ والعَناءُ، حبَّذا نومُ الأكياسِ وإفطارِهم»[٢]. لذلك يشدّد الإمام على إقامة الفرائض بتمام الوعي والمعرفة، يقول في وصيته عليه السلام بعد ما ضرب في محراب صلاته بمسجد الكوفة، وكانت بها شهادته: «.. واللهَ اللهَ في القرآنِ، لا يَسبِقُكم بالعمل به غيرُكم، اللهَ اللهَ في الصلاةِ فإنَّها عمودُ دينِكم.. واللهَ اللهَ في الجهادِ بأموالِكم وأنفسِكم وألسنتِكم في سبيل الله..»[٣]. وفي خطبة القاصعة، يبيّن حكمة بعض الفرائض الإسلامية فيقول: «.. حرس اللهُ عبادهَ المؤمنين بالصَّلواتِ والزَّكواتِ، ومجاهدةِ الصِّيامِ في الأيام المفروضاتِ، تسكيناً لأطرافِهِم، وتخشيعاً لأبصارِهِم، وتذليلاً لنفوسِهِم، وتحفيظاً لقلوبِهِم، وإذهاباً للخُيلاءِ عنهم، ولما في ذلك من تعفير عتاقِ الوجوهِ بالتّرابِ تواضعاً، والتْصاقِ كرائم الجوارح بالأرض تَصاغُراً،

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج١، ج١، ص٢٢٩-٢٣٠.

(٢) باب الحكم، رقم ١٤٥. الأكياس جمع كَيّس - بتشديد الياء - أي الفطن ضد الحمق، وهو العاقل العارف. البستاني، عبد الله: البستان، باب الكاف، ص٩٦٨.

(٣) باب الرسائل، رقم ٤٧.

ولحوقِ البطونِ بالمتونِ من الصِّيام تذلُّلاً، مع ما في الزكاة من صرْفِ ثمراتِ الأرضِ وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر»[١]. يوضّح الإمام أهمية وحكمة أداء هذه الفرائض في حراسة أي حماية المؤمنين من رذيلة التكبر والاستعلاء، وبالنتيجة الانحراف عن جادة الحق، والانزلاق إلى أودية الضياع والضّلال. بينما يعكس أداؤها بإخلاص آثار الإيمان والإصلاح على حواسّ الإنسان وقلبه وحركته، فحينما تعفّر بالتراب عتاق الوجوه أي كرامها وحسانها ساجدةً لربها، وتلتصق الجوارح الكريمة بالأرض طاعةً لله، ويصام شهر رمضان استجابةً لأمر الله، وتؤدّى الفريضة المالية إلى مستحقيها، حينذاك ينمو الإنسان طهراً ونقاوةً وإيماناً، «باعتبار ما في هذه الأفعال، التي تقع في الصلاة والزكاة والصيام.. من الأفعال المستلزمة للتواضع والتذلل تأكيداً لما قرّره أولاً من كون هذه العبادات حارسة لعباد الله من رذيلة الكبر»[٢].

● معالجة المتطلبات الفطرية في الإنسان:

للإنسان متطلبات فطرية بحاجة إلى تلبية ندائها وإشباعها، وذلك لضمان استمرارية وجوده وبقائه في الحياة، أو لدفع القلق عنه، وإنها تنقسم إلى مجموعتين هما: حاجات عضوية جسدية، وحاجات غريزية نفسية، وهما يشكلان طاقات الإنسان العضوية المتحركة،

---

(١) باب الخطب، رقم ١٩٢، تسمى القاصعة، مقطع (عود إلى التحذير). عتاق الوجوه: كرامها، من العِتْق بمعنى الكرم والشرف والأصالة. البستاني، عبد الله: باب العين، ص٦٨٨.

(٢) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٢٦٣.

والنفسية الكامنة. يقول الأستاذ الدكتور نايف معروف: «إنّ كلّ فرد من أفراد بني آدم بحاجة حتمية إلى إشباع حاجاته الجسدية لكي تستمر حياته إلى الأجل المحدّد له، كما أنه بحاجة إلى إشباع غرائزه النفسية»[١]. فالفارق بينهما يظهر في نتيجة عدم إشباعهما، بينما تتفقان في كونهما حاجات فطرية إنسانية، فإذاً «الغريزة لا تختلف عن الحاجة العضوية من حيث إنها طاقة حيوية في تكوين الإنسان وكيانه، وإنها فطرية فيه، تولد بمولده وتنعدم بموته، إلّا أنها تختلف عنها في كونها ليست حتمية الإشباع، وبالتالي لا يسبب حرمانها من الإشباع هلاكاً للإنسان، على عكس الحاجات العضوية»[٢]. مثل الحاجة إلى التنفس والطعام والنوم وما شابه، مع أن بعض هذه الحاجات العضوية يتم إشباعها تلقائياً ومباشرة كالتنفس من الهواء، وإفراز الفضلات الضارة من الجسم، ولكن منها ما هو بحاجة إلى تعاطي الإنسان مع الحياة والبيئة لكسب مستلزمات إشباعها كالحاجة إلى الطعام - مثلاً- بينما الطاقات النفسية الكامنة (الغرائز)، تستلزم تعاطياً مادياً محسوساً لغرض إشباع بعضها، كغريزة حب البقاء، فيكون السعي نحو التملك، وغريزة حب النوع تدفع بالسعي نحو الزواج.

وبالنتيجة إن هذه المتطلبات الفطرية الحيويّة بقسميها في إطار التعاطي مع الحياة والمجتمع والبيئة، شرّع لها الإسلام قنوات واضحة لغرض إشباعها بالشكل السليم، ووضع لها ضوابط شرعية

(١) معروف، د. نايف: الإنسان والعقل، ص١٥٣.

(٢) المرجع ذاته، ص١٥٧.

وأخلاقية تحددّ طرق الإشباع، وتعالج أزماتها وملابساتها معالجة جذرية، وبذلك تلبّي حاجات الإنسان الفطرية لضمان استمرارية بقائه على مرّ الزمن، فحلال محمد حلالٌ إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة، وأي ابتعاد عن أسس الشريعة لغرض معالجة تلك المتطلبات والحاجات الفطرية، إنما هو ضمن تصورات بشرية محدودة، ترمي بالإنسان إلى وادٍ سحيق لا يجني هنالك إلّا القلق والاضطراب والأمراض النفسية والجسمية، لأنه خروج عن النواميس الإلهية التي وضعها الله متناسبة مع فطرة الإنسان وحاجياته الحيوية، وإن الخروج عن قوانين الله يعني الشذوذ والسقوط في وحل الفلسفات الوضعية.

هذا وإن الطرق الشرعية لإشباعها ومعالجتها عملياً إنّما يضعها الإسلام في قوانين ثابتة ضمن أسس أخلاقية رفيعة تحيط بها من كل جانب، وعلى رأسها الصبر وحب الآخرين والتعاون والإيثار وعدم الاستغلال واحترام الحقوق المتبادلة وهكذا.. يقول الإمام علي عليه السلام في وصف المتقين: «فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوةً في دين..، وصبراً في شدّة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدىً..»[1]. فيدعونا إلى التحلي بالصبر والقناعة والقيم الخلقية النبيلة لكي لا تغلبنا الشهوات وتخرجنا من أطر الشريعة الإسلامية إلى المحرمات. ففي مسألة حاجة الغريزة الجنسية، يجسد الإمام فكرة الإسلام عملياً فيدعو الرجال إلى اختيار المرأة على أسس الإيمان والتقوى، فيقول عليه السلام: «لا تَنكحوا النِّساءَ لحُسنِهنّ، فعسى

(١) باب الخطب، رقم ١٩٣ -آخر مقطع-.

حسنُهُنَّ أن يُرديهن، ولا لأموالِهنَّ فعسى أموالُهُنّ أن تُطغِيهُنَّ، وانكِحوهُنّ على الدِّينِ، ولأَمَةٌ سوداءُ خرماءُ ذاتَ دينٍ أفضلُ»[١].

كما ويعالج حالة اللهاث الجنسي لدى بعض الرجال، وذلك حينما تنتبه الطاقة الجنسية الكامنة في الذات، لوجود الحافز البرّاني الخارجي، فقد يتهيّج الدافع الجوّاني الغريزي طالباً للإشباع النفسي، تأتي معالجة[٢] الإمام العملية بالإشباع الشرعي البديل، معالجة حكيمة، فقد «رُويَ أنّه عليه السلام كان جالساً في أصحابه، فمرَّتْ بهم امرأةٌ جميلةٌ، فرمَقَها القومُ بأبصارِهِم، فقال عليه السلام: إنَّ أبصارَ هذه الفحولِ طوامِحُ، وإنّ ذلك سببُ هَبابِها، فإذا نظر أحدُكم إلى امْرأةٍ تعجُبهُ فليلامِسْ أهلَهُ، فإنّما هي امْرأةٌ كامْرأتِه»[٣]. ودعا إلى تقليل وتهذيب المعاشرة الزوجية بقوله: «من أراد البقاءَ ولا بقاء، فليباكر الغذاء، وليخفّف الرداء، وليقلّ غشيان النساء»[٤].

---

(١) راجع ألف حكمة للإمام التي أوردها ابن أبي الحديد في خاتمة شرحه لنهج البلاغة، مج١٠، ج٢٠، رقم الحكمة ٨٤٨. ومعنى خرماء: مشقوقة الأذن، وما بين المنخرين (الأنف). أنيس، د. إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، مج١، باب الخاء، ص٢٣٠.

(٢) لتفاصيل جديرة بالاطلاع راجع، معروف، د. نايف: الإنسان والعقل، ص١٥٧-١٧١. «ثانياً: الطاقات الحيوية الكامنة (الغرائز)».

(٣) باب الحكم، رقم ٤٢٠. وتكملة الرواية بهذه العبارة: (فقال رجل من الخوارج: (قاتله الله كافراً ما أفقهه) فوثب القوم ليقتلوه، فقال عليه السلام: (رويداً إنما هو سبّ بسب، أو عفوٌ عن ذنب!). معنى طوامح: جمع طامح أو طامحة من طمح البصر إذا ارتفع، وطَمَحَ: أبعد في الطلب. هبابَها -بالفتح- أي هيجان هذه الفحول لملامسة الأنثى. رويداً: أي مهلاً. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٧٢٨، رقم ٤٩٧٠-٤٩٧٢.

(٤) كاشف الغطاء، الهادي: مستدرك نهج البلاغة، ص ١٦١.

وهكذا حينما يتناول الإمام عموم متطلبات الإنسان في الحياة كالمسكن والعمل والأكل والشرب والزواج، إنما يجعلها في إطارها المشروع وبالقدر الطبيعي المتوازن - لا إفراط ولا تفريط-، يقول عليه السلام: «فرحم الله امْرأً نَزَعَ عن شهوتِهِ، وقَمَعَ هوى نفسِهِ، فإنَّ هذِهِ النَّفسَ أبعدُ شيءٍ مَنْزِعاً، وإنَّها لا تزالُ تَنْزِعُ إلى معصية في هوى»[١]. بمعنى إن الحاجات الفطرية النفسية منها بالتحديد.

كما ويقدم الإمام عليه السلام في سيرته الشخصية أمثلة عملية في محاسبة أصحابه وولاته بدقة، بل يحاسب نفسه أيضاً، من دون مجاملة أو مداهنة في المسائل الشرعية، فيبيّن من خلال تلك المحاسبة الطرق المشروعة لإشباع الحاجات الفطرية العضوية كالأكل والشرب، والحاجات الفطرية النفسية كالغريزة الجنسية، فقد كتب إلى بعض عمّاله قائلاً: «. . كيف تُسِيغُ شَرَاباً وطَعاماً، وأنتَ تعلمُ أنَّك تأكُلُ حراماً، وتشرَبُ حراماً، وتَبْتاعُ الإماءَ وتَنكِحُ النِّساءَ من أموال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين، الذين أفاء اللهُ عليهم هذه الأموال. .»[٢].

وهكذا يوجّه الإمام عليه السلام سعي الإنسان واهتماماته بشكل متوازن، واضعاً متطلباته الفطرية ضمن أطرها المعتدلة إلى جانب بنائه الروحي، فيقول: «للمؤمنِ ثلاثُ ساعاتٍ: فساعةٌ يُناجي فيها ربَّهُ، وساعةٌ يَرُمُّ معاشَه، وساعةٌ يُخلّي بين نفسِه وبين لذَّتِها فيما يحِلُّ

---

(١) باب الخطب، رقم ١٧٦. من المقطع الأول (عظة الناس). نَزَعَ نزوعاً: كفّ وانتهى عن المعاصي والآثام. البستاني، عبد الله: البستان، باب النون، ص١٠٩٠.

(٢) باب الرسائل، رقم٤١. ساغ الشراب يسيغه سيغاً: سهّل مدخله وابتلاعه. البستاني، عبد الله: البستان، باب السين، ص٥٣٥.

ويَجْمُلُ. وليس للعاقل أنْ يكون شاخصاً إلّا في ثلاث: مَرَمَّةٍ لمعاشٍ، أو خُطوةٍ في مَعادٍ، أو لَذَّةٍ في غير محرَّم»[١]. فالعاقل يكون شاخصاً أي راحلاً ومتوجهاً نحو أحد الأهداف الثلاثة وهي: إما لإصلاح معيشته وكسبه في هذه الحياة الدنيوية، وهذا يعني إشباع حاجاته العضوية، كالأكل والشرب بالطريقة المشروعة. «أو خطوة في معاد»، وذلك «لأجل تحصيل المعارف والعلوم الموجب لإصلاح آخرته»[٢]. وعبادته الخالصة والمطلقة لله تعالى، أي لإشباع غريزة التدين الفطرية، وقوله عليه السلام: «أو لذةٍ في غير محرّم»، كالزواج -مثلاً- وهو يعني إشباع غريزة النوع الفطرية، بالطريقة التي رسمها الإسلام.

- **التحلّي بأوصاف المؤمن المقدام من الناحية النفسية والسلوكية:**

على القائد الميداني بل المؤمن المجاهد أن يتحلى بصفات الإنسان الهميم والغيور على دينه وعرضه وبلده. وأهمها صفة الشجاعة النفسية التي تؤهله للتصدي والمواجهة لكل أنواع العدوان. وكذلك التحمّل لعموم صعوبات الأعمال الجهادية لغرض اقتحام حصونهم وهجوم مواقعهم، هذا من جانب، ومن جانب آخر لاستيعاب الإصابات الجسيمة التي قد تحلّ به وبمجموعته المجاهدة، وبذلك سوف تبقى المعنويات عالية لدى المجاهدين رغم الجراح والآلام، بعيدين عن شبح الانهيار والتقهقر.

---

(١) باب الحكم، رقم ٣٩٠. يَرُمّ - بكسر الراء وضمها -: أي يُصلح. المرمّة: الإصلاح. المعاد: ما تعود إليه في القيامة. الصالح، د. صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٧٢٧، رقم ٤٩٣٧-٤٩٣٩.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٤، ص٤٥٣.

وكذلك على المؤمن أن يكون متوازناً في التعاطي الدقيق مع مجريات العملية الجهادية خصوصاً أثناء المواجهة والقتال، فلا يكون عجولاً في أمره، متسرعاً في قراراته، قصيراً في مدى رؤيته الإدارية، خصوصاً في حالة تفاقم التضحيات، كل ذلك في مواقع تقتضي التأني والهدوء والتمحيص لأجل معالجة المواقف.. ومن زاوية أخرى عليه ألّا يكون بطيئاً، متثاقلاً، وكسولاً في مواقع تقتضي السرعة والمبادرة الفورية وذلك لاغتنام الفرصة قبل فواتها - فإنها تمرّ مرّ السحاب. لذلك حينما كتب كتاباً إلى أميريْن من أمراء جيشه وهو يصف مالك الأشتر وقد أمّره عليهما، يذكر فيه من أوصاف المؤمن المقدام، بقوله: «وقد أمّرْتُ عليكما وعلى مَنْ في حيِّزِكما مالكَ بنَ الحارثِ الأشترَ، فاسْمعا له وأطيعا، واجْعلاه دِرْعاً ومِجَنّاً فإنّه ممّن لا يُخافُ وَهْنُهُ، ولا سَقطتُه، ولا بُطؤُهُ عمّا الإسراع إليه أحزمُ، ولا إسْراعهُ إلى ما البُطْءُ عنه أمثَلُ»[١]. وما هذه الأوصاف التي تحلّى بها مالك إلّا نتاج تربية الإمام، فقد ورد في عهده له حينما ولّاه مصر: «.. وإيّاكَ والعجلةَ بالأمورِ قبلَ أوانِها، أو التَّسَقُّطَ فيها عند إمكانِها، أو اللَّجاجَةَ فيها إذا تنكَّرت، أو الوَهْنَ عنها إذا اسْتوضَحَتْ. فَضَعْ كلَّ أمرٍ موضِعَهُ، وأوْقِعْ كلَّ أمرٍ موقِعَه»[٢].

---

(١) باب الرسائل، رقم١٣. في حيّزكما: في ناحيتكما، والحيّز: ما يتحيّز فيه الجسم، أي يتمكن، والمراد مقرّ سلطتها. الدرع: ما يلبس من مصنوع الحديد للوقاية من الضرب والطعن. والمجن: التُرس، أي اجعلاه حامياً لكما.الوهن: الضعف. السقطة: الغلطة والخطأ. أحزم: أقرب للحزم. وهذا أمثل من هذا أي أفضل وأولى وأحسن. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٦٠٤.

(٢) باب الرسائل، رقم ٥٣. التسقط: التهاون. اللجاجة: الإصرار على النزاع. وتنكرت: =

كما وترشدنا كلمات الإمام إلى صفة مهمة أخرى وهي إحكام التخطيط في إدارة العملية الجهادية وفي الوقت ذاته القدرة على استيعاب الخطة المضادة - إن كان في موقع القيادة والتوجيه وإلّا عليه أن يتفهم خطة قيادته ويقتنع بها للمضي بكامل ثقله لإنجاحها - يقول الإمام عليه السلام: «البخل عارٌ، والجُبنُ منقصةٌ»(١). «قَدْرُ الرَّجل على قَدْرِ هِمَّتِهِ، وصِدْقُهُ على قَدْرِ مروءَتِهِ، وشجاعتُهُ على قَدْر أنفتِهِ، وعفّتُه على قَدْرِ غيرتِه»(٢). وبكلامه هذا، يضع ميزاناً عملياً لمعرفة قدْر الإنسان وصدقه وشجاعته وعفته، بمقدار همته ومروءته وأنَفته وغيرته. وهذا الميزان الأخلاقي يمتاز بالعدل من جانب، ومن جانب آخر يكون محفّزاً للتحلّي بالمزيد من القيم السلوكية والنفسية العالية. وقال أيضاً في سبيل تكريس صفة النجاح في الحياة الجهادية بالخصوص: «الظَّفَرُ بالحَزْمِ، والحزمُ بإجالةِ الرأي، والرأيُ بتحصينِ الأسرارِ»(٣). وبحكمته هذه «يشير الإمام إلى أن التخطيط شرط أساسي للظفر والنجاح، وان أي عمل من غير تصميم وتخطيط يذهب سدى. . والشرط الأساسي في التخطيط الحزم، وفسرّه الإمام بإجالة الرأي أي بالدراسة العلمية على أن تبقى هذه الدراسة طيَّ الكتمان، لا يعلن عنها إلّا بعد التجربة والنجاح التام»(٤). وقال عليه السلام

= لم يعرف وجه الصواب فيه. عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١٠٩.

(١) باب الحكم، رقم ٣.

(٢) باب الحكم، رقم ٤٧.

(٣) باب الحكم، رقم ٤٨.

(٤) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص٢٤٧.

في بيان عزة المجاهدين وأثرهم: «بقيةُ السيف أبقى عدداً، وأكثرُ ولداً»[١]. ومراده من «وبقية السيف: هم الذين يبقون بعد الذين قتلوا في حفظ شرفهم ودفع الضيم عنهم وفضلوا الموت على الذل، فيكون الباقون شرفاء نُجداء. فعددهم أبقى وولدهم يكون أكثر، بخلاف الأذلاء، فإن مصيرهم إلى المحو والفناء»[٢].

(١) باب الحكم، رقم ٨٤.

(٢) الصالح، د. صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٣١٧، رقم ٤٥٢٢.

المطلب الثاني

بناء الأمة المؤمنة المجاهدة

من المعلوم أن الإنسان - الفرد - هو نواة المجتمع، فلمّا كانت أهداف التربية الجهادية عند الإمام علي عليه السلام تبدأ ببناء الإنسان المؤمن المجاهد، إنما تهدف إلى تكوين اللبنات الأساسية للعملية البنائية العامة ألا وهي الأمة المجاهدة. وفي الحقيقة إن هاتين العمليتين البنائيتين متداخلتان في النسغ التصاعدي لأجل تحقيق التكامل البنائي المنشود، بل أن بناء الأمة يعتمد كليّا على صياغة الفرد المؤمن المجاهد، لأنه أساس الأمة ومنطلق الحياة. فكلما تمتّ صياغة دقيقة للفرد تربوياً حصلنا على أمة واعية مجاهدة، وهكذا حينما تختل الصياغة التربوية الفردية فلا نتعامل إلّا مع أمة انتهازية مصلحية متقلبة.

إذن الخطوة الرئيسية الأولى تبدأ في صياغة العناصر المكونة والرافدة للإنسان الفرد - اللبنة الأولى في المجتمع - ومن ثمّ تأتي الخطوة الثانية التي تتكامل مرحلياً في تتويج العملية التربوية بمرحلتها المتقدمة، لتتماسك تلك اللبنات وتشكّل بناء الأمة المتراصّة والمتحابّة والمتماسكة - كالجسد الواحد - على أسس التقوى

والإيمان والتضحية في مواجهة العدوان المهدّد لهوية الأمة ووجودها. بالضبط مثل العملية البنائية للعمارة السكنية التي تعتمد على طبيعة المواد الأولية. واللبنات الأساسية فمهما كانت جودتها عالية وصلاحيتها مستمرة تظهر العمارة متينة قوية تحمل مقومات البقاء والتحدّي، بينما إذا كانت أوصاف تلك الصناعات الأولية غير دقيقة ومقاديرها غير علمية واستخداماتها غير مدروسة فهي لا تستطيع مقاومة عوامل الانهيار والفناء، كالبنايات التي تبدو جميلة في مظهرها بالزخارف والنقوش إلا أنها خاوية بالية في جوهرها من الداخل سرعان ما تنهار أمام العواصف والمتغيرات.

إن بناء الأمة المجاهدة يعتمد على اللبنات الأساسية المتمثلة بالبناء الفردي، وذلك ليتسنى للمربي من صياغة المجتمع على أسس الوعي الإيماني والجهادي، وإلّا تبقى الأجساد مجتمعة ظاهرياً في ساحة المواجهة، إلّا إنها لا تمتلك روح المقاومة والصبر والتضحية. يقول الإمام عليه السلام: «أيُّها النّاسُ، المجتمعةُ أبدانُهُمْ، المختلفةُ أهواؤُهم، كلامُكم يوهي الصُمَّ الصِّلاب، وفعلُكم يُطمِعُ فيكمُ الأعداءَ! تقولون في المجالس: كيْتَ وكيتَ، فإذا جاء القتالُ قلتم: حيدي حَياد.. لا يَمنعُ الضيمَ الذليلُ! ولا يُدرَكُ الحقُّ إلّا بالجدِّ!..»[1].

---

(١) باب الخطب، رقم ٢٩. أهواؤهم: آراؤهم وما تميل إليه قلوبهم. يوهي: يُضعف ويفتّت. الصّم: جمع أصم وهو من الحجارة الصلبُ المصمَت، والصِّلاب: جمع صليب، والصليب الشديد، وبابه ظريف وظِراف، وضعيف وضِعاف. كيْت كيت: كلمتان لا تستعملان إلّا مكررتين: إما مع واو العطف وإما بدونها وهي كناية عن الحديث. حِيدي حَياد: كلمة يقولها الهارب عند الفرار. وهي من الحَيْدان: الميل =

هذا، وقد تحدثنا في المطلب الأول بشيء من التفصيل عن بناء الإنسان المجاهد، وفي هذا المطلب نضيف على ما أوردناه هنالك، من العوامل المهمة التي تنهض بالأمة بشكلٍ عام، عبر المحاور الخمسة التالية:

١• الإطاعة التامة للولي القائم بالحجة على الخلق.
٢• تكثيف الوعي الإنساني وقيم الإيمان لدى المجاهدين.
٣• رصّ الصفوف داخل الأمة على ضوء الأخلاق والفضائل الإسلامية.
٤• الوضوح في العلاقات الاجتماعية بين الطبقات.
٥• مسؤولية الأمة في التغيير والإصلاح.

● **الإطاعة التامة للولي القائم بالحجّة على الخلق:**

إن وصيّ رسول الله ﷺ هو حجة الله على خلقه وولي الأمر من بعده ﷺ، وإمام المسلمين، وعلى الناس أن يطيعوه ليصلوا معه إلى برّ الأمان، وأي تراجع وتلاعب في مسألة الإطاعة يعني ذلك تهديد وحدة المسلمين وتفريق كلمتهم، وحينذاك سيفتح المجال أمام المتربصين والطامعين للقفز إلى مواقع التوجيه والإدارة لهذه الأمة، وستدخل الحسابات المصلحية في إدارة شؤون المسلمين وسير حروبهم ومعاركهم وبالنتيجة يتهدد بناء الأمة بالانهيار والتقهقر وهذا ما حصل تاريخياً ونعيش آثاره المفجعة عملياً حتى يومنا هذا.. يقول

= والانحراف عن الشيء. وحياد: مبني على الكسر، وهي من أسماء الأفعال كنزال. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٥٧٥، رقم ٣٦٥-٣٦٩.

الإمام عليه السلام: «أيها الناسُ، لَوْ لم تتخاذَلوا عن نصرِ الحقِّ، ولم تَهِنُوا عن توهينِ الباطل، لم يطمَعْ فيكم مَنْ ليس مثلَكم، ولم يقوَ من قَوِيَ عليكم. لكنّكم تِهْتُمْ متاهَ بني إسرائيل. ولعمري، ليُضَعّفَنّ لكمُ التِّيهُ من بعدي أضعافاً بما خلّفتُمُ الحقَّ وراءَ ظهورِكم، وقطعتُمُ الأدنى، ووصلتُمُ الأبعدَ. واعْلموا أنّكم إن اتَّبعْتُمُ الداعِيَ لكم، سَلَكَ بكم منهاجَ الرَّسولِ وكُفِيتُمْ مؤونَةَ الاعتسافِ، ونبْذتُمُ الثِّقْلَ الفادِحِ عن الأعناق»[1]. فَعدم الاجتماع لنصرة الحق، ودحر الباطل سيدخل في نفوس الأعداء الطمع للسيطرة عليكم واستغلالكم، وهذه النتيجة تعني التيه والحيرة والضياع بأشد من تيه بني إسرائيل حين خالفوا طريق الهدى. ثم خاطبهم بصراحة ووضوح: «. . إن اتبعتم الداعي لكم»، «يعني: نفسه الكريمة، حيث كان يدعوهم إلى الرشاد، «سلك بكم منهاج الرسول، وكفيتم مؤونة الاعتساف»، الشدة والصعوبة في الأمور الدنيوية والأخروية، أي لا تلحقكم ما تلحقكم الآن من المصاعب والمتاعب»[2]. وهكذا يبين أهمية وخطورة الإطاعة في مسيرة بناء الوعي الإيماني والجهادي في الأمة.

فإذاً جهاد أصحاب الحق مع طاعتهم لإمامهم هو الذي ينصرهم على جنود الباطل، كما أنّ الباطل ينتصر بأهله على أصحاب الحق إن توانوا عن تحمل مسؤولياتهم «فإذا رأينا أن الباطل قد انتصر، فلا بد أن نعرف أن أهل الحق هم الذين تخاذلوا في أداء مسؤولياتهم، وليس لأن الباطل يمتلك عنصر الانتصار الطبيعي على الحق»[3]. «وإذا انتصر أهل

---

(١) باب الخطب، رقم ١٦٦.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٣، ص٢٨.

(٣) المرتضى، سيد: نهج الكفاح، ص ٢٥.

الباطل فلا يعني أنهم أولى بالحق، وإنما يعني أنهم جدّوا واجتهدوا أكثر من أهل الحق»[١]. من هنا قال الإمام عليه السلام: «أما والذي نفسي بيدِهِ، ليَظْهَرَنَّ هؤلاءِ القومِ عليكم، ليس لأنّهم أولى بالحقِّ منكم، ولكن لإسراعِهِمْ إلى باطلِ صاحِبهم، وإبطائِكم عن حقيّ.. أيُّها القومُ الشّاهدةُ أبدانُهُم، الغائبةُ عنهم عقولُهم، المختلفةُ أهواؤُهم، المُبتلى بهم أمراؤُهم. صاحبُكُم يُطيعُ اللهَ وأنتم تعصونَه، وصاحبُ أهلِ الشّام يِعصي اللهَ وهم يُطيعونهَ.. وإنِّي لعلى بيّنةٍ من ربّي، ومنهاج من نبيِّي، وإنّي لعلى الطريقِ الواضحِ ألْقُطُهُ لقْطاً»[٢]. إن الإمام يشير في هذا المقطع من خطبته إلى الأسباب الطبيعية للانتصار في المعركة، بعيداً عن موضوع أحقيّة أحد الطرفين وشرعيته، مع انه يؤكد حقه المشروع في قيادة الأمة، وانه على بيّنةٍ من أحكام الله سبحانه، وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وآله، إنما هو في صدد بيان ضرورة إطاعة القائد لغرض تحقيق الغلبة والنصر، فالجانب الذي تتوافر فيه إطاعة القائد هو الجانب المرشح للنصر، وهكذا يكون مصير الجانب الذي يفتقد إطاعة أميره في المعركة، فمن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى فقدان التماسك تحت ظله، وإلى الخسران، كما حدث في واقعة أحد، حينما خالف معظم الرماة أوامر رسول الله صلى الله عليه وآله بالثبات في مواقعهم، فكانت النتيجة الطبيعيّة ما حلّ بالمسلمين من خسارة وانكسار[٣]، وهذا لا يعني أبداً أنّ العدوَّ المنتصر هو على الحق في مسيرته.

---

(١) المرجع ذاته، ص ٢٧.

(٢) باب الخطب، رقم ٩٧. اللقط: أخذ الشيء من الأرض بلا تعب. البستاني، عبد الله: البستان، باب اللام، ص٩٩٥.

(٣) راجع الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ١٩٤.

وهنا يمكننا أن نتساءل: لماذا لم تتوافر الطاعة للإمام، ومن هم الذين خذلوه؟

في الحقيقة أنّ الإمام لمّا جاءته الخلافة، حصل على تركة ثقيلة في حياة عموم المسلمين، محورها ابتعادهم عن روح الإسلام وحقائق الإيمان، ابتداءً من بعض الصحابة كطلحة والزبير ممّن نكثوا بيعة الإمام، بل وحاربوه وألّبوا الناس ضده، ومروراً بالولاة المتضررين من خلافة الإمام، وعلى رأسهم معاوية الذي بذل قصارى جهده في سياسة المكر والغدر والخداع، لغرض استمراره في الإمارة، وانتهاءً بعموم المسلمين المضللين بإعلام بني أمية، أو الذين ترسبت في أعماقهم اتجاهات اللهاث نحو الماديات، وحبّ الدنيا. بهذه الروحية المتذبذبة استلم الإمام قيادة هذه الأمة، بمساعدة النخبة المميزة من الأصحاب الكرام. فمعاناته من العموم المتذبذب والإعلام المضلِّل والمال المفسد، فبدلاً عن أن يدفعهم إيمانهم إلى تحمل مسؤوليات الجهاد في سبيل الله، بصدق وإخلاص، والخوف من الله في حالة التقصير، أخذوا يخافون قوة العدو وغاراته، يعني الخوف من الموت ومفارقة الدنيا. وعوضاً من أن يتماسكوا ويتعاونوا ويطيعوا قائدهم. أخذت سوسة التفرقة تدبّ في صفوفهم، وعلائم الخذلان تلوح في أذهانهم.

هذه الصورة التي نفهمها عن الموقف العام الذي استورثه الإمام في عهده، فكان على مفترق ثلاثة طرق: إما أن يسير بهم على ما يريدون من أطماع كطلحة والزبير، ويعني ذلك تحطيم الحالة المبدئية في النفوس وإنماء الحالة المصلحية، وإما أن يقبل بالدخول في اللعب السياسة فيقرّ إمارة معاوية -مثلاً- في بداية أمره ثم يعزله،

ويعني ذلك نزول علي إلى مستوى الحاكمين السياسيين الذين لا تحكمهم قيم ولا مبادئ، وإما أن يحملهم إلى مسيرة الجهاد ويتحمل المعاناة الكبيرة لإعادة الناس إلى ميدان الإسلام الصحيح، ومما لا يخفى أن العملية الإصلاحية التي قادها كانت تمثل معركة الإسلام الكبرى في عهده، وبالفعل كشف زيف أعدائه بمرور الزمن، وأسّس للمسيرة الجهادية سبيلها القويم، بعيداً عن المداهنات والمجاملات والحسابات الخاصة، وهذا هو الاختيار المفروض على وليِّ الله أداءه، وبالفعل خاض تلك المعركة متحملاً تبعات خطواته الإصلاحية، فقاد الأمّة بجدارةٍ وهمّة في المسيرة الجهادية الصعبة، وخرج منتصراً للإسلام انتصاراً استراتيجياً، وربما انتصر أعداؤه مرحليّاً. ومن لا يعرف أنّ البناء الإيماني للأمّة، وإصلاح شأنها في تلك الظروف العاصفة يُعدّ مهمة في غاية الصعوبة، أمام محاولات الهدم المدروس من قبل الأعداء. وظهور الانهيارات في تلك الحقبة العصيبة. يقول سيد قطب: «لقد كان واجب علي الأول والأخير أن يرد للتقاليد الإسلامية قوّتها، وان يرد إلى الدين روحه.. ولو جارى وسائل بني أمية في المعركة لبطلت مهمته الحقيقية»[١].

- **تكثيف الوعي الإنساني وقيم الإيمان لدى المجاهدين:**

من الممكن للإنسان المجاهد وهو يخوض غمار المعارك والقتال أن يعيش واقعاً جديداً يفرض عليه سلوكاً خاصاً يسوده العنف والشدة والصلابة وإراقة الدماء وإزهاق نفوس الأعداء وكذلك

(١) قطب، سيد: العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص٢١٧.

الانشغال بالغنائم والتفكير باستثمارها، ففي هذه الأجواء الصاخبة والمتلاحقة بالمعطيات الجديدة قد تتغيب القيم الإيمانية عن المجاهدين، تلك القيم الداعية إلى المحبة والوئام والإيثار، فلا بد إذن من تكثيفها في نفوسهم عبر التلقين المستمر بها حتى في أحلك الظروف ضيقاً، أو أشدّها فرحاً بالانتصارات، لينمو الوعي الإنساني ويتحدى الظروف الاستثنائية الطارئة التي قد تُلهي الإنسان وتنسيه القيم التربوية التي ارتوى منها في ظروف هادئة نسبيًّا.

وبهذا الأسلوب تصقل الشخصية الجهادية لتسير على خطى الثوابت الإسلامية بثقة عالية بعيدة كل البعد عن التأثيرات المادية والنفسية الضاغطة ففي هذا الاتجاه يقول الإمام عليه السلام لأصحابه في ساحة الحرب بصفين: «وأيّ امرئ منكم أحسّ من نفسه رباطة جأشٍ عند اللقاء، ورأى من أحد إخوانه فشلاً فليذُبّ عن أخيه بفضل نجدته التي فُضّل بها عليه كما يذُبّ عن نفسه، فلو شاء الله لجعلهُ مثله. إن الموت طالبٌ حثيث لا يفوتُهُ المقيم، ولا يُعجزُه الهارب. إن أكرم الموت القتل!»[١]. ومراده عليه السلام أن تسود الُالفة والمحبة والإيثار بين المقاتلين، «وتعاون الهمم حتى يكون الجميع كنفسٍ واحدة، وبذلك يكون الظفر والغلبة، واستمال ذوي النجدة [أي الشجاعة] بذكر فضيلة تخصهم دون من يذبّون عنه استثارة لنجدتهم وتعطيفاً لهم»[٢].

---

(١) باب الخطب، رقم ١٢٣. رباطة جأش: قوة القلب عند لقاء الأعداء. الفشل: الجبن والضعف. فليذبّ: فليدفع. النجدة: الشجاعة. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٦٢١، رقم ١٦٤٤-١٦٤٧.

(٢) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١١٤.

- **رصّ الصفوف داخل الأمة على ضوء الأخلاق والفضائل الإسلامية:**

وذلك بتطبيقات مبادئ الأخوة الإسلامية في التعاون والتوادد والتكافل الاجتماعي والانسجام واحترام الآخرين، في حقوقهم وآرائهم والمحبة والإيثار في ميادين المقاومة والجهاد، والابتعاد تماماً - هناك - عن المسائل المؤدية إلى الإحباط النفسي والانهزامية وبث روح النفاق والسعي وراء خيانة القائد والقضية الإسلامية، بل لا بد من رصّ صفوف المجاهدين، لكي لا تترك ثغرات مفتوحة فيما بينهم يسهل على العدو التسلل من خلالها ليشيع عبر وسائله الروح السلبية التي تزعزع الإخلاص في نفوس المجاهدين بالذات نحو قائدهم ومبادئهم وتزرع حالة عدم الثقة فيما بينهم فيبتلون بالأقوال البرّامة دون عمل، فيقولون ما لا يفعلون، أو يفعلون ما لا يقصدون. نواياهم متضاربة تشوبها أمراض الاختلاف والتفرقة والمنازعات - والعياذ بالله - بينما يفترض أن يكون بناء الأمة المجاهدة مرصوصاً كالبنيان المرصوص، تسوده الفضائل والمحبة والإيثار. يقول الإمام عليه السلام: «.. إنَّ أفضلَ النّاسِ عندَ الله مَنْ كان العملُ بالحقِّ أحبَّ إليه - وإن نقصَهُ وكَرثَهُ - من الباطل وإن جرّ إليه فائدةً وزادَهُ»[1]. فالهدف هو إتباع الحق والعمل له وان نقصه وكَرَثه هذا العمل، بمعنى «أوجب شدة الغم عليه»[2].

وفي خطبة أخرى، يبين عليه السلام الأسباب المتعلقة بالأمة المجاهدة

---

(١) باب الخطب، رقم ١٢٥. كرَثه - كنصره وضربه - اشتد عليه الغم، وبلغ منه المشقة. البستاني، عبد الله: البستان، باب الكاف، ص٩٣٩.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص٢٧٤.

التي أدت إلى انتصار رسالة الإسلام، ومن أبرزها -بعد الإيمان بالله وقيادة الرسول الحكيمة ورعايته الدقيقة لأحوالهم- الإطاعة الكاملة للرسول ﷺ. فتحملوا المسؤولية الجهادية بصدق، وابتعدوا عن الحالات السلبية للنفس وأمراض الجبن والخيانة.

ويذكر في الخطبة ذاتها تجربته الشخصية في جهاد الأعداء تحت راية رسول الله ﷺ فيقول: «أما بعدُ، فإنَّ اللهَ سبحانه بعثَ محمداً، ﷺ، وليس أحدٌ من العرب يقرأ كتاباً، ولا يدَّعي نبوّةً ولا وحياً، فقاتلَ بمنْ أطاعَهُ من عصاهُ، يسوقُهم إلى منجاتِهِم، ويبادرُ بهمُ الساعةَ أن تنزلَ بهم، يَحْسِرُ الحسيرُ، ويقِفُ الكسيرُ، فيقيمُ عليه حتى يُلحقَهُ غايَته. إلّا هالكاً لا خير فيه، حتى أراهم منجاتَهم وبوَّأهم محلَّتهم، فاستدارتْ رَحاهم، واستقامتْ قناتُهُم، وايمُ الله، لقد كنتُ من ساقتها حتى تولَّتْ بحذافيرها، واسْتَوْسَقْتُ في قيادها، ما ضَعُفْتُ، ولا جَبُنْتُ، ولا خُنْتُ، ولا وَهَنْتُ، وايمُ اللهِ، لأبقُرَنَّ الباطلَ حتى أخرِج الحقَّ من خاصرتِهِ!»[(١)].

فإذن كان رسول الله ﷺ بنفسه يعالج الأزمات الطارئة التي تحصل لدى بعض المسلمين وهم في المسيرة الإيمانية والجهادية

---

(١) باب الخطب، رقم ١٠٤. يحسر الحسير: من (حَسَرَ البعير) - كضَرَب - إذا أعيا وكلّ. الكسير: المكسور، استدارت رحاهم: كناية عن وفرة أرزاقهم، فإن الرحى إنما تدور على ما تطحنه من الحبّ. والرحى: رحى الحرب يطحنون بها. القناة: الرمح، واستقامتها كناية عن صحة الأحوال وصلاحها. لأبقُرنّ الباطل: من البقر - وهو الشق - والمراد: لأشقنّ جوف الباطل بقهر أهله، فأنتزع الحق من أيدي المبطلين. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٦١٢، رقم ١٣٧٩-١٣٨٣.

لغرض إنقاذهم واستشفائهم ومن ثم إعادتهم إلى صفوفهم. فمنهم «من ضعف اعتقاده أو كلّت عزيمته فتراخى في السير على سبيل المؤمنين، أو طرقته الوساوس فهشمت قوائم همته بزلزال في عقيدته فإن النبيَّ ﷺ كان يقيم على ملاحظته وعلاجه حتى ينسلّ من مرضه هذا ويلحق بالمخلصين إلّا من كان ناقص الاستعداد خبيث العنصر فلا ينجع فيه الدواء فيهلك»(١).

وهكذا كان عليه السلام يحث الأمة على التآلف ورص الصفوف خصوصاً المجاهدين منهم، فقد قال في خطبة له خطبها بصفين: «..ولكنْ من واجبِ حقوقِ اللهِ على عبادِهِ النصيحةُ بمبلغِ جُهدِهم، والتعاوُنُ على إقامةِ الحقِّ بينَهم. وليس امْرُؤٌ - وإن عظُمتْ في الحقِّ منزلتُهُ، وتقدّمتْ في الدِّينِ فضيلتُه - بفوقِ أنْ يُعانَ على ما حمّلَهُ اللهُ من حقِّهِ..»(٢).

● الوضوح في العلاقات الاجتماعية بين الطبقات:

من دواعي البناء الرصين للأمة المجاهدة بث روح الأخوة الإيمانية في الوسط الاجتماعي وذلك بإشاعة حالة الثقة والوضوح والشفافية في الصداقات والعلاقة مع الأرحام والجوار، وهذه الحالة المتطورة لا تنجز على أرض الواقع إلّا بالقضاء على آفات التفرقة والعصبية الجاهلية والتناحر والتفاخر على ضوء هوى النفس،

---

(١) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص١٩٩.

(٢) باب الخطب، رقم ٢١٦، بالمقطع الثاني، بفوق أن يعان: أي بأعلى من أن يحتاج إلى الإعانة، أي: يستغني عن المساعدة. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٥٣٨.

والسخرية بالآخرين، فالأمة بالفعل تتمزق باستفحال تلك الآفات. وكذلك لا تتحقق هذه الصورة المتقدمة في وعي الأمة الإسلامية إلّا بالتخلص من عوامل التشرذم الداخلي جراء بعض السلوكيات الفتاكة والتي تضعف اللحمة الاجتماعية، وتقطع المجتمع إلى أوصال متناثرة وقوى مبعثرة ومن أبرزها الغيبة والنميمة والازدواجية في الشخصية والحالة النفاقية القاتلة والحسد والحقد وما شابه ذلك.

ومنهجية الإمام عليه السلام التربوية تهدف إلى بناء الأمة بوعي جهادي قادر على التعالي عن تلك السلوكيات الشاذة والأخلاقيات الملتوية التي تهدد وحدة الأمة في تماسكها الاجتماعي ومواقفها السياسية وعملياتها الجهادية. يقول الإمام علي عليه السلام: «.. إيّاكُمْ والفُرْقَةَ! فإنّ الشّاذَّ من النّاس للشَّيطان، كما أنَّ الشّاذَّ من الغَنَمِ للذئبِ. ألا ومن دعا إلى هذا الشِّعارِ فاقْتلوهُ، ولو كانَ تحتَ عِمامتي هذهِ..»[1]. فالذي يرفع شعار: أي علامة الخروج من طاعة الإمام الشرعي، ويخرج من تحت رايته الجهادية إنما يريد إيقاع الفتنة والفرقة بين المسلمين «فيريد الإمام أن كل خارج عن رأي الجماعة مستبد برأيه، عامل على التصرف بهواه فهو واجب القتل وإلا كان أمره فتنة وتفريقاً بين المؤمنين»[2].

ويقول الإمام عليه السلام أيضاً: «.. ولا ترخِّصوا لأنفسِكم، فتذهبَ بكُمُ الرُّخَصُ مذاهبَ الظَّلَمةِ. ولا تُداهنوا فيَهجُمَ بكم الإدهانُ على المعصيةِ. عبادَ اللهِ.. والسعيدُ من وُعِظَ بغيرِه، والشَّقيُّ من انْخَدَعَ

(١) باب الخطب، رقم ١٢٧.

(٢) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٨.

لهواهُ وغرورِهِ. واعْلموا أن يسيرَ الرِّياء شِرْكٌ، ومجالسَةَ أهلِ الهَوى مَنْسَاةٌ للإيمانِ ومحضرةٌ للشَّيطانِ. جانِبُوا الكَذِبَ فإنّه مجانبٌ للإيمان. الصّادق على شفا منجاةٍ وكرامة. والكاذبُ على شرفِ مَهْواةٍ ومهانة. ولا تَحاسَدوا فإنَّ الحَسَدَ يأكلُ الإيمانَ كما تأكلُ النّارُ الحَطَبَ، ولا تباغَضوا فإنَّها الحالِقَةُ..»[١].

يقول الشيخ مغنية في شرحه: «ولا ترخّصُوا لأنفسكم» أي لا تطلقوا لها العنان وراء الشهوات.. وتقودكم إلى الهلكة.. «واعلموا أن يسير الرياء شرك»، المرائي يضمر شراً، ويظهر خيراً، والمراد بالشرك هنا العمل لغير الله.. «ومحاسبة أهل الهوى منساة للإيمان، ومحضرة للشيطان». للعدوى قوة وسيطرة على ضعاف النفوس، وتنفذ إليها من عدة مسالك. منها المعشر والكتب والصحف والاستماع إلى الإذاعات.. «جانبوا الكذب فإنه مجانب للإيمان». أي لا يسلم للمرء دين ولا إيمان إلّا إذا ابتعد عن الكذب.. «ولا تحاسدوا» لأنه يقود إلى الافتراء والبغي، والفرق بين الحسود والمعجب بنفسه، أن الحسود ساخط على الله والناس أجمعين، والمعجب يرى نفسه فوق الناس أجمعين.. «ولا تباغضوا فإنها الحالقة» للدين تماماً كما تحلق الموسى الشعر والمعنى أفشوا السلام بينكم، وتعاونوا على ما فيه خيركم..»[٢].

---

(١) باب الخطب، رقم ٨٦. المداهنة: إظهار خلاف ما في الطوّية. والادهان: النفاق بإظهار الطاعة، وإخفاء المعصية. الرياء منساة: داعية إلى نسيان الإيمان وإهماله. محضرة الشيطان: موضع حضوره، وداع له. الشّرف: المكان العالي. المهواة: موضع السقوط. المهانة: الحقارة. فإنها الحالقة: أي المباغضة هي الماحية لكل خير وبركة. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص١٨٩-١٩٠.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة ج١ ص ٤٢٦-٤٢٨.

ويقول الإمام: «من أصْلَحَ سريرتَه أصْلَحَ اللهُ علانيتَهُ، ومن عَمِلَ لدينه كفاهُ اللهُ أمرَ دنياهُ، ومنْ أحسَنَ فيما بيْنَهُ وبينَ اللهِ أحسَنَ اللهُ بينهَ وبين النّاسِ»[١].

تهذيب اللسان:

اللسان - في الحقيقة - هو مفتاح شخصية الإنسان وبه يقوّم، يقول الإمام عليه السلام: «تَكَلّموا تُعرَفوا، فإنّ المرءَ مخبوءٌ تحتَ لسانِهِ»[٢]. ومن عوامل تهذيب اللسان وتخليصه من آفاته المحتملة: قلة الكلام، وضبط المعلومات، وإخفائها أحياناً لعدم وجود مصلحة للإفصاح عنها. يقول الإمام: «لا تَقُلْ ما لا تعلمُ. بل لا تقلْ كلَّ ما تعلم، فإنّ اللهَ فرضَ على جوارحِك كلِّها فرائضَ يحتجُّ بها عليك يوم القيامة»[٣]. «الكلامُ في وَثاقِك ما لم تتكلَّمْ به، فإذا تكلمْتَ به صرتَ في وَثاقِهِ، فاخزُنْ لسانَك كما تخزُن ذهَبَك ووَرِقَك، فَرُبَّ كلمةٍ سلبتْ نعمةً وجَلبتْ نقمةً»[٤]. «.. فإنَّ شِرارَ النّاس طائرون إليك بأقاويلِ السُّوءِ»[٥]. ويدعو الله سبحانه بقوله: «اللهم اغفر لي رَمَزاتِ الألحاظِ، وسقطاتِ الألفاظِ، وشهواتِ الجَنانِ، وهَفَواتِ

---

(١) باب الحكم، رقم ٤٢٣.

(٢) باب الحكم، رقم ٣٩٢.

(٣) باب الحكم، رقم ٣٨٢.

(٤) باب الحكم، رقم ٣٨١. الورق: - بفتح وكسر -: الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة. أنيس، د.إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، مج٢، باب الواو، ص١٠٢٦.

(٥) باب الرسائل، رقم ٧٨.

اللسان»[١]. وبهذا الدعاء يبين الإمام بعض الأسباب المهمة التي تؤدي إلى تفتيت المجتمع حيث يقول «اللهم اغفر لي رمزات الألحاظ» أي الإيماء والإشارة إلى عيوب الناس ومساوئهم «وسقطات الألفاظ» أي ما ينطق به اللسان مما لا يرضي الرحمن.. «وهفوات اللسان» عطف تفسير على سقطات الألفاظ»[٢].

ويشير عليه السلام في خطبة أخرى إلى خُطورة الازدواجية ومرض النفاق والظهور بلسانين فيقول: «إنَّ من عزائمِ اللهِ في الذِّكْرِ الحكيمِ.. أنّه لا ينفعُ عبداً - وان أجهدَ نفسه، وأخلصَ فعله - أن يخرج من الدنيا، لاقياً ربَّه بخَصْلةٍ من هذه الخصال لم يَتُب منها: أنْ يُشركَ بالله.. أو يلقَى النّاسَ بوجهينِ، أو يَمشيَ فيهم بلسانين..»[٣]. فمن المحرمات التي أمر الله المسلمين اجتنابها، الظهور للناس بوجهيْن متناقضين، ولسانيْن متعارضيْن «فإذا حضروا مدحهم وإذا غابوا ذمّهم.. لسان مدح وإطراء، ولسان ذمٍّ وازدراء، ولعلّ الجملتين لمفادٍ واحد»[٤].

ويقول أيضاً: «يا أيُّها النّاسُ طوبى لمن شغلَه عيبُه عن عيوبِ النّاس»[٥]. ولأن الغيبة مرض فتاك بالمجتمع فيقول: «الغيبةُ جُهْدُ العاجِزِ»[٦].

---

(١) باب الخطب، رقم ٧٨.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج ١ص ٣٦٨.

(٣) باب الخطب، رقم ١٥٣.

(٤) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص٤٠٥.

(٥) باب الخطب، رقم ١٧٦ (آخر مقطع).

(٦) باب الحكم، رقم ٤٦١.

● مسؤولية الأمة في التغيير والإصلاح:

تتحمل الأمة مسؤولية العملية التغييرية نحو الأفضل، وحماية الصالحين والأتقياء في حالة تعرضهم للتشويه والاعتداء، لأن هذه المسؤولية الشرعية لا تسقط عن كاهل عموم الأمة إلّا بالتصدي لحملها، والتعاون على إنجاحها. فكل مسلم مسؤول عن شؤون العباد والبلاد. يقول الإمام عليه السلام: «. . اتَّقُوا اللهَ في عبادِه وبلادِه، فإنَّكُمْ مسؤولونَ حتى عن البقاعِ والبهائمِ. .»[١]. وذلك في ظروف السّلم أو الحرب، ففي منهج الإمام ليست الحرب هدفاً أو هواية أو حبّاً للتسلط والسيطرة، وإنما هذه دوافع الجلّادين والحكّام الجائرين، بينما في الإسلام تقع الحرب بعد نفاذ كل الوسائل السلمية لغرض ردع المعتدين وهداية البسطاء والطيبين، وذلك لضمان إنقاذ الإنسان وهدايته.

وحتى في مسألة الخلافة والحكم لدى الإمام إنما هو لغرض إقامة العدل وإصلاح المنحرفين في الأمة، لذلك يقول: «اللهمّ إنّك تعلم أنه لم يكنِ الذي كان منّا منافسةً في سُلْطانٍ، ولا الْتِماسَ شيءٍ من فُضول الحُطامِ، ولكنْ لِنَرِدَ المعالمَ من دينِك، ونُظْهِرَ الإصلاحَ في بلادِك، فيأمَنَ المَظلومونَ من عبادِك، وتُقامَ المعطّلةُ من حدودِك»[٢].

وهكذا يتبين هدف الإمام من تشكيل فرق الجهاد والجيش هو حماية العباد في دينهم، وإنقاذ البلاد من الظالمين والمعتدين، وذلك لأن التكاسل والتباطؤ في أداء فريضة الجهاد يعني سقوط الأمة في هاوية الذل والمهانة تحت سلطة شرار الأمة وطغاتها. وحينها يتعرض

---

(١) باب الخطب، رقم ١٦٧.

(٢) باب الخطب، رقم ١٣١.

الصالحون والأتقياء من الناس إلى المطاردة والقتل والإهانة، وكذلك ثروات البلاد تتعرض للاستغلال والنهب، وبالنتيجة سيعيث أهل الباطل في الأرض فساداً. فالعلاج الشرعي لهذه الحالة العصيبة بالجهاد الذي يمنح الأمة عزاً ومجداً وكرامة، بينما بترك الجهاد ستبتلى الأمة بحكام أشرار ظالمين يحكمون بالحديد والنار، فيملؤون الدنيا ناراً ودماءً ودمارا ودموعا.

الموقف المطلوب من الظالم والمظلوم:

يوصي الإمام عليه السلام ولديه الحسن والحسين ومما جاء فيها: «. . وقُولا بالحَقِّ، واعْمَلا للأجْرِ، وكونا للظّالم خَصْماً وللمظلوم عوناً. .»[1]. وهذا الدور بالغ الأهمية في توجيه العملية التغيرية، لأن مخاصمة الظالم لاسترداد حق المظلوم منه يعدّ قمّةً في تثبيت العدالة الاجتماعية، وقيادة عملية الإصلاح في الأمة. ثم يوسّع نداءه في الوصية ذاتها إلى دوائر اجتماعية أوسع لتتحمل الأمة تلك المسؤولية التي تضمن التغيير والإصلاح، فيقول: «أوصيكُما، وجميعَ ولَدي وأهْلي ومن بلَغَه كتابي، بتقوى اللهِ، ونَظْمِ أمْرِكم، وصلاحِ ذاتِ بينِكم، فإنّي سمعتُ جدّكُما - صلى الله عليه وآله - يقول: «صلاحُ ذاتِ البَيْنِ أفضلُ من عامّةِ الصّلاةِ والصِّيامِ».

اللهَ الله في الأيتامِ، فلا تُغِبُّوا أفواهَهم، ولا يَضيعوا بحضرتِكم، واللهَ اللهَ في جيرانِكم، فإنّهم وصية نبيِّكم. . وعليكم بالتواصُلِ والتَّباذُلِ، وإيّاكمْ والتَّدابُرَ والتَّقاطُعَ»[2].

---

(١) باب الرسائل، رقم ٤٧.

(٢) باب الرسائل، رقم ٤٧. أغبّ القوم: جاءهم يوماً وترك يوماً، أي صلوا أفواههم =

وإذا استوجب إنقاذ الناس من الضلالة والظلم على خوض ميادين الجهاد والقتال فليكن ذلك بهدف الإصلاح، يقول الإمام: «. . فأينَ يُتاهُ بكم! ومن أيْن أتيْتُم! اسْتَعِدّوا للمسيرِ إلى قومٍ حيارَى عن الحقِّ لا يُبصرونَه، ومُوزَعِين بالجوْر لا يَعدلونَ به، جُفاةٍ عن الكتاب، نُكُبٍ عن الطَّريق. .»[1]. بل كان يدعو إلى غزو الأعداء واجتثاث الفتنة قبل استفحال أمرهم واعتدائهم على المؤمنين، وبتلك المبادرة الجهادية ستدفع الأمة أسباب الذل والهزيمة عنها.

= بالإطعام ولا تقطعوه عنها. التباذل: مداولة البذل: أي العطاء. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٦٨١-٦٨٢. والحديث الشريف تجده عند الشيخ الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي ج٧،ص٥١ باب (صدقات النبي ﷺ وفاطمة والأئمة عليهم السلام ووصاياهم)، رقم ٦ (الوصية الأخرى للإمام علي. وكذلك في (من لا يحضره الفقيه). ج٤ص١٩٠ عن علي في وصيته لولده الحسن.

(١) باب الخطب، رقم ١٢٥. موزعين: من (أوزعه): أي أغراه. لا يعدلون به: أي لا يستبدلونه بالعدل. نُكُب: جمع ناكب: الحائد عن الطريق. عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٦.

المبحث الثاني

بناء الدولة الإسلامية القوية

نتناول هذا المبحث في ثلاثة مطالب وهي:

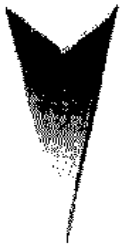

- ✯ المطلب الأول : الحاكم والأجهزة الإدارية ✯
- ✯ المطلب الثاني : الجانب الاقتصادي والقضائي في الدولة ✯
- ✯ المطلب الثالث : استمرارية الإعداد التربوي لأغراض الدعوة والمقاومة والجهاد ✯

بناء الدولة الإسلامية القوية

• نظرة عامة:

إن من الضرورات الحياتية إقامة مؤسسة لها صفة قانونية وشرعية تشرف على الأمة وتنظم نشاطاتها وتوحّد جهودها، وتفصل المنازعات إن وقعت. وتقيم العدالة. وتحدد الحق من الباطل وتقتص من الظالم وتعيد الحق للمظلوم، وفي حالة عدم وجود مثل هذه المؤسسة الحاكمة، تضطرب الحياة ويُفتقد الأمن وتسود الفوضى.

من هنا نلاحظ في نهج البلاغة تأكيدات كثيرة على ضرورة إقامة الدولة وأهمية وجودها. وهذه التأكيدات إن دلّت على شيء فإنها تدل على أن الإسلام هو دين الحياة ودستورها الشامل لكل أبعادها. وقد صرّح الإمام عليه السلام بضرورة الدولة والحاكم بقوله: «..وإنّه لا بدَّ للناس من أميرٍ بَرٍّ كان أو فاجر..»[1]. ففي نظر الإمام وجود الحاكم ضرورة حياتية، وفي حالة عدم وجود الحاكم العادل الصالح فستكون الحكومة بيد الفاجر وإلّا ستعمّ الفوضى.

---

(١) باب الخطب، رقم ٤٠.

فالمقصود من بناء الدولة القوية، أن تكون مقتدرة على إقامة الحق والعدل، وأن تمتلك إمكانية قيادة الأمة في العمليات التغييرية والإصلاحية نحو الأفضل، وفي الوقت ذاته أن تحافظ على الثوابت المبدئية أي أساسيات الإسلام، لتبقى متفاعلة ومعطاءة مع الزمن بأبعاده الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل، فتأخذ الدروس والعبر من التاريخ، وتقوّم الحاضر بالتطبيقات المناسبة، لتمنح المستقبل خبرات ورؤى باستمرار، فتظهر حلقات الحياة متكاملة، سواء كانت على المستوى الفردي أو الجمعي. فقد كانت سياسة أمير المؤمنين ترتكز على «تكوين الإنسان المسلم المتكامل القوي السعيد، والمجتمع المسلم المتكامل القوي السعيد. الإنسان والمجتمع المؤهلين ليكونا قوة خيِّرة في العالم يمثلان طموح الإنسانية الدائم المتوهج نحو مثلٍ أعلى»[١].

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: حركة التاريخ عند الإمام علي، ص ١٤٢.

المطلب الأول

الحاكم والأجهزة الإدارية

نتناول أهم مقومات البناء والاستمرار للدولة القوية ضمن ثلاثة محاور، هي:

١• معرفة أهم خصائص الحاكم الإسلامي.

٢• التنظيم المتماسك للأجهزة الإدارية.

٣• الإصلاح والتفتيش الإداري.

• معرفة أهم خصائص الحاكم الإسلامي:

إن الدولة الإسلامية التي تتبع الشريعة بوعي ونضوج في ظل إمام عادل تكون قوية داخلياً وخارجياً. حيث إن الأحكام العامة تؤخذ من ثوابت الشريعة الإسلامية وفي حالة ظهور مستجدات موضع ابتلاء المسلمين في المعاملات أو قضايا التحرك والجهاد والقتال، فتعود الأمور إلى الإمام الحاكم الذي يشخّص موارد المصلحة الإسلامية العامة. وبذلك تنتهي أزمة التفسير بالرأي، وعندها تضبط قرارات الدولة. يقول الدكتور محمد طي: «كان الإمام علي يحكم بما أنزل الله، وكان يوصي عمّاله بالحكم بذلك، فكان يرى أن الحاكم مقيّد

بعدد من القيود الشرعية التي لا يمكنه التنكر لها مهما كانت الظروف، وقد تعرض فعلاً لحالات من الضيق والشدة، بل إن فترة حكمه كلها كانت ظرفاً استثنائياً بمفهوم اليوم، وهي تبرّر بشرائع اليوم اللجوء إلى صلاحيات (ديكتاتورية). ولكن الإمام بقي محافظاً على التعاليم الإلهية، فلم يحدّث نفسه بخرقها»[١]. في ذلك يقول الإمام: «أيها الناس، إن الوفاء توأمُ الصدق، . . قد يرى الحُوَّلُ القُلّبُ وجهَ الحيلةِ ودونَها مانع من أمرِ اللهِ ونهيهِ، فيدَعُها رأيَ عينٍ بعد القُدْرةِ عليها، ويَنتهز فرصتَها من لا حريجةَ له في الدينِ»[٢]. يقول البحراني في شرحه «واعلم أن الوفاء ملكة نفسانية تنشأ من لزوم العهد كما ينبغي، والبقاء عليه، والصدق ملكة تحصل من لزوم الأقوال المطابقة، وهما فضيلتان داخلتان تحت فضيلة العفّة متلازمتان. . ثم لما كانت فضيلة الوفاء مقابلة برذيلة الغدر، وفضيلة الصدق مقابلة برذيلة الكذب أيضاً توأمين تحت رذيلة الفجور المقابلة لفضيلة العفّة»[٣]. فبالرغم من كونه يرى ببصيرة واضحة وجه الحيلة، وإمكانية التحصيل والغلبة جرّاء اللعب السياسية، إلّا أنه يمتنع عن ارتكاب تلك الآثام لنهي الله سبحانه، بينما يعتبرها فرصة لطموحاته من لا وازع ديني له.

---

(١) طي، د. محمد: الإمام علي عليه السلام ومشكلة نظام الحكم، ص ١١٠-١١١.

(٢) باب الخطب، رقم ٤١. التوأم: الذي يولد مع الآخر في حمل واحد. الحوّل القلب - بضم الأول وتشديد الثاني من اللفظين هو: البصير بتحوّل الأمور وتقلبها. الحريجة: التحرّج والتحرز من الآثام. الصالح، د. صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٥٨٠، رقم ٤٧٨، ٤٨٣، ٤٨٢.

(٣) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص١٠٥، دار الثقلين.

فإذاً من أبرز صفات الحاكم القائد، الإيمان والاستقامة والبعد عن أساليب المكر والحيلة التي تبررها السلطة السياسة المحكومة بحبّ الدنيا. فعلى الحاكم الإسلامي أن يكون عالماً بدينه عاملاً للإصلاح، ملتزماً بقيم الأخلاق كالتواضع والحلم والكرم والصدق وعدم العجب والتكبر والاستغلال. لذلك يقول الإمام: «أيُّها النّاسُ إنَّ أحقَّ النّاسِ بهذا الأمرِ أقواهُمْ عليهِ، وأعلَمُهُمْ بأمرِ الله فيه»[١]. وفي عهده للأشتر مجموعة وصايا أخلاقية تخص الحاكم والوالي منها في قوله عليه السلام: «..وأشْعِرْ قلبك الرحمة للرعيّةِ، والمحبَّةَ لهم، واللُّطْفَ بِهِمْ.. ولا تَنقُضْ سُنةً صالحةً عمل بها صُدورُ هذه الأمة، واجتمعتْ بها الألفةُ، وصَلَحت عليها الرعيَّةُ.. وإيّاكَ والإعجابَ بنفسِك والثِّقةَ بما يُعجِبُك منها، وحُبَّ الإطْراءِ، فإنّ ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمَحقَ ما يكون من إحسان المحسنين، وإيّاكَ والمنَّ على رعيتِك بإحسانِك أو التزيُّدَ فيما كان من فعلك، أو أن تعِدَهم فتُتبع موعدَك بخُلفِك، فإنَّ المَنّ يُبطلُ الإحسانَ، والتزيُّد يَذهبُ بنور الحقِّ والخُلْفَ يوجبُ المقتَ عند الله والناس..»[٢]. بهذه الصفات يجمل الإمام خصائص الحاكم المسؤول عن رعيّته، منها ما يختص بالجانب الأخلاقي لتتبين عظمة سماحة الإسلام وعفوه من خلال سلوكه، وذلك بالتعاطف القلبي مع الرعية، والتواضع مع ضعاف الناس، وعدم إتباع الإحسان إليهم بالمنّ، والوفاء بالوعود. إلّا أن الصفة التي تستوقف اهتمام المتلقي ضمن

(١) باب الخطب، رقم ١٧٣.

(٢) باب الرسائل، رقم ٥٣.

هذه الشذرات التي اقتطعناها من عهده للأشتر، هي قوله: «وإياك والإعجاب بنفسك.. وحبّ الإطراء..»، وبالفعل نلاحظ هذه الصفة مستفحلة أحياناً في نفوس بعض المتصدين للحكم والإدارة، وفي تقديري إنها من أخطر الصفات التي تفتح منافذ للشيطان كي يخترق قلوب المتصدّين، فيمزق قيم الإيمان ويطفئ نور الإحسان - لا سَمحَ الله - وهي موضع الابتلاء الحقيقي. «ولما كان مبدأ الاعجاب هو الشيطان كان الماحق لإحسان المحسن أيضاً هو الشيطان فلذلك نسبه إليه»[١].

الحاكم الإسلامي أمين مكلف، وليس مالكاً يتصرف وفق أهوائه:

لأن الحكومة الإسلامية تسعى جاهدة لتحقيق مطالب الرعية وتوفير حقوقهم وأمنهم وعيشهم السعيد. وقراءة تحليلية لعهده للأشتر نلاحظ إن الإمام عليه السلام قد (وضع الأسس المتينة لإنشاء جهاز حكم يعمل للشعب، وللشعب فقط، غير ملقٍ بالاً إلى منافع طبقة خاصة تسعد على حساب الشعب وتنعم بجهوده)[٢]. وهذا العهد - في الحقيقة - يعدّ وثيقة تربوية تعنى بالشؤون الإدارية والسياسية والأخلاقية للحاكم الإسلامي، ففي هذا العهد يدعو الإمام إلى المصالحة الفعلية بين مبادئ الحاكم وما تحمله نفسه من غرائز وشهوات على أسس الإيمان والتقوى، وإلى المشاركة الوجدانية بين الراعي والرعية ليؤدي تكليفه الشرعي الملقى على عاتقه، لا أن يحوّل سلطته إلى

(١) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٧٣، دار الثقلين.

(٢) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ص ١٣٠.

ملك شخصي يتصرف به كيفما يشاء، حيث «.. كان الحكّام يعتبرون أنفسهم قديماً مالكين للبشر كأنهم يتصرفون على أنهم المالكون لثروات رعاياهم أيضاً..»[١]. بينما الحاكم في الإسلام منصبه تكليفي لا تشريفي، وعليه مسؤولية الأمانة في حفظ النظام والأمن وإن دماء الأمة وأموالها وأعراضها وسائر حقوقها أمانة في عنقه لذلك يقول الإمام عليه السلام: «..وَلا تكونَنَّ عليهِمْ سُبعاً ضارياً تغتنم أكلَهُمْ. فإنّهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدِّينِ أو نظيرٌ لكَ في الخَلْقِ.. أنْصفِ اللهَ وأنْصفِ النّاسَ من نفسك، ومن خاصَّةِ أهلك.. إيّاكَ والدِّماءَ وسفكَها بغيرِ حِلِّها، فإنّهُ ليس شيءٌ أدنى لنقْمةٍ ولا أعظمَ لتَبِعةٍ، ولا أحرى بزوال نعمةٍ وانْقطاع مدّةٍ من سفك الدماءِ بغيرِ حقِّها.. فلا تُقَوِّيَنَّ سلطانك بسفكِ دم حرام، فإنَّ ذلك ممّا يضعِفُه ويوهنُهُ، بل يُزيلُهُ ويَنقلُهُ، ولا عذرَ لكَ عندَ الله ولا عندي في قتْلِ العَمْدِ، لأنّ فيه قَوَدَ البدنِ، وإنِ ابْتُليت بخطإٍ وأفْرَطَ عليك سوْطُك أو سيفُك أو يدُك بالعُقوبةِ فإنّ في الوَكْزة فما فوقَها مقتلةً، فلا تَطمحنَّ بك نخوةُ سُلطانِك عن أنْ تؤدِّي إلى أولياءِ المقتولِ حقَّهُمْ»[٢]. فحذر الإمام من التصرف بالدماء عبثاً، لتقوية السلطان، لأن «الحق يملك سلاحاً لا تراه العيون»[٣]. يقتصّ به من الحاكم الجائر.

---

(١) طي، د. محمد: الإمام علي ومشكلة نظام الحكم، ص ١١٤.

(٢) باب الخطب، رقم ٥٣. القَوَد -بالتحريك-: القصاص. أفرط عليك سوطك: عجّل بما لم تكن تريده، أردت تأديباً فأعقب قتلاً. تطمحن بك: ترتفعن بك. الوكزة - بفتح فسكون -: الضربة بجُمع الكف - بضم الجيم -: أي قبضته، وهي المعروفة باللكمة. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٧١٣.

(٣) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص١١٧.

إن الالتزام بمبدأ الأمانة والتكليف الشرعي من قبل الحاكم يجعل الدولة قوية متماسكة، الجميع يدافعون عنها، مما يصعب اختراق جدرانها للعبث فيها، والحاكم فيها هو الحارس الأمين على مصالح الأمة وأسرار القيادة ووحدة الأهداف في المصير المشترك. يقول الإمام في إحدى حكمه: «فرضَ اللهُ.. والأمانةَ نظاماً للأمة، والطاعة تعظيماً للإمامة»(١).

الانفتاح مع الرعية والتعاون معهم والإحسان إليهم:

من خصائص الحاكم الإسلامي أن ينفتح على عموم الناس بمختلف طبقاتهم وطلباتهم، ليستمع إليهم ويقبل المشورة منهم ويخالطهم في آلامهم وآمالهم بالتعاون والإحسان والتواضع، وعليه ألّا يضع حواجز بشرية وموانع عازلة بينه وبين رعيته، لأن هذه الظاهرة تخلق بطانة وحاشية قد تستثمر موقعها في استغلال الناس. لذلك يقول الإمام عليه السلام: «..وأعْظَمُ ما افْتَرَضَ -سبحانه- من تلك الحقوق حقُّ الوالي على الرَّعِيَّةِ، وحقُّ الرَّعيَّةِ على الوالي، فريضةٌ فرضَها الله - سبحانه - لكلٍّ على كلٍّ، فجعلَها نظاماً لألْفتهم، وعِزّاً لدينِهم، فليستْ تَصلُحُ الرَّعِيَّةُ إلّا بصلاح الوُلاةِ، ولا تَصلُحُ الولاة إلّا باسْتقامةِ الرَّعيَّةِ..»(٢).

وفي عهده للأشتر يقول: «..فلا تُطَوِّلَنَّ احْتِجابَكَ عن رعيَّتك، فإن احْتجابَ الوُلاةِ عن الرعيَّةِ شُعْبَةٌ من الضِّيقِ، وقِلَّةُ علْمٍ بالأمور، والاحْتجابُ منهم يقطعُ عنهم علم ما احْتَجَبوا دونَه فيَصْغُرُ عندهُمُ

(١) باب الحكم، رقم ٢٥٢.

(٢) باب الخطب، رقم ٢١٦.

الكبيرُ، ويَعْظُمُ الصَّغيرُ، ويَقبُحُ الحَسَنُ، ويَحْسُنُ القبيحُ، ويُشابُ الحقُّ بالباطلِ... ثم إنَّ للوالي خاصَّةً وبِطانةً، فيهم اسْتِئْثارٌ وتطاوُلٌ، وقلَّةُ إنصافٍ في معاملة، فاحْسِمْ مادةَ أولئِكَ بقطع أسْبابِ تلكَ الأحوالِ..»[1]. وفي هذه الجملة الأخيرة تشخيص للحالة السلبية التي تسببها الحواشي أحياناً للحاكم وللمتصدّي المسؤول، لذلك قال: «فاحْسِم». أي «أي اقطع مادة شرورهم عن الناس بقطع أسباب تعديهم، وإنما يكون بالأخذ على أيديهم ومنعهم من التصرف في شؤون العامة»[2]. فالوالي والحاكم، هو لجميع الناس، وعليه أن يكون على مسافة واحدة منهم، من دون أن يتأثر بالحواشي سلباً.

● **التنظيم المتماسك للأجهزة الإدارية:**

حثّ الإمام عليه السلام على وضع النظم الإدارية لرعاية شؤون المجتمع، وعلى الحاكم الأعلى في الدولة أو الوالي في ولايته أو المدير في دائرته أن يمارس فن قيادة الناس في ظل التنظيم الإداري الساعي لتجميع الطاقات الخيرة في الأمة وتوجيهها باتجاه البناء المتماسك. فقد قال عليه السلام في وصيته لولديه الإمامين الحسن والحسين ولجميع المؤمنين: «.. أوصيكُما، وجميعَ ولَدي وأهلي ومن بلغَه كتابي، بتقوى اللهِ، ونَظْمِ أمرِكم، وصلاحِ ذاتِ بينكم..»[3].

فجعل نظم الأمر بعد وصيته بالتقوى، اهتماماً منه لإقامة نظام

---

(١) باب الرسائل، رقم ٥٣.

(٢) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١٠٤.

(٣) باب الرسائل، رقم ٤٧.

إداري متماسك لخدمة شؤون الأمة، متمثلاً في دولة قوية. والإمام القائد يسدّد مسيرة الحاكم والوالي لتبقى الأمة موحدة مجتمعة في ظل دولة الإسلام، لذلك حينما استشاره الخليفة عمر بن الخطاب في خروجه لقتال الفرس قال له: «إنَّ هذا الأمرَ لم يكنْ نَصْرُهُ ولا خِذلانُهُ بكثرةٍ ولا بقلّةٍ، وهو دينُ الله الذي أظهرَه، وجُنْدُهُ الذي أعدَّه وأمدَّه.. ومكانُ القيِّمِ بالأمرِ مكانُ النِّظامِ منَ الخَرَز يجمعُهُ ويضمُّهُ: فإنِ انْقطعَ النِّظامُ تفرَّقَ الخَرَزُ وذهبَ، ثم لَمْ يجتمعْ بحذافيرِهِ أبداً.. فكنْ قُطْباً واسْتَدِرِ الرَّحَا بالعربِ، وأصْلِهِمْ دونَك نارَ الحربِ، فإنَّك إنْ شَخصْتَ من هذه الأرضِ انْتقضَتْ عليك العَرَبُ من أطرافِها وأقطارِها، حتى يكونَ ما تَدَعُ وراءَك من العَوْراتِ أهمَّ إليكَ ممّا بين يديْك..»[١].

فبدون النظام الإداري والمحافظة على رأس النظام خصوصاً في ظروف استثنائية ستفرط الأمة ويطمع بها العدو. فهو بمنزلة السلك الذي يجمع الخرز كحبّات المسبحة، وانقطاعه سيؤدي إلى التشتت، «ثم لم يجتمع بحذافيره»، «أي بأصله»[٢].

ونلاحظ الكثير من وصايا الإمام في ترسيخ النظام الإداري وتماسكه ووضوح رؤيته في الحقوق والواجبات المتبادلة مع الأمة، وشروط الاختيار لهذه المواقع الإدارية، مما حمّل نظامه الإداري مقومات الثبات والنجاح في الإدارة الداخلية والمواجهة ضد أعداء الأمة في الداخل والخارج. يقول الدكتور محسن الموسوي: «فقد

---

(١) باب الخطب، رقم ١٤٦.

(٢) التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٣٤٠.

أرسى أمير المؤمنين عليه السلام أقوى نظام إداري تمكن أن يسيطر على شؤون البلاد الإسلامية التي كانت مترامية الأطراف وكانت تموج بالاضطرابات والقلاقل، فعلى رغم هذه الظروف استطاع النظام الإداري أن يفرض الأمن والنظام على طول البلاد وعرضها»[١].

وقد بيّن آلية ارتباط متينة بين الدوائر تحكمها مبادئ الإيمان والعمل الجمعي وخدمة المواطنين. فالنظام الإداري يشتد انسجاماً على ضوء تلك الأسس والقيم فتظهر الدولة في عزتها وقوتها، وبذلك تسودها علاقة التعاون والمحبة والنصيحة والوفاء، ونبذ الاستغلال والفساد الإداري بالرشاوى والمحسوبيات والجشع.

إن الإمام الخليفة الحاكم هو رأس النظام، وهنالك الوزراء والولاة على الأمصار والكتّاب وصاحب الشرطة وأمراء الجيش، ولكلّ موقع شروطه، ولكلّ شخص أوصافه التي تؤهله لاستلام ذلك الموقع، على المستوى الشرعي والأخلاقي والتاريخ الشخصي له، وفوق ذلك كله تجري عليه الاختبارات في وظيفته، وكذلك المتابعة والمراقبة والمحاسبة المستمرة. وقد ضمّن الإمام عليه السلام عهده للأشتر كثير من أوصاف رجل الدولة وطريقة محاسبته وتقويمه، يقول السيد عبد المحسن فضل الله: «إنه عهد - وان بعد زمانه- قد استبق الزمن في تخطيطه وشمولية تقنينه، إذ لم يدع جانباً بما يلزم أن يتلبس به رجل الدولة لإصلاحها وضمان استمرار بقائها، إلّا خط له ما يعتمده ويهتدي به جهابذة مقنني القرن العشرين»[٢]. فقد دعا الإمام إلى

---

(١) الموسوي، د. محسن باقر: الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي عليه السلام، ص ٤٩.

(٢) فضل الله، السيد عبد المحسن: نظرية الحكم والإدارة في عهد الإمام علي عليه السلام للأشتر ص ١٦.

الوضوح في معرفة الحقوق والواجبات المتبادلة بين الراعي والرعية. كما وشدّد على حماية الفرد والمجتمع من رجال السلطة، ونادى بالوسطية والاعتدال في التعامل السياسي والإداري بين الشدة واللين.

ولقد أشرنا في المبحث الثاني من الفصل الأول، في مطلب علم الإدارة، إلى مجمل هذه الأوصاف، وذلك حينما ذكرنا أقوالاً من عهده عليه السلام للأشتر، وما يمكن التأكيد عليه -هنا- هو موضوع الهيئات الشوريّة من العلماء والحكماء والفضلاء، وبالفعل إنه أمر في غاية الأهمية في نظام الشورى، وباتباعه يضمن الحاكم انسجامه مع الأمة وحاجياتها وأزماتها، بل سيجمع عقول الواعين وآرائهم إلى عقله ورأيه، وهذا يعني تماسك الجهزة الإداريّة في ظل الوعي والتدبير الصالح، يقول الإمام: «. . وأكْثِرْ مُدارسةَ العلماءِ ومناقشةَ الحكماءِ، في تثبيتِ ما صَلَحَ عليه أمرُ بلادِك، وإقامةِ ما اسْتقامَ به الناسُ قبلَك. واعْلَمْ أن الرعيةَ طبقاتٌ لا يصلُحُ بعضُها إلّا ببعض، ولا غنَى ببعضها عن بعضٍ. .»[1]. وهكذا يؤكد الإمام على أجواء الاستشارات والمناقشات التي يجريها الحاكم مع العلماء والحكماء بهدف إصلاح أمور البلاد والعباد، لكي لا يبقى معزولاً عن الحياة وتطوراتها. ثم يصنف الأمة إلى طبقات على أساس توزيع الأدوار والوظائف والأعمال فقط، وهي أدوار تكاملية لتسيير شؤون الحياة. وبالفعل «لا تستقيم الحياة. . إلّا مع الترابط والتعاون على هدف واحد، ومصلحة مشتركة بين جميع الأفراد والفئات بحيث يتكون صرح المجتمع من تعاون الجميع. . وبدون هذا التعاون والتماسك تسود الفوضى

(١) باب الرسائل، رقم ٥٣.

ويتصدع البناء»[١]. على المستوى الإداري الرسمي، وكذلك على مستوى المهني العام.

● **الإصلاح والتفتيش الإداري:**

ومع كل شروط الاختيار في التعيين والاختبار أثناء الأداء، يؤكد الإمام على مسألة التفتيش لقطع دابر محاولات الإساءة والانحراف. فقد «أقام الإمام علي -عليه السلام- نظاماً إدارياً محكماً، حدّد فيه الوظائف وأوضح طرق تعيين الموظفين، وبيّن واجباتهم وحقوقهم، وأقام عليهم تفتيشاً دقيقاً، ووضع أسس الثواب والعقاب، والمسؤولية الإدارية بشكلٍ عام»[٢]. ولذلك يقول الإمام لواليه الأشتر: «ثمَّ تفقّدْ من أمورِهم ما يتفقَّدُ الوالدانِ من ولدهما، ولا يتفاقَمَنّ في نفسِك شيءٌ قوّيْتَهم به، ولا تَحْقِرنّ لُطْفاً تعاهدْتَهم به وإنْ قلَّ، فإنَّهُ داعيةٌ لهم إلى بَذْل النصيحة لك، وحُسن الظَّنِّ بك. ولا تَدَعْ تفقُّدَ لطيفِ أمورِهِمُ اتّكالاً على جسيمها، فإنّ لليسير من لُطفك موضعاً ينتفعون به، وللجَسيم موقعاً لا يَستغنون عنه.. وإنَّ أفضلَ قُرَّة عين الوُلاةِ اسْتقامةُ العدْلِ في البلاد، وظهورُ مودَّةِ الرعيَّةِ، وإنّه لا تظهرُ مودَّتُهم إلّا بسلامة صدورِهم، ولا تَصِحُّ نصيحتُهم إلّا بحيطتِهم على وُلاةِ الأمور.. ثم انْظُرْ في أمور عمّالك فاسْتعملهم اخْتباراً ولا تولِّهم محاباةً وأثَرةً، فإنّهما جِمّاع من شُعَب الجَوْر والخيانةِ، وتَوخَّ منهم أهلَ التجربة والحياء. من أهل البيوتاتِ الصالحةِ، والقَدَم في الإسلام المتقدِّمة.. ثم أسْبغْ عليهم الأرزاقَ، فإنَّ ذلك قوّةٌ لهم على

(١) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص٦٣.

(٢) د. طي، محمد: الإمام علي ومشكلة نظام الحكم، ص ١٧١.

اسْتصلاح أنفسهم، وغنىً لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحُجّةٌ عليهم إن خالفوا أمرَك أو ثَلَموا أمانتك، ثم تفقَّدْ أعمالهم.. وتفقّد أمر الخراج بما يُصلح أهله، فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلّا بهم، لأن الناس كلّهم عيالٌ على الخراج..»[١].

إن العملية الإصلاحية للإدارة في منهج الإمام ترتكز على شروط الاختيار منذ البداية لمن تتوافر فيهم صفات الإنسان المؤمن الحريص النزيه الجدير بالمسؤولية. وأن لا تكون التعيينات استجابة لمسائل القرابة والصداقة وإنما البحث عن الأكفّاء المخلصين والمجرّبين.وترتكز - أيضاً - على تطبيق مبدأ اللامركزية الإدارية وذلك بتفويض السلطات في العاصمة والمناطق، وقد لاحظنا الصلاحيات الواسعة التي أعطاها الإمام لواليه الأشتر، وكذلك في تطبيق مبدأ المشاركة في اتخاذ القرارات، واشترط على أعضاء مجلس الشورى شروط الكرم والشجاعة والعلم. ثم توفير الأمن الوظيفي ليشعر بالاكتفاء المادي. ثم رفع معنويات الإداريين والعاملين حسب نشاطاتهم[٢]. كما وإن نظام التفتيش الإداري

---

(١) باب الرسائل، رقم ٥٣. تفاقم الأمر: عظم: أي لا تعدّ شيئاً قويتهم به غاية في العظم زائداً عما يستحقون، فكل شيء قويتهم به واجب عليك إتيانه، وهم مستحقون لنيله. لا تحقرن لطفا: كل تلطف منك - وإن قل - فله موقعه في قلوبهم. استعملهم اختباراً: ولّهم الأعمال بالامتحان. محاباة: أي اختصاصاً وميلاً منك لمعاونتهم. أثَرَة - بالتحريك- أي استبداداً بلا مشورة. تورّخ: أي اطلب وتحرّ أهل التجربة. أسبغ عليه الرزق: أكلمه وأوسع عليه. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٦٩٧ وما بعدها.

(٢) راجع الموسوي، د. محسن باقر: الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي عليه السلام، ص ٢٧٠-٢٧٩.

السّري، سيكرّس أخلاقيات الأمانة، مما يجعل الأجهزة الإدارية مستقيمة ومتماسكة لخدمة الناس.

عزل الولاة غير الكفوئين وتولية غيرهم:

والمحاسبة تبلغ ذروتها حينما يطفح الكيل فليس من حسن الإدارة ونجاح الدولة إلّا بعزل غير الكفوئين. لذلك نلاحظ أحياناً نوعاً من المحاسبة الشديدة من الإمام لبعض عماله، فمثلاً كتب لبعضهم قائلاً: «أما بعدُ، فقد بلَغَني عنك أمرٌ، إنْ كنتَ فعلته فقدْ أسخطْتَ ربَّك، وعصيْتَ إمامَك، وأخزيْتَ أمانتك..»[(١)]. وكتب إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني وهو عامله على أردشير خُرّة: «بلغني عنكَ أمرٌ إنْ كنتَ فعلتَه فقد أسخطْتَ إلهك، وعصيْتَ إمامَك..»[(٢)]. وإن قضية الرقابة الإدارية عند الإمام عليه السلام تبدأ بالنفس لذا يقول: «رحم الله امْرأً.. راقبَ ربَّه، وخافَ ذنبَه، قدَّم خالِصاً وعمل صالحاً..»[(٣)].

---

(١) باب الرسائل، رقم ٤٠. أخزيت أمانتك خَزية - بالفتح-: أي وقعت في بليّة وشرٌ، وافتضحت ذليلاً مهاناً. أنيس، د.إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، مج١، باب الخاء، ص٢٣٣.

(٢) باب الرسائل، رقم ٤٣. أردشير خُرّة - بضم الخاء وتشديد الراء- لفظة فارسية مركبة من أردشير وهو اسم ملك فارسي، وخُرّه ومعناه بهاء. وأردشير خُرّه هي كورة أي إقليم من أجلّ أقاليم بلاد فارس. ممتد أكثرها على البحر، وهي شديدة الحر، كثيرة الثمار، فتحت سنة ٢٣ هجرية على يد مجاشع بن مسعود السلمي، قصدها من البصرة فيمن قصد من بلاد العجم، فقاتلهم وفتح البلاد وأخذ الجزية وأرسل الأخماس إلى الخليفة عمر، وفي ولاية الإمام علي كان العامل عليها مصقلة بن هبيرة الشيباني. البستاني، المعلم بطرس: دائرة المعارف، ج٣، ص٣٣.

(٣) باب الخطب، رقم ٧٦.

إن مشروعية استخدام العيون الخاصة، على أن يكونوا في موضع الثقة والإخلاص، نابعة من الغاية المرجوّة في إصلاح الأمور وضبط الشؤون الإدارية وعدم إفساح المجال للشيطان ولدواعي التحلل والفساد بالدخول في جسم الدولة.

وأمّا في حالة عدم إمكانية إصلاح غير الكفوئين سواء كانوا من العهد الماضي أم الحاضر، فلا بد من عزلهم، وتولية الكفوئين محلهم لذلك قال عليه السلام لمعاوية: «. . فإنّك مترفٌ، قد أخذَ الشيطان منك مأخذه، وبلغَ فيك أملَه، وجرى منك مجرَى الرّوح والدّم. ومتى كنتمْ يا معاويةُ ساسةَ الرعية، ووُلاةَ أمرِ الأمّة؟ بغيْر قَدَم سابقٍ، ولا شرفٍ باسقٍ. .»[1]. في هذا المقطع من الرسالة يكشف الإمام النقاب عن شخصية معاوية بقوله: «فإنك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه». «والمترف الذي قد أترفته النعمة، أي أطغته. . . ويروى «مآخذه» بالجمع، أي تناول الشيطان منك لُبَّك وعقلك. . ثم خرج عليه السلام إلى أمر آخر، فقال لمعاوية: «ومتى كنتم ساسة الرعية، وولاة أمر الأمّة». ينبغي أن يحمل هذا الكلام على نفي كونهم ساسة وولاة في الإسلام، وإلّا ففي الجاهلية لا ينكر رياسة بني عبد شمس. ولست أقول برياستهم على بني هاشم. . وقوله عليه السلام: «بغير قدم سابق». . أي سابقة وأثَرة حسَنة: قوله عليه السلام: «ولا شرف باسق»: أي عالٍ»[2].

إن كلام الإمام بحق معاوية دليل على بلوغه حدّاً لا يطاق من

---

(١) باب الرسائل، رقم ١٠.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٨، ج١٥، ص٥٨.

الإسراف والطغيان، وكأنما الإمام في جوابه هذا، يريد أن يتمّ الحجة عليه، وإلّا فهو يائس من إصلاحه -كما يبدو لي -، وذلك لمعرفته الدقيقة بأحواله وتوجهاته الفكرية والسياسية الخاصة، والتي هي لم تخرج عن أُطر المكر والغدر والخداع، وهذا ما يسميه البعض بالدهاء السياسي. يقول الإمام: «واللهِ ما معاوية بأدهى مني، ولكنّه يغدر ويفجُرُ. ولولا كراهيةُ الغدر لكنت من أدهى الناس»[١]. إلّا أن السؤال المهم الذي يدور في الأذهان هو: كيف نفسّر حبّ أهل الشام لمعاوية؟ بل كيف استطاع أن يقودهم وهم مطيعون له ومنفّذون لأوامره؟

والحقيقة أنّ أهل الشام لم يتعرفوا على الإسلام إلّا من خلال نافذة بني أمية، ولعل إبعادهم عن المركز منذ الخلافة الأولى، كان ضمن خطة مدروسة، وذلك لتشغيلهم بأنفسهم بعيداً عن العاصمة - مركز القرار-. فاشتغل معاوية - بالفعل- بما يخدم طموحاته المستقبلية له ولأسرته، «وفي خلال العشرين عاماً التي قضاها والياً على الشام، استطاع أن يكوّن منها دولة صغيرة ضمن نطاق الدولة (الإسلامية)، بعد أن ساعده كون بلاد الشام كثيرة الخيرات والأموال، وفي هذا ما يظهر نوايا معاوية بن أبي سفيان في العمل على الوصول إلى سدة الخلافة بعد أن هيأ لتحقيق ذلك مدة ولايته، كما فيه ما يلقي الأضواء على موقفه المتريث عن مسالة نصرة الخليفة الثالث»[٢]..وهكذا فإن واقع معاوية بخططه الوصولية، كان واضحاً ومكشوفاً عند الإمام من خلال تاريخه الطويل بالشام، وبالمقابل كان

---

(١) باب الخطب، رقم ٢٠٠.

(٢) الزين، د.حسن: الإمام علي وتجربة الحكم، ص٨٦-٨٧.

معروفاً لدى معاوية موقع الإمام وصلابته الإيمانية، وصرامته في تطبيق الحق، ألم يقل له في رسالة جوابية أخرى: «وأما طلبُك إليَّ الشّام، فإني لم أكن لأعطيَك ما منعتُك أمس»[١]. وبالفعل عمل كلٌّ واحد منهما مع أعوانه وأنصاره بما يحقق أهدافه بكل ما أوتي من قوة. فالإمام مضى إلى سبيله في عزل معاوية وأمثاله بلا تراجع، رافضاً كل النصائح والمشورات التي قدمت إليه لتثنيه عن قراره، وهكذا «عزل ولاة عثمان على الأمصار، هؤلاء الولاة الذين كانوا السبب المباشر في الثورة، لظلمهم وبغيهم وعدم درايتهم بالسياسة وأصول الحكم، وولّى من قبله رجالاً ذوي دين وعقل وبعد نظر وحسن تدبير»[٢]. وبالمقابل مضى معاوية في خططه التآمرية لمحاربة دولة الخلافة الإسلامية، وشخصية الإمام بالذات، لأن الإمام في نظر معاوية، هو العقبة الرئيسية أمام طموحاته الاستيلائية. وبالمحصّلة النهائية إن هذا الاتجاه الفكري والسياسي وما رافقه من أعمال ميدانية «يثبت [لمعاوية] نيته في المراوغة وتخطيطه للوصول إلى سدّة الخلافة مهما كلف الأمر، كما يثبت صحة موقف علي عليه السلام في الإصرار على عزله»[٣].

و-هنا - نتساءل، متى كان حبُّ عموم الناس لزعيمٍ معينٍ دليل على أحقيته ونزاهته؟ والحال أنّ كثيراً من الأنظمة العربية، والتي تدّعي الإسلام، نلاحظ من خلال وسائل إعلامها، مظاهر عجيبة من حبّ الناس وإطاعتهم لرؤسائهم، وذلك في الانتخابات

(١) باب الرسائل، رقم ١٧.

(٢) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ص٣٦٥.

(٣) الزين، د. حسن: الإمام علي وتجربة الحكم، ص٨٨.

والاستفتاءات، بل إلى درجة زجّهم في معارك كبيرة ليكونوا حطباً لتلك المحارق! ولكن سرعان ما ينكشف الزيف وتتساقط أقنعة الخوف والطمع عن الناس، عند طلوع الفجر وشروق الشمس.

المطلب الثاني

الجانب الاقتصادي والقضائي في الدولة

نتناول هذا المطلب في محوريْن:

١• وضع الجانب الاقتصادي للدولة.

٢• نزاهة القضاء ومبدئيته.

• **وضع الجانب الاقتصادي للدولة:**

الجانب الاقتصادي هو عصب الحياة المعاشية، وهو بالغ الأهمية وشديد الخطورة في بناء الدولة. وتستمد الدولة قوتها بمتانة الاقتصاد ووضوح الميزانية المالية تحصيلاً وإنفاقاً. والدولة الإسلامية في منهج الإمام علي هي التي تتحمل مسؤولية حماية الفرد والمجتمع استكمالاً لدور المجتمع من هذا الجانب. ومسؤولية الدولة تتمركز حول مسألة الضمان الاجتماعي، ومسألة مراقبة الأسعار. ففي الضمان الاجتماعي يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر: «فرض الإسلام على الدولة ضمان معيشة أفراد المجتمع الإسلامي ضماناً كاملاً، وهي عادة تقوم بهذه المهمة على مرحلتين. ففي المرحلة الأولى تهيئ الدولة للفرد وسائل العمل، وفرصة المساهمة الكريمة

في النشاط الاقتصادي المثمر، ليعيش على أساس عمله وجهده. فإذا كان الفرد عاجزاً عن العمل وكسب معيشته بنفسه كسباً كاملاً، أو كانت الدولة في ظرف استثنائي لا يمكنها منحه فرصة العمل، جاء دور المرحلة الثانية التي تمارس فيها الدولة تطبيق مبدأ التضامن، عن طريق تهيئة المال الكافي لسدّ حاجات الفرد، وتوفير حد خاص من المعيشة له، ومبدأ الضمان الاجتماعي هذا يرتكز.. على أساسين.. أحدهما: التكافل العام، والآخر: حق الجماعة في موارد الدولة العامة.. فالأساس الأول للضمان لا يقتضي أكثر من ضمان إشباع الحاجات الحياتية والملحة للفرد. بينما يزيد الأساس الثاني على ذلك ويفرض إشباعاً أوسع ومستوى أرفع في الحياة»[١].

يقول الإمام علي عليه السلام: «.. ثُمَّ اللهَ اللهَ في الطَّبقةِ السفلى من الذين لا حيلَة لهم من المساكينِ والمحتاجينَ وأهل البُؤْسَى والزَّمْنَى، فإنَّ في هذه الطبقةِ قانعاً ومُعْتَرّاً، واحْفَظْ للهِ ما اسْتحفظَك من حقِّه فيهم، واجْعَلْ لهم قِسْماً من بيت مالِك، وقِسْماً من غَلّات صَوَافي الإسلام في كلِّ بلدٍ.. وتعهَّدْ أهلَ اليُتْمِ وذوي الرِّقَّة في السِّنِّ ممَّنْ لا حيلةَ له، ولا يَنْصِبُ للمسألةِ نفسَه.. واجعل لذوي الحاجاتِ منك قِسْماً تفرِّغُ لهم فيه شخصَك..»[٢]. ففي هذا المقطع من كلامه تناول حقوق الطبقة الاجتماعية المبتلاة بالفقر والعاهات المزمنة، من «فقراء الرعيّة ومغموريها، فقال: «وأهل البُؤسى»، وهي البؤس كالنُّعمى للنعيم، والزَّمْنى أولو الزّمانه [أي] العاهة. والقانع: السائل،

(١) الصدر، السيد محمد باقر: اقتصادنا، ص ٦٥٩.

(٢) باب الرسائل، رقم ٥٣.

والمعتر: الذي يعرِض لك ولا يسألك، وهما من ألفاظ الكتاب العزيز، وهو قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[١] وأمره أن يعطيهم من بيت مال المسلمين لأنهم من الأصناف المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[٢]. وأن يعطيهم من غلّات صوافي الإسلام -وهي الأرضون التي لم يوجَف عليها بخيلٍ ولا ركاب - وكانت صافية لرسول الله ﷺ، فلما قُبض صارت لفقراء المسلمين، ولما يراه الإمام من مصالح الإسلام»[٣]. «ثم أمره أن يتعهد الأيتام وذوي الرّقّة في السِّن: أي الذين بلغوا من الشيخوخة إلى أن رقّ جلدهم وضعف حالهم عن النهوض فلا حيلة لهم، وممن لا ينصب نفسه للمسألة حياءً مع حاجته وفقره»[٤]. وطالبه بتفريغ وقتٍ وجهدٍ لأصحاب الحاجة ربما من الصمّ والبكم والعُمي الذين لا قدرة لهم كغيرهم عن التعبير الدقيق لحاجاتهم، «وقد كان لأمير المؤمنين عليه السلام بيتٌ سمّاه بيتَ القِصَص، ويُلقي الناس فيه رقاعهم»[٥]. بطريقتهم للدلالة على حاجتهم وفقرهم.

وعلى الدولة - أيضاً - مسؤولية مراقبة الأسعار، لحماية الناس من حالات الاستغلال والاحتكار، على أن تكون ضمن «الموازين

---

(١) الآية الكريمة من سورة الحج ٢٢/ ٣٦.

(٢) الآية المباركة من سورة الأنفال ٨/ ٤١.

(٣) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٩، ج١٧، ص٦٢-٦٣.

(٤) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٦١.

(٥) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: المرجع ذاته، ص٦٣.

العادلة التي تأخذ بنظر الاعتبار الوقت والجهد والمواد الأولية التي دخلت في إنتاج هذه السلعة [أو عرض هذه الغلّة الزراعية]. . ولا يتم إلا بإشراف من الدولة»[١].

يقول الإمام علي عليه السلام في عهده للأشتر: «ثم اسْتَوْصِ بالتُّجّار وذوي الصناعات. . واعْلَمْ - مع ذلك - أنَّ في كثيرٍ منهم ضِيقاً فاحشاً، وشُحّاً قبيحاً، واحْتكاراً للمنافع، وتحكّماً في البِياعات، وذلك بابُ مضرَّةٍ للعامّة، وعيبٌ على الوُلاة. فامْنَعْ من الاحتكار، فإنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - منع منه. وليكنِ البيعُ بيعاً سَمْحاً: بموازينِ عدلٍ وأسعارٍ لا تُجْحِفُ بالفريقين من البائع والمبتاع. فمن قارَفَ حُكْرَةً بعد نهيك إيّاه فنكّلْ به، وعاقبْه في غيرِ إسرافٍ»[٢].

إن سياسة الإمام مع طبقة التجار والصناعيين تتمحور حول تشجيعهم على التنافس النافع للرعية ومنعهم من الاحتكار المضرّ بها، «وبما أن التنافس على هذا الصعيد لا يؤدي جزماً إلى أضرار اقتصادية واجتماعية تتولد من جشع بعض أفراد التجار الذين فيهم ضيق وفحش وشح قبيح واحتكار للمنافع ممّا يرهق الرعية»[٣]. وهذا النمط الاستغلالي إذا لم يمتنع من الاحتكار رعايةً لمصلحة الأمة فلا بدّ من محاسبته وإنزال العقوبة العادلة بحقه، لأنه «يشكّل خطراً على

---

(١) الموسوي، د. محسن باقر: الفكر الاقتصادي في نهج البلاغة، ص ١٧٥.

(٢) باب الرسائل، رقم ٥٣. الضيق: عسر المعاملة. الشحّ: البخل. الاحتكار: حبس المطعوم ونحوه عن الناس لا يسمحون به إلّا بأثمان فاحشة. المبتاع: هنا المشتري. قارف: خالط. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٢٠٠، رقم ٤١٣٤-٤١٣٨.

(٣) فضل الله، السيد عبد المحسن: نظرية الحكم والإدارة، ص ١٥٢.

الشعب ورخائه واستقراره، ويشكّل عيباً على الحكومة المسؤولة عن رخاء شعبها»[١]. كما وأكد الإمام على ضرورة تعليم التجّار فقه البيع والشراء، لتكون معاملاتهم ضمن المكاسب المحلّلة شرعاً، ومن دون أن يتورّطوا في السقوط بالرّبا، لذلك قال عليه السلام: «من اتّجر بغير فقهٍ فقد ارْتطمَ بالرِّبا»[٢].

السياسة المالية للدولة:

ترتكز على مبدأ المساواة والعدل في الأخذ والعطاء، بالإضافة إلى مبادئ الرعاية الإنسانية والخلقية في تنفيذها، لغرض «تكييف مستويات الإنفاق العام، والإيرادات العامة، والتأثير في التنمية الاقتصادية، وتحقيق الرفاهية الاقتصادية والاستقرار والعدالة الاجتماعية، وقد قامت هذه السياسة على النظام المالي الذي اختطه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام»[٣]. في استصلاح العباد والبلاد معاً. لذلك أوصى كثيراً باتباع العدالة والرفق لمن استعمله على الصدقات، أن يأخذ الحقوق بنسبها المحددّة شرعاً، وبالتساوي من جميع الناس دون تفريق. يقول الشريف الرضي: «كان عليه السلام يقيم عماد الحق، ويشرع أمثلة العدل، في صغير الأمور وكبيرها ودقيقها وجليها»[٤]، فقد قال الإمام عليه السلام: لعامله في جباية الصدقات: «انْطلقْ على تقوى اللهِ وحدَه لا شريكَ له، ولا تُروِّعنَّ مسلماً، ولا تَجتازنَّ عليه كارهاً،

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: عهد الأشتر، ص٩٦.

(٢) باب الحكم، رقم ٤٤٧.

(٣) الموسوي، د. محسن: الفكر الاقتصادي في نهج البلاغة، ص ٩٩.

(٤) قول الشريف الرضي، قبل ذكره نص خطبة الإمام رقم ٢٥.

ولا تأخُذنَّ منه أكثرَ من حقِّ الله في مالِهِ، فإذا قدمْتَ على الحيِّ فانْزل بمائهم من غير أن تخالطَ أبياتَهم، ثم امْضِ إليهم بالسكينة والوَقار، حتى تقومَ بينهم فتسلّم عليهم، ولا تُخْدِجْ بالتحيَّةِ لهم، ثم تقول: عبادَ الله، أرسلني إليكم وليُّ الله وخليفتُه. لآخُذَ منكم حقَّ الله في أموالِكم، فهل لله في أموالكم من حقٍّ فتؤدّوه إلى وليِّه. فإنْ قال قائل: لا، فلا تراجعْه، وإن أنعم لك منعمٌ فانْطلق معه من غير أن تخيفَه أو توعِدَه أو تَعْسِفَهُ أو تُرْهقه، فخذْ ما أعطاك من ذهبٍ أو فضةٍ، فإنْ كان له ماشيةٌ أو إبِلٌ فلا تدخُلْها إلّا بإذنه. فإنّ أكثرها له، فإذا أتيتَها فلا تَدْخُلْ عليها دخول متسلّطٍ عليه ولا عنيفٍ به. ولا تُنفِّرنَّ بهيمةً ولا تُفْزِعنَّها.. حتى تأخذَ حقَّ الله في ماله، ولا تأخُذَنَّ عَوْداً ولا هَرِمَةً ولا مكسورةً.. ولا تأمننَّ عليها إلّا من تثقُ بدينه، رافقاً بمال المسلمين حتى يوصِّلَه إلى وليِّهم فيقْسِمَه بينهم، ولا تُوكّل بها إلّا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً، غير معْنِفٍ ولا مُجْحِفٍ..»[1]. وبهذه الدقة التفصيلية، ترتكز اهتمامات الإمام بمشاعر المسلمين، لكي تبقى في إطارها الروحي وهم يؤدون الفرائض المالية إلى الجابي المكلّف، فيعتمد قول ربّ المال في الرفض أيضاً، ولا يخفى أثر هذه التربية في تنمية الصدق والإخلاص في النفوس. إن هذه الرسالة كتبها الإمام لمن يستعمله على الصدقات، ليكون نموذجاً عن تعاليم الإسلام للرجل الأمين، والوالي المسؤول،

---

(١) باب الرسائل، رقم ٢٥. لا تُخدج بالتحية لهم: أي لا تبخل بها عليهم وحيّهم تحية كاملة. أنعم لك: أي قال لك نعم. تُعسفه: تأخذه بشدة. تُرهقه: تكلفه ما يصعب عليه. العَوْد - بفتح فسكون -: المسنّة من الإبل. الهرمة: من الإبل أسنّ من العَوْد. المجحف: من يشتد في سَوْق الإبل حتى تهزل. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٦١٧-٦١٨.

لأن «الظلم من طبع الولاة، وخصوصاً من يتولى قبض الماشية من أربابها على وجه الصدقة، فإنهم يدخلونها دخول متسلّط حاكم قاهر، ولا يبقى لربّ المال فيها تصرّف، فنهى عليه السلام عن مثل ذلك»[١]. وقال عليه السلام -أيضاً -: «.. وإنّ لك في هذه الصَّدقة نصيباً مفروضاً، وحقاً معلوماً، وشركاءَ أهلَ مَسْكنةٍ، وضعفاءَ ذوي فاقةٍ، وإنّا موفّوك حقَّكَ، فوفِّهم حقوقَهم، وإلا تفعلْ فإنّك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة..»[٢]. وكان يعممّ مسألة عدم الاعتداء على مال أحدٍ من أهل القبلة من المسلمين لتشمل المعاهَدين من أهل الكتاب على السواء[٣] حيث قال: «.. ولا تَمسُّنَّ مالَ أحدٍ من الناس مصلٍّ ولا معاهَدٍ..»[٤]. والهدف عند الإمام من هذه الفرائض المالية إعمار البلاد واستصلاح أمر العباد، فإن كان من الصلاح تخفيف الفريضة عليهم أو إعفائهم لظروفٍ قاهرة فليكن ذلك، لأن «مَنْ طلبَ الخراجَ بغير عمارة أخربَ البلادَ، وأهلكَ العبادَ، ولم يستقمْ أمرُه إلّا قليلاً. فإنْ شكوْا ثِقْلاً أو علَّةً، أو انْقطاعَ شِرْبٍ أو بالَّةٍ، أو إحالةَ أرضٍ اغْتَمَرها غَرَقٌ، أو أجْحفَ بها عَطَشٌ، خفَّفْتَ عنهُم بما ترجو أن يَصلُح به أمرُهم، ولا يثقُلَنَّ عليك شيءٌ خفَّفْتَ به المؤُونةَ عنهم، فإنّه ذُخْرٌ يعودونَ به عليك في عِمارةِ بلادكِ وتزْيينِ وِلايتِكَ..»[٥]. يعني في

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٨، ج١٥، ص١٠٥.

(٢) باب الرسائل، رقم ٢٦.

(٣) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٢٥. دار الثقلين.

(٤) باب الرسائل، رقم ٥١.

(٥) باب الرسائل، رقم ٥٣. مقطع (وتفقد أمر الخراج). يريد المضروب من مال الخراج أو نزول علة سماوية بزرعهم أضرت بثمراته. انقطاع شرب أو بالّة: منع الماء من =

حالة الكوارث الطبيعية المؤثرة على الزراعة، أو حلول الآفات الطارئة التي تضرّ بالمحاصيل، لا بد من مساعدة المزارعين «فان شكوا ثِقلاً أو علة..»، يريد المضروب من مال الخراج أو نزول علة سماوية بزرعهم أضرت بثمراته. انقطاع شرب أو بالّة: منع الماء من الأنهار أو الأمطار. إحالة أرض: تحويلها البذور إلى فساد بالتعفن. اغتمرها، أي عمّها من الغرق. أجحف العطش: أي أتلفها[١]. فان الضغط على الناس وهم في حالة العوز والحاجة سيوصلهم إلى الفقر، وأساساً أن الإمام في سياسته المالية يعالج الفقر وانعكاساته في الأمة لذلك قال عليه السلام: «الفقرُ الموتُ الأكبر»[٢]. «إنَّ اللهَ سبحانه فرَض في أموالِ الأغنياء أقواتَ الفقراء، فما جاعَ فقيرٌ إلّا بما مُتِّعَ به غنيٌّ، واللهُ تعالى سائِلُهم عن ذلك»[٣]. بل شجع على الإنفاق في سبيل الله لترميم النقص المعيشي لدى بعض الناس، فقال: «.. فمن آتاهُ اللهُ مالاً فلْيصِلْ به القرابةَ، ولْيُحْسِن منه الضِّيافةَ، ولْيَفُكَّ به الأسيرَ والعانيَ، وليُعْطِ منه الفقير والغارم»[٤]. «طوبى لمن.. وأنفق الفضل من ماله»[٥]. «من كفّاراتِ الذنوبِ العظامِ إغاثةُ الملهوفِ، والتنّفيسُ عن المكروبِ»[٦].

= الأنهار أو الأمطار. إحالة أرض: تحويلها البذور إلى فساد بالتعفن. اغتمرها، أي عمّها من الغرق. أجحف العطش: أي أتلفها. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٦٩٩، رقم ٤١٠٤-٤١٠٩.

(١) الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٦٩٩، رقم ٤١٠٤-٤١٠٩.

(٢) باب الحكم، رقم ١٦٣.

(٣) باب الحكم، رقم ٣٢٨.

(٤) باب الخطب، رقم ١٤٢.

(٥) باب الحكم، رقم ١٢٣.

(٦) باب الحكم، رقم ٢٤.

لا لسخط العامة برضى الخاصة:

ففي منهج الإمام لا مجال لتفضيل أحدٍ على أحد، وإن كانت له خصوصية من اعتبارات اجتماعية أو سياسية. يقول الإمام: «.. ولا تُقْطعَنَّ لأحدٍ من حاشيتك وحامَّتِك قطيعةً، ولا يَطْمَعَنَّ منك في اعتقادِ عُقْدَةٍ، تَضُرُّ بمن يليها من الناس..»[١]. يؤكد الإمام على مسألة ترويض الحاشية والأقرباء على إقامة العدل والمساواة، كي ينجو من طمعهم به، لأنّ إرضاءهم بتوزيع الأراضي والأموال عليهم سيملأ قلوب الرعيّة حقداً وغضباً وكراهيةً. لأن التوزيع العادل بين الناس، الذي أمر به الإسلام، هو الذي يضمن سلامة أوضاع المسلمين من الحالات السلوكية السلبية كالعداوة والبغضاء، لذلك قال الإمام: «..فإن في العدل سَعَةً، ومن ضاق عليه العدلُ، فالجوْرُ عليه أضيق»[٢]. وذلك «لأن التصرّف بالعدل محل لرضى من يعتقد كونه مظلوماً، ورضا الظالم لعلمه بأنه عند انتزاع الحقّ منه آخذ ما ليس له»[٣].

---

(١) باب الرسائل، رقم ٥٣. بداية مقطع (ثم إن للوالي خاصةً وبطانةً). الإقطاع: المنحة من الأرض. والقطيعة: الممنوح منها. الحامّة -كالطامّة -: الخاصة والقرابة. الاعتقاد: الامتلاك، والعقدة - بالضم -: الضيعة. واعتقاد الضيعة: اقتناؤها، وإذا اقتنوا ضيعة فربما أضروا بمن يليها، أي يقرب منها من الناس. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٧٠٩.

(٢) باب الخطب، رقم ١٥.

(٣) البحراني، كمال الدين بن ميثم: اختيار مصباح السالكين، ص١٠٨.

● **نزاهة القضاء ومبدئيته:**

إن المجتمع يلوذ إلى السلطة القضائية لحلّ المخاصمات وإطفاء الفتن وإعادة الحقوق، وقطع دابر الظالمين والمعتدين، فهي «من أعظم سلطات الدولة، بها يفرق بين الحق والباطل، وبها يُنتصف للمظلوم من الظالم. وحين تجنح الظروف بهذه السلطة إلى الإسفاف فإنها لا تنزل إلى الحضيض وحدها وإنما تجرّ معها المجتمع كله أو بعضه»[١]. لذلك أصبحت السلطة القضائية في موقع بالغ الأهمية في الدولة الإسلامية.

أهمية القضاء في التزامه المستقل:

فلا يكفي -في دولة الإسلام أيام خلافة الإمام علي - أن تكون محاكم القضاء حاوية مواد القانون وعلماء به، ما لم تتمتع باستقلالية تامة عن تأثيرات الوضع السياسي والاجتماعي، لكي تصدر الأحكام بملء الإرادة القانونية ونزاهة القضاة، من دون الرضوخ لكافة الضغوطات المحيطة، وهذا ما نعنيه من الاستقلالية، فالسلطة القضائية ليست مقابل سلطة الإمام أو الخليفة في النظام الإسلامي، وإنما هي بإشراف الإمام ومنه تتفرع كل السلطات، بينما الذي نعنيه هو أن يكون جميع المسلمين سواسية أمام القانون الإسلامي، من دون استثناء، فهي إذاً «استقلالية للقضاء تصل إلى درجة خضوع أعمال الخليفة نفسه إلى حكم القضاء»[٢]. يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين: «وقد سجل الإمام بما شرّعه هنا سبقاً عظيماً على إنسان اليوم،

---

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ط٤، ص ١٨٩.

(٢) الزين، د.حسن: الإمام علي وتجربة الحكم، ص٢١٠.

وذلك لأن استقلال مركز القضاء وعدم تأثره بأي سلطة أخرى، وتأمين الناحية الاقتصادية للقاضي، ونظام التفتيش القضائي، جهات تنبّه لها الإمام وجعلها واقعاً يخلف في حياة المجتمع آثاره الخيرّة»[١].

وبالفعل إن القضاء في عهد الإمام عليه السلام كان يتميز في «استقلاله التام عن السلطة السياسية التي تحكم البلاد. فلا نجد أي أثر لوجود هذه السلطة»[٢]. وللمثال نذكر نموذجاً عملياً من سيرة الإمام علي وسير القضاء في عهد خلافته، ما ذكره ابن الأثير في الكامل انه: «وجد عليٌّ درعاً له عند نصراني، فأقبل به إلى شُريح وجلس إلى جانبه، وقال: لو كان خصمي مسلماً لساويتُهُ، وقال: هذه درعي! فقال النصراني: ما هي إلّا درعي، ولِمَ يكذب أمير المؤمنين؟ قال شريح لعليٍّ: ألك بيّنة؟ قال: لا، وهو يضحك، فأخذ النصراني الدرع ومشى يسيراً ثم عاد وقال: أشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين قدّمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه. ثم أسلم واعترف أن الدرع سقطت من عليٍّ عند مسيره إلى صفين، ففرح عليٌّ بإسلامه، ووهب له الدرعَ وفرساً، وشهد معه قتال الخوارج»[٣].

شروط اختيار القاضي:

لقد اشترط الإمام أن يكون القاضي في محاكم الدولة الإسلامية

---

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ط٤، ص ١٩٧.

(٢) الموسوي، د. محسن باقر: الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي عليه السلام، ص ١٧٤.

(٣) ابن الأثير، العلّامة عزّ الدين: الكامل في التاريخ، مج٣، ص٤٠١. وفي رواية شبيهة لهذه الرواية يذكرها السيوطي في تاريخه، إلّا أن الدرع كانت بيد يهوديٍّ. راجع السيوطي، جلال الدين: تاريخ الخلفاء، ص١٤٦.

مؤمناً. عادلاً، عالماً بقوانين الشريعة وتفاصيلها، بالإضافة إلى الصفات النفسيّة من الخلق الكريم، وسعة الصدر، ويمتاز بالتروّي وعدم العجلة بإصدار الأحكام، والصبر على استماع الطرفين دون ملل أو ضجر، لكي يدرس القضية بكامل تفاصيلها، وذلك «لأن القاضي يجب أن يجلس للحكم ضميراً نقياً، وروحاً طاهرة، وعقلاً صافياً، ونفساً متعالية عن مساف الأغراض، وألّا يشغل نفسه بعرض من أعراض الدنيا»(١). وقد أشرنا إلى مجمل هذه الشروط في الفصل الأول حينما تناولنا القضاء في المبحث الثاني، مستندين إلى مقطع من عهده للأشتر، الذي يقول فيه: «ثم اخْتَرْ للحكم بين النّاس أفضلَ رعيَّتك في نفسك، ممّن لا تضيق به الأمور، ولا تُمَحِّكُهُ الخصُومُ، ولا يتمادى في الزَّلّة، ولا يَحْصَرُ من الفيء إلى الحقِّ إذا عَرَفه، ولا تُشرفُ نفسُه على طمعٍ، ولا يَكتفي بأدنى فَهْمٍ دون أقصاهُ، وأوْقَفَهم في الشُّبهات. . »(٢).

فبالإضافة إلى العلم والورع، يشترط الإمام في القاضي أن يكون «من ذوي النفوس الحساسة، والذكاء المتّقد، والنباهة الشديدة، الذين يبددون بنور اليقين ظلمات الشك وغياهب الشبهات، لئلا يلتبس عليهم الأمر فيلبسون الحق بالباطل وهم لا يشعرون»(٣).

وبالفعل كان الإمام يدرك تماماً «أن القضاء حين يصير إلى غير أهله ينقلب إلى أداة للظلم، ظلم الضعفاء، ويصير مؤسسة ترعى

---

(١) شمس الدين، محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ص ١٩٣.

(٢) باب الرسائل، رقم ٥٣.

(٣) الفكيكي، توفيق: الراعي والرعية، طبع بيروت ط٣، ص ٤٥.

مصالح الأقوياء فحسب»[١]. سواء كان القاضي يدّعي العلم والعدالة أو يمتاز بنفسيّة مريضة وطامعة. إن هذا التشديد في شروط القاضي، علمياً وأخلاقياً ونفسياً، يأتي لأهمية وخطورة السلطة القضائية في تماسك بناء الدولة وقوتها. فكلما كانت السلطة القضائية مستقلة، ونزيهة، والقضاة يتم اختيارهم وفق الشروط بدقة، كلّما كان نظام الدولة قويّاً.

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ط٤، ص ١٩٠.

المطلب الثالث

استمرارية الإعداد التربوي لأغراض الدعوة والمقاومة والجهاد

لا يكتمل بناء الدولة القوية إلا بتشكيل جيش عقدي متين، إلى جانب السلطة السياسية والقوة الفكرية. يتمتع هذا الجيش بكفاءة دفاعية وهجومية عالية ويكون مخلصاً مطيعاً لأوامر قيادته الشرعية المتمثلة بالإمام الخليفة ثم الوالي أو قائد الجيش. يقول الإمام عليه السلام: «وأمّا حقّي عليكم فالوفاءُ بالبيعة، والنصيحةُ في المشهد والمغيب، والإجابةُ حين أدعوكم، والطاعةُ حينَ آمُرُكم»[1].

نتناول هذا المطلب في ثلاثة محاور:

١• مهمات الجيش العقدي.

٢• صاحب الشرطة وجهاز الرقابة.

٣• معوّقات موضوعية في الطريق.

• مهمات الجيش العقدي:

يقول الإمام: «فالجنودُ، بإذن الله حصونُ الرَّعِيَّة، وزَيْنُ الوُلاة،

---

(١) باب الخطب، رقم ٣٤.

وعزُّ الدِّينِ، وسُبُلُ الأمن، وليس تقومُ الرَّعيَّةُ إلّا بهم»[١]. وعلى ضوء هذا النص تتحدد مهام الجيش الرئيسية وهي: المحافظة على بلاد المسلمين ودولتهم من الاعتداءات الخارجية فهم كما قال الإمام: «حصون الرعية». وحماية أمن المجتمع من الفتن الداخلية، وملاحقة عصابات الجريمة «سبل الأمن»، والمهمة الرئيسية الأخرى حماية العقيدة والفكر الإسلامي، فهم «عزّ الدين»، وعليه يكون جيش الإمام جيشاً عقدياً، مقاييسه الأساسية هي التقوى والإيمان والالتزام بالأخلاق الفاضلة، والوعي السياسي، بالإضافة إلى المهارة العسكرية المهنية، خصوصاً في شخص القائد، لكي يضع الجنود ثقتهم العالية به فيطيعوه[٢].

ومن ميزات هذا الجيش الذي يقوم على أسس تنظيمية دقيقة، تحديد مسؤولية وعلاقة القائد بعموم المراتب، بروح المساواة في العلاقات الداخلية، وأن يكون التقويم على ضوء الكفاءة والإطاعة والإنجاز، من دون النظر إلى المواقع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في هذا التقويم. فعلى الوالي أو الحاكم: «أن يذكر محاسنهم ويطريها، تشجيعاً لهم وحثّاً لزملائهم إلى التأسي بهم»[٣]. وأيضاً يعتمد المشاركة الوجدانية والانسجام النفسي القائم على المحبة والإخلاص بين القائد وجنوده. فينظرون إلى قائدهم باعتباره الأخ الأكثر كفاءة ودراية وخبرة، وانه يرعاهم لمصلحتهم، ولا يرونه مسؤولاً جباراً متحكماً بهم، مصلحياً في علاقته معهم. يقول

(١) باب الرسائل، رقم ٥٣. بداية مقطع (فالجنود..).

(٢) ستتناول شروط اختيار قائد الجيش في الفصل الخامس، المبحث الثالث.

(٣) طي، د. محمد: الإمام علي ومشكلة نظام الحكم، ص ١٧٩.

الشيخ شمس الدين: «الجيش الذي يطمح الإمام إلى تكوينه هو ما يسمى الآن «الجيش العقدي»، إنه يقوم على الفكرة الإسلامية، ويحمل جنوده وضبّاطة همّ الإسلام ورسالته، يمارسونها في حياتهم الشخصية والعملية. ويحمونها في المجتمع من التحريف. إن الجيش الإسلامي - بهذا المفهوم - أداة حضارية، ومدرسة فكرية، وليس مجرد مؤسسة تحترف القتل السياسي في المعارك، وإنما تقوم في الوقت نفسه بدور حضاري وتربوي في الأمة»[١].

هذا، وإن «الجندية ركن من أركان الدولة، ولا يتم بناؤها ويصحّ تعريفها إلّا به، وهي أهم مظهر من مظاهر عظمتها بل هي رمز حياتها وخلودها»[٢].

وبالإضافة إلى ذلك، حدد الإمام ضوابط اجتماعية لاختيار قائد الجند، ضماناً للاستقامة والإخلاص، وهذه من مسائل علم الاجتماع المهمة، حيث يقول: «ثم ألْصَقْ بذوي المروءاتِ والأحسابِ، وأهلِ البيوتاتِ الصّالحةِ، والسوابِقِ الحسنةِ، ثمَّ أهلِ النَّجدةِ والشَّجاعةِ، والسَّخاءِ والسَّماحةِ، فإنَّهُمْ جِماعٌ من الكرَمِ، وشُعَبٌ من العُرْفِ»[٣]. مما يؤهلهم للانخراط في صفوف الجيش واستلام مواقع القيادة، لأنهم يمرّون - عادةً - في مراحل إعداد وتربية هادفة تتناسب مع وضعهم الاجتماعي، «فقد كانت هذه البيوتات تأخذ أبناءها بتربية

---

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ط٤، ص ٨٢.

(٢) الفكيكي، توفيق: الراعي والرعية، ص ٨٦.

(٣) باب الرسائل، رقم ٥٣. شعب: جمع شعبة. العرف: المعروف والجود، وكل ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه. البستاني، عبد الله: البستان، باب العين، ص٧٠٨.

قاسية واعية توفر لهؤلاء الأبناء الثقافة العسكرية، وهي من أهم ما كان يأخذ به العرب ويعنون بإتقانه، وتغرس في نفوسهم الشعور بالمسؤولية والتحمل والصبر على المكارة. وقد كانت هذه البيوتات تحتل في نفوس أبناء الشعب - وهم الذين يؤخذ منهم عامة الجند - مركزاً سامياً حصلت عليه بسبب الخدمات التي تقدمها هذه البيوتات للأمة في الحرب والسلم على السواء، وهذا يوفر للقائد صفة الهيبة، ويضمن له نفوذ الأمر وحصول الطاعة»[١].

● **صاحب الشرطة:**

إن الإمام عليه السلام هو رائد المبادرة في تشكيل جهاز الشرطة، لأغراض الحماية الأمنية في داخل البلاد، نعم «إن الفضل في إنشاء الشرطة كجهاز لحفظ الأمن والنظام يعود إلى أمير المؤمنين عليه السلام الذي أنشأ نظاماً للشرطة وجهازاً متطوراً سمّاه بشرطة الخميس»[٢]، حيث انتخبهم الإمام من خيار جنوده، وقد عرفوا بالنزاهة والتقوى والحرص

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ص ١٨١-١٨٢.

(٢) الموسوي، د. محسن: الإدارة والنظام الإداري، ص ١٨٦-١٨٧. «الخميس - بالفتح: الجيش، سمي به لأنه خمسة أقسام: الميمنة، والميسرة، والمقدمة، والساقة، والقلب. وشرطة الخميس: أعيانه.. وإنما سُموا شرَطة، قيل: من الشرَط وهو العلامة، لأن لهم علامة يعرفون بها، أو من الشرْط وهو التهيؤ، لأنهم متهيؤون لدفع الخصم..». الطريحي، الشيخ فخر الدين: مجمع البحرين، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، ج١، باب الخاء، ص٥٥٤. «وفي حديث عليّ عليه السلام لعبد الله بن يحيى الحضرمي يوم الجمل: «أبشرْ - يا بن يحيى - فإنك وأباك من شرَطة الخميس»، أي من نخبه وأصحابه المتقدمين على غيرهم من الجند». الطريحي: المصدر ذاته، ج٢، ص٩٤٢.

على حماية الناس وممتلكاتهم[١]. كما وأطلق على مديرهم اسم «صاحب الشّرطة»، وأوكلت للشرطة مهمة حراسة المدينة ليلاً ونهاراً، وفضّ المنازعات، وحماية الخليفة والوالي والمؤسسات الحكومية وبيت المال، والقبض على المجرمين، وحراسة السجن. وإن دائرة الشرطة تعتبر الجهاز المنفّذ لقرارات السلطة السياسية المتمثلة بالوالي وصاحب الخراج، كما وينفذ صاحب الشرطة أوامر القضاة في إقامة الحدود على المذنبين وملاحقة المجرمين وسجنهم[٢].

جهاز الرقابة:

وأعضاؤه هم «العيون (التحرّي) الذين يراقبون الموظفين سرّاً، والذين كان الإمام يشترط أن يكونوا من أهل الصدق والوفاء، ليكونوا شهوداً يمكن الركون إلى أقوالهم»[٣]. وتقاريرهم حول سير الأمور في الدولة، رعاية لأمن المسلمين. كما ويقوم الجهاز بمراقبة السوق التجارية والاستهلاكية لمنع الاحتكار وارتفاع الأسعار، وأن يتم تعيين أعضاء جهاز المراقبة من قبل الوالي، لاعتبارات شرعية وأخلاقية دقيقة، ويكون ارتباطهم به[٤]. يقول الإمام: «. . ثم تفقَّدْ أعمالَهم، وابْعَثِ العُيُونَ، من أهلِ الصِّدْقِ والوفاءِ عليهم، فإنَّ

(١) القرشي، باقر شريف: موسوعة الإمام أمير المؤمنين، ج١٠، ص٤٧.
(٢) الاصبيعي، محمد إبراهيم: الشرطة في النظم الإسلامية، دار اقرأ، ط١ مالطا، ١٩٩٠م. ص ٥٤.
(٣) طي، د. محمد: الإمام علي ومشكلة نظام الحكم، ص ١٧٩-١٨٠.
(٤) الموسوي، د. محسن: الإدارة والنظام الإداري، ص ٢٦٢.

تعاهُدَك في السِّرِّ لأمورهم حَدْوَةٌ لهم على استعمال الأمانة، والرِّفق بالرعية، وتحفّظْ من الأعوان، فإنْ أحدٌ منهم بسطَ يده إلى خيانةٍ اجتمعتْ بها عليه عندك أخبارُ عيونك، اكتفيت بذلك شاهداً، فبسطْت عليه العقوبةَ في بدنه، وأخذته بما أصاب من عمله، ثم نَصبته بمقام المذلّة، ووسمْته بالخيانة، وقلّدته عارَ التُّهمة»[1]. فلكون مسألة العيون والرقباء حسّاسة للغاية من الناحية الشرعية والعرفية، شدّد الإمام على الغاية البنائية لهذا المشروع الحسّاس، عبر تحديد أهم شرائط الإيمان لهذه المهمة، بتوافر الصدق والوفاء لدى أعضاء هذا الجهاز، ومن المؤكد أنّ التعاهد السّري المدروس يحث على أداء الأمانة في الواجب والمهمة، بالإضافة إلى انه يبعث في نفوسهم الرفق والإحسان بالناس. وفي حالة التثبت من خيانة أحد المتصدين، فلا بدّ من توجيه العقوبة إليه مادياً ومعنوياً، ليكون عبرةً للآخرين.

الإداريون هم مربّون أيضاً:

إنّ المقاومة والجهاد لا بد لهما من إعداد تربوي مستمر، لوضع الأمة في مواقع التضحية من أجل الإسلام ودولته وبلاد المسلمين، ففي داخل مؤسسة الجيش لا بد من وجود الثقة بالقيادة من قبل مراتب الجيش، فالثقة هي أساس قوة الدولة وتماسكها، وهذه الثقة لا تقوم على أسس فكرية مجردة عن التطبيق العملي، لذلك تركزت توجيهات

---

(١) باب الرسائل، رقم ٥٣. من مقطع (ثم انظر في أمور عمالك). حدوة: من حدا الإبل، حُداة: أي ساقها وحثها على السير. والمعنى حثهم وتابعهم. أنيس، د. إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، مج١، باب الحاء، ص١٦٢.

الإمام نحو تعميق هذه الثقة عبر التعامل الصادق والواضح بين القائد وعموم المجاهدين في الجيش والأمة معاً، لذلك أوصى بالمواساة والاهتمام بعوائلهم في الوطن، والثناء على تضحياتهم دون النظر إلى الخلفيات الاجتماعية والسياسية. ومما لا يخفى إنه سوف «ينعكس هذا الوضع في الجيش على وضع الدولة واستقرارها بصورة عامة، فإن الخطر على الدولة أكثر ما يأتي من قبل تمرد الجيش، ومحاولة تغيير الحكم نتيجة تذمره وعدم رضاه»[١]. يقول الإمام علي: «وليكنْ آثَرُ رؤوسِ جندِك عندَك مَنْ واساهم في معونتِه..»[٢].

وقد اعتمدت منهجية الإمام على روح الارتباط بالإسلام، في العلائق الإدارية. فمهما كانت العلاقة وظيفية مهنية تربط الإداري بجهاز الدولة، فإنها دون العلاقة الروحية والإيمانية التي هي أساس الارتباط. لذلك يكون الإداري والقائد العسكري والوالي بل كل موظف حكومي - حسب موقعه ودائرته - هو نموذج للمسلم الواعي المجاهد، ويؤدي وظيفته التربوية مع محيطه الاجتماعي في الإعداد للمقاومة والجهاد، أسوةً بالإمام الحاكم حيث يقول: «واللهِ لا أكونُ كالضَّبُعِ تَنامُ على طولِ اللَّدْمِ، حتى يَصِلَ إليها طالبُها ويَخْتِلَها راصدُها»[٣].

---

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: عهد الأشتر، ص ٦٥.

(٢) باب الرسائل، رقم ٥٣.

(٣) باب الخطب، رقم ٦. اللّدم: صوت الحجر أو الشيء يقع بالأرض وليس بالصوت الشديد. أنيس، د. إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، مج٢، باب اللام، ص٨٢١. يختلها: يخدعها، يراوغها. البستاني، عبد الله: البستان، باب الخاء، ص٢٩١.

فالإمام عكس حركته التعليمية والتربوية على رجال إدارته وخواص أصحابه، وكانوا بدورهم ينشرون هذه الروح التعليمية والتربوية في أوساط الأمة. لذلك كان يختار ولاته وعماله في البلدان من ذوي الإيمان والشجاعة والعلم والمعرفة «ليكونوا إلى جانب عملهم الإداري معلمين ورجال رسالة، وكان يوجههم نحو هذه المهمة التعليمية والتوجيهية»(١). فمثلاً كتب إلى قثم بن العباس عامله على مكة: «أمّا بعدُ، فأقِمْ للنّاس الْحَجَّ، وذكِّرهم بأيام الله، واجْلِسْ لَهُمُ العَصْرَيْنِ، فأفْتِ المُستفتي، وعلّم الجاهلَ، وذاكر العالِمَ..»(٢).

ومن هنا نؤكد على أن الأمة الإسلامية كلها جيش احتياطي للإسلام من الضروري إعداده تربوياً، وتجديد تدريباته العسكرية ليكون جاهزاً، رهن إشارة ولي الأمر. فالمقاومة والجهاد لا تقتصران على الجيش النظامي والشرطة وإنما يشمل جميع الأمة في حالة النفير العام.

يقول الإمام: «وإنَّ أفضلَ قُرَّةِ عَيْنِ الوُلاة اسْتقامةُ العَدْلِ في البلاد، وظُهُورُ مودَّةِ الرَّعيَّةِ..»(٣). نعم «إن هذا النص يثير ملاحظة مهمة جداً.. هي أنها حكومة شعبية بحيث يرى الشعب أن حكومته ناشئة منه، مرتبطة به، وليست مجرد سلطة حاكمة.. فهو لا يخضع لها وإنما يطيعها ويحبها وطاعته وحبه ناشئة من ثقته.. إن هذه الحالة،

---

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام، ص ٥٠.

(٢) باب الرسائل، رقم ٦٧. أيام الله: هي التي عاقب فيها الماضين على سوء أعمالهم. الصالح، د. صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، رقم ٤٣٦٢.

(٣) باب الرسائل، رقم ٥٣. ضمن مقطع بدايته (وليكن آثر رؤوس جندك..).

إذا تحققت في العلاقة بين الحكومة والشعب، تدفع الشعب إلى دعم بقاء الحكومة واستمرارها.. وهذا يؤدي إلى استقرار سياسي يؤدي إلى دعم حركة التقدم والنمو»[١]. والمسؤولية تقع على الحاكم أو الوالي في «إشراك الشعب في المسؤوليات الإسلامية»[٢]. وهذا هو جمال وقوة الدولة في الإسلام ضمن توجيهات الإمام علي وانه ليدفع الولاة باتجاه الصلح والسلام وبناء الحياة الكريمة، لأن الإسلام دين المحبة والسلام والرحمة.

- **معوّقات موضوعية في الطريق:**

ونحن إذ ندرس كلمات الإمام في صدد بناء الجيش العقدي المتين، واختيار قادته وعناصره وأجهزة الرقابة والشرطة، إنما ندرك -تماماً- الحكمة والدقة في إدارة الإمام وتربيته، عبر تشخيصه لمستلزمات بناء الجيش والدولة، إلّا أننا نلاحظ في الواقع الفعلي حالات من عدم التماسك في جيش الإمام، وعدم الطاعة له، وقد خرج بعضه عليه، وكانت له معاناة حقيقية في هذا الجانب، فمثلاً في وقعة صفين، وقد أصبح جيشه على بوابة النصر، وإذا به ينقسم على نفسه أمام حيلة رفع المصاحف، وتنفرط قوة الإطاعة له، مما اضطره لقبول التحكيم، وأكثر من ذلك «فإنه لم يفرغ من التحكيم الذي أذعن له وهو كاره، حتى فوجئ بطاقة أخرى من أنصاره [!] يرمونه بالكفر، لأنه قبل ذلك التحكيم، وزعموه قبولاً للتحكيم في كلام الله وفي دماء المسلمين.. أولئك هم الخوارج

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: عهد الأشتر، ص ٦٦.

(٢) الموسوي، د. محسن: الإدارة والنظام الإداري، ص ٢٥٧.

الذين حاربوه بالسلاح، وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذلك!»[١].

السؤال المهم: كيف نفسّر ذلك؟ وأين مواضع الخلل في هذه الحالة العصيبة؟ وهل أنها معوّقات موضوعية وعقبات فعلية في طريق الإعداد التربوي للمقاومة والجهاد؟ هذا ما نريد أن نتبيّنه في هذا المحور، عبر النقاط التالية:

أولاً • إن الالتزام المبدئي بالإسلام، وبشرائط الإيمان، والمضي بدقة على طريق الهدى والحق، أمر صعب وعسير. خصوصاً في ظروف تسودها المصلحية والانتهازية وحالات التقلّب من أجل المال والسلطة والجاه، وانه بالفعل يشكّل تحدّياً حقيقياً للضغوط النفسية والموضوعية في حالة الدوام والاستمرار. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[٢].

ثانياً • إن الظروف السائدة -آنذاك - كانت تسودها حالات واضحة من الاضطرابات والملابسات على المستوى الفكري والعملي، وذلك في ممارسات المتصدين لإدارة شؤون المسلمين، مما أشاعت ثقافة مادية، ودنيوية سلطوية في الأوساط الإدارية الخاصة، وبدوْرها انعكست بوضوح في الأوساط العامة. ممّا

(١) العقاد، عباس محمود: عبقرية الإمام علي، من موسوعة العقّاد الإسلامية، مج٣، الكتاب الثاني، ص٨٣.

(٢) سورة المؤمنون ٢٣/ ٧٠.

زاد في تعقيدات العملية التربوية التي نهض بها الإمام على أسس التقوى والنقاء الذاتي، والابتعاد عن حبّ الدنيا والرئاسة، والجهاد المخلص في سبيل الله. فجاءت إجراءات الإمام الداعية إلى العدل والمساواة بين الرعية في التوزيع والعطاء، كمعالجات جذرية في طريق العملية الإصلاحية. وكذلك محاسبته الشديدة للولاة وكبار المسؤولين بكل شدّة وصرامة. واستكمالاً لنهضته الإصلاحية على المستوى الإداري والشعبي قدّم سلوكه الذاتي نموذجاً مميزاً تتجسد فيه شرائط القدوة الحسنة في حياة المسلمين في تلك الظروف. نتوقف قليلاً عند هذه المعالجات، مستوضحين دلالاتها التربوية من جانب، وإفرازاتها لمعوّقات موضوعية في الطريق من جانب آخر. ففي أثر سياسته الداعية إلى العدل والمساواة، يقول أستاذنا السيد محمد تقي الحكيم: «وقد كان هذا الإجراء الصارم السريع من الإمام عليه السلام بمثابة المنبّه لوعي أصحاب رؤوس الأموال من المسلمين، حيث بدأت موازناتهم - فيما أخال- بين الاحتفاظ بدينهم، وذلك بتقبل هذه السياسة ونظائرها من الإمام عليه السلام، وهي تذكّرهم بسياسة النبي صلى الله عليه وآله، ومنهاجه في الحكم، أو الاحتفاظ بأموالهم وثرواتهم وقيمهم الاجتماعية.

وكان أكثر المهاجرين والأنصار وأبنائهم ممّن

تركزت مبادؤهم في أعماقهم في جنب سياسة الإمام عليه السلام، فأقبلوا معه على التضحية لا بأموالهم فحسب، بل بنفوسهم وما يملكون، وقد أسلموا له القياد إلى حيث يوجّه بهم في الحياة، وأما من أسلم من قريش متأخراً، ومعهم بعض المهاجرين والأنصار من ذوي المصالح الخاصة، فإنهم آثروا الاحتفاظ بها مهما كلّفهم الأمر، ويأتي على رأس هؤلاء طلحة والزبير ومن يعمل لهما، ثم الأمويون وابن العاص، ونظائرهم من الناس»[١].

لقد ركزت سياسة الإمام على تفعيل قواعد الإسلام، وأساسيات الإيمان التي أرساها الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله في الأمة، فمرحلة الإمام - في تقديري- كانت مرحلة إعادة البناء الإيماني والجهادي في الأمة، والتي أصبحت -فيما بعد - أساساً لانطلاق حركة الإصلاح الجذري، بل أعطتها شرعية التحرك الإصلاحي المعارض على مرّ العصور. فلذلك كانت مهمة الإمام في غاية الصعوبة أمام طوفان الأفكار المادية والطموحات الدنيوية، لأن «طريق علي هي طريق الخلافة المنزهة، حين تقابل الدولة الدنيوية»[٢].

أما في محاسبته الصارمة للولاة وقادة الجيش

(١) الحكيم، السيد محمد تقي: عبد الله بن عباس، شخصيتهُ وآثاره، ص٢٨٩.

(٢) العقاد، عباس محمود: عبقرية الإمام علي، من موسوعة العقّاد الإسلامية، مج٣، الكتاب الثاني، ص١٢١.

والإداريين، فقد كانت واضحة للقريب والبعيد. لغرض إعادة روح الإسلام المحمدي إلى الحياة، بكل شفافيته ومجده الجهادي والتضحوي. وللأسف هنالك أناس لا تَهمّهم المواقف المبدئية، والنصرة لقيم الحق، وإنما يخضع مقياس النجاح لديهم إلى الغلبة المادية والقدرة على الاستمرار في الحكم، فيقارنون بين علي ومعاوية، فلا يفهمون رسالة علي في الحياة الإسلامية التي عزّت المصلحيين وأعادت ثقة المسلمين إلى دينهم الحنيف، ولا يفهمون معاوية وبني أمية وأدوارهم التخريبية لقواعد الإسلام في حياة المسلمين. وحقاً إن «الذين يرون في معاوية دهاءً وبراعةً لا يرونها في علي، ويعزون إليهما غلبة معاوية في النهاية، إنما يخطؤون في تقدير الظروف، كما يخطؤون فهم علي وواجبه، لقد كان واجب علي الأول والأخير أن يردّ للتقاليد الإسلامية قوّتها، وأن يردّ إلى الدين روحه، وان يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي بني أمية في كبرة عثمان، ولو جارى وسائل بني أمية في المعركة لبطلت مهمته الحقيقية، ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمةٍ في حياة هذا الدين، إن عليّاً إما أن يكون عليّاً أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها، وهذا هو الفهم الصحيح الذي لم يغب عنه كرم الله وجهه. .»[1].

(١) قطب، سيد: العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص٢١٧.

هذا، كما قدّم الإمام نفسه نموذجاً فذّاً للحالة الإيمانية في قمتها، ليكون القدوة الصالحة للولاة والقيادات وعموم الناس، وذلك في تعامله مع نفسه -في مأكله وملبسه ومشربه[١]، وكذلك مع أقربائه وعشيرته من دون تفضيل أحدهم على سائر المسلمين، وكانت لسياسته العادلة دلالات تربوية كثيرة الخيرات على عموم الناس، ولكنها زادت من الأحقاد عليه من قبل المنتفعين وأصحاب الدنيا. وأقرب مثل لما نحن في صدده تعامله مع أخيه عقيل ابن أبي طالب، لنستمع إليه وهو يصف ذلك الموقف الدقيق: «.. واللهِ لقد رأيت عقيلاً وقد أملق حتى استماحني من بُرِّكم صاعاً، ورأيت صبيانه شُعْثَ الشُّعور، غُبْرَ الألوان، من فقرهم.. فظن أنّي أبيعه ديني، وأتّبعُ قيادَه مفارقاً طريقتي، فأحميتُ له حديدةً، ثم أدنيتُها من جسمه ليعتبر بها، فضجّ ضجيجَ ذي دَنَفٍ من ألمها، وكاد أن يحترق من مِيسمِها، فقلت له: ثكلتك الثوّاكلُ يا عقيل! أتئنّ من حديدةٍ أحماها إنسانها للعبه، وتجرُّني إلى نار سجّرها جبّارُها لغضبه!..»[٢]. وهكذا يقدّم الإمام تطبيقاً حيّاً لسياسته العادلة مع أقرب الناس إليه وهو

(١) راجع باب الرسائل، رقم ٤٥. أشرنا إلى تلك الرسالة في الفصل الثاني، المبحث الأول، المطلب الرابع، ٥-سلوكياته وتصرفاته الشخصية، ص٢٢٥.

(٢) باب الخطب، رقم ٢٢٤.

أخوه عقيل. ومعنى (أملق) أي: «افتقر. و(استماحني): طلب مني أن أعطيه صاعاً من الحنطة، والصاع أربعه أمداد، والمدّ رطل وثلث، مجموع ذلك خمسة أرطال وثلث رطل.. (وشعث الألوان) أي: غُبر. (وأتّبع قياده): أطيعه وأنقاد له، وأحميت الحديدة في النار، فهي محماة، ولا يقال: حَميت الحديدة، وذي دنف، أي ذي سقم مؤلم، ومن ميسمها: من أثرها في يده، وثكلتك الثواكل، دعاء عليه.. أي ثكلتك نساؤك. وقوله (أحماها إنسانها) أي: صاحبها. وسَجرَها -بالتخفيف -: أوقدها وأحماها..»[1].

وبهذه الصورة الخالصة نستوعب الحكمة من صرامة الإمام في تطبيق العدل، وحمل الناس على الجادة المستقيمة بدقة، وعلى المحجة البيضاء بثقة ووضوح، وذلك لأجل تكريس وعي المسؤولية، وتكثيف روح الالتزام المسؤول عند المسلمين، جاءت سياسته هذه في خضم العواصف المصلحية السائدة، فقد «هدأت حماسة الدعوة النبوية، وثابت الطبائع إلى مألوفها الذي أشرجت عليه، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحوٍ لم تعهده الجزيرة العربية قطّ في تاريخها القديم. وأقبل الناس على الدنيا، بل هرولوا إلى الدنيا. وإذا بخليفةٍ جريءٍ

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٦، ج١١، ص١١٧.

عليها زاهدٍ فيها يقف لهم في طريقها ويصدّهم عنها. يصدّ ماذا؟ يصدّ الطوفان، وهو مندفع من وراء السدود، يصد طبيعة الإنسانية وهي منطلقة من عقال التقوى»[١]. كنتيجة طبيعية للسياسات الماضية يقول سيد قطب: «مضى عثمان إلى رحمة الله، وقد خلف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما مكن لها في الأرض، وبخاصة في الشام. وبفضل ما مكن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام، من إقامة الملك الوراثي والاستئثار بالغنائم والأموال والمنافع. مما أحدث خلخلة في الروح الإسلامي العام. وليس بالقليل ما يشيع في نفس الرعية.. إن الخليفة يؤثر أهله ويمنحهم مئات الألوف، ويعزل أصحاب رسول الله ليولي أعداء رسول الله..»[٢].

ثالثاً • أما الجيش الذي خرج به للقتال، فهو لم يكن - بعمومه - متماسكاً في إطار طاعته، ومرتبطاً ارتباطاً مصيرياً بأوامره، جرّاء تربيته ومناقبياته، بل هو جيش للمسلمين عموماً، يلمّ توجهات فكرية متعددة، تجمعها ظروف وخصوصيات معينة، وتحدو بها رواسب قبلية وحسابات شخصية ومصلحية. فلم يكن جيشه نقيّاً تماماً -ما عدا

(١) العقاد، عباس محمود: عبقرية الإمام علي عليه السلام، من موسوعة العقّاد الإسلامية، مج٣، الكتاب الثاني، ص١٥٧-١٥٨.

(٢) قطب، سيد: العدالة الإجتماعية في الإسلام، ص٢١٣.

النخبة- وذلك لضيق الفرصة الزمنية للتربية والإعداد الجهادي المطلوب، فابتُلي الإمام بهم حقاً، وهذا ما سنعالجه في الفصل الرابع، أثناء تناول حروب الإمام وملابسات مرحلة المواجهة العسكرية.

المبحث الثالث

حماية وتطوير البناء الإيماني والجهادي

وفيه مطلبان، هما:

★ المطلب الأول : مواصلة أداء فريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ★

★ المطلب الثاني : التعاون الاجتماعي، وحماية الضعفاء والفقراء ★

المطلب الأول

مواصلة أداء فريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من أهداف التربية الجهادية عند الإمام علي، مواصلة تأدية الفريضتين الأساسيتين في الإسلام ألا وهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وذلك لضرورتهما الدينية، وأهميّتهما في الحياة، وبركاتهما على المسلمين - على المستوى الفردي والجمعي-.

سنتناول هذا المطلب ضمن المحاور التالية:

١• أهمية وخطورة الفريضتين.

٢• وسائل وطرق أداء الفريضتين.

٣• مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤• النفس نقطة البداية.

٥• نتائج ترك العمل بالفريضتين.

• أهمية وخطورة الفريضتين:

تتحدث آيات القرآن الكريم كثيراً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كفريضة واجبة من الفرائض الإسلامية على المسلمين، منها قوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[١]. ويؤكد المفسرون على أن «في هذه الآية دلالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعظم موقعهما ومحلهما من الدين، لأنه تعالى علّق الفلاح بهما، وأكثر المتكلمين على أنهما من فروض الكفايات»[٢]. والظاهر أنّ وجوبهما كفائي لا عيني، وهذا ما يفهم من مفاد الأمر في الآية الكريمة، المتعلق بوجود أمة من المسلمين أي جماعة تأمر وتنهى. وكما هو معلوم في علم أصول الفقه «إن الواجب العيني ما يتعلق بكل مكلف ولا يسقط بفعل الغير [كالصلاة والصوم]، ويقابله الواجب الكفائي وهو المطلوب فيه وجوب [أداء] الفعل من أي مكلف كان. فهو يجب على جميع المكلفين، ولكن يكتفى بفعل بعضهم فيسقط عن الآخرين ولا يستحق العقاب بتركه. نعم إذا تركوه جميعاً من دون أن يقوم به واحد، فالجميع منهم يستحقون العقاب، كما يستحق الثواب كل من اشترك في فعله. [ويقدّم الشيخ المظفر أمثلة على الواجب الكفائي ويقول]: ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٣].

ونظراً لأهمية وخطورة الفريضتين، أولى الإمام اهتماماً كبيراً بهما، لذلك احتلتا موقعاً مهماً في كلامه وحِكمه، فمثلاً، حينما سُئل عن الإيمان، فقال: «الإيمانُ على أربعِ دعائمَ: على الصَّبْرِ، واليقينِ، والعدلِ، والجهادِ.. والجهاد منها على أربعِ شُعَبٍ: على

(١) آل عمران ٣/ ١٠٤.

(٢) الطبرسي، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، المجلد الثاني، ج٤، ص ١٦٠.

(٣) المظفر، الشيخ محمد رضا: أصول الفقه، المجلد الأول، ج١، ط٢، ص ٩٢-٩٣.

الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصِّدق في المواطن، وشَنَآن الفاسقين: فمن أمر بالمعروف شدّ ظهورَ المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغَمَ أنوفَ الكافرين..»[١]. فالذي يأمر بالمعروف سيساهم في إظهار قوة المؤمنين «لأنه كلما كثر العدد أشتد الأمر وقوي. «ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين» أي أذلهم لأنهم هم أصل المنكرات»[٢]. ولبيان خطورة الفريضتين وموقعهما من الفروض الأخرى يقول: «وما أعمالُ البرِّ كلّها والجهادُ في سبيل الله، عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلّا كَنَفْثَةٍ في بحرٍّ لُجِّيٍّ..»[٣]. «وذلك لأن بهذين يبقى الدين مستمراً، بينما أعمال البر كلها تترتب عليها، والجهاد لولاهما يذهب هدراً»[٤]. ومن هنا يكون «من السهل علينا أن نفهم الوجه في تقديم هذه الفريضة على غيرهما، إذا لاحظنا أن أعمال البر تأتي في المرتبة بعد استقامة المجتمع وصلاحه المبدئي - الشرعي والأخلاقي- وأن الجهاد لا يكون ناجعاً إلّا إذا قام به جيش [عقدي]، وهذه كلها تتفرع من الوعي المجتمعي للشريعة والأخلاق، ومن الحدّ الأدنى للالتزام المسلكي بهما»[٥].

---

(١) باب الحكم: رقم ٣١.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج ٤ ص ٢٨٣-٢٨٤.

(٣) باب الحكم، رقم ٣٧٤. النفثة - كالنفخة- نَفَثَ نفثاً: نَفَخَ. لُجّي، المنسوب على اللُّجة: معظم البحر، كثير تردد الموج. أنيس، د.إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، مج٢، باب النون، ص٩٣٧. وباب اللام، ص٨١٦.

(٤) الشيرازي: السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٤ ص ٤٤٦.

(٥) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: حركة التاريخ عند الإمام علي، ص ١١٦.

ولأهمية الفريضتين في المنهجية التربوية لدى الإمام، نلاحظ تأكيداته عليهما، حتى في وصيته الأخيرة لولديه الإمامين الحسن والحسين وهو على فراش شهادته، محذراً من تركهما الذي سينتهي بتولي الأشرار على شؤون المسلمين، حيث قال: «أوصيكما وجميعَ ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي.. لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولّى عليكم شرارُكم..»[١]. بينما يجني الناس ثمار تطبيقهما باستمرار الاستقامة والصلاح، لذلك قال عليه السلام: «فرض الله.. والأمر بالمعروف مصلحةً للعوام، والنهي عن المنكر رَدْعاً للسفهاء»[٢]. فالناس معرّضون للوقوع في آثام ترك الواجبات، وارتكاب المحرمات، جهلاً أو غفلةً، أو طغياناً. فبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سيتمكن الناس من الحصول على البصيرة والوعي للوقوف عند الحدود الشرعية، وفي حالة وقوعهم بالآثام ستفتح عليهم - بهاتين الفريضتين - أبواب التوبة والرحمة، للعودة إلى الطاعة والعمل الصالح.

● **وسائل وطرق أداء الفريضتين:**

يبين الإمام عدة وسائل وطرق للوصول إلى هدفية أداء الفريضتين، على المستوى الفردي والجماعي، بالقلب واللسان، واليد، وذلك بتوجيه النصائح والمواعظ في الأحاديث الخاصة أو التوجيه العام. مستفيداً من عِبر ودروس التاريخ بما يتناسب مع الظروف الموضوعية للحالة الإيمانية والإنسانية السائدة في

(١) باب الرسائل، رقم ٤٧.

(٢) باب الحكم، رقم ٢٥٢.

المجتمع. فينقلنا الإمام إلى تلك الساحات والتجارب الماضية لنتعايش معها بفكرنا وعواطفنا، بوعينا وقلوبنا، لتتحول إلى دروس غنيّة بالتوجيه والإرشاد. يقول في خطبته (الغرّاء): «.. وقدّر لكم أعماراً سترها عنكم، وخلّف لكم عِبَراً من آثار الماضين قبلكم..»[١]. أي «جعل سبحانه لكم من آثار الأولين تبصرة ومزدجراً عن معصيته إن كنتم تعقلون»[٢]. كان الإمام حريصاً لتكريس قيم الإسلام في قلوب الناس - عن طريق تلك المواعظ والنصائح - فأعطت وصاياه وخطبه طاقة فعّالة في شعور الأمة، تحصّنها من الانحراف، وتمسكها على جادة الحق خوف الانفلات والضياع. ومما لا يخفى أنّ نصوص نهج البلاغة -خصوصاً في إطار المواعظ - لا بد أن تدرس بأجوائها البيئية والاجتماعية والنفسية السائدة. بالرغم من أنها تعالج أزمات نفسية عامة وعلى مر العصور، ولكن التأكيدات الكثيرة جاءت متناسبة مع الواقع الإسلامي، حين استلام الإمام للخلافة الإسلامية. فأكد عليه السلام على التوجه نحو بناء الآخرة، وأن ينظر الإنسان إلى الدنيا نظر الرّاحل عنها، باعتبارها زائلة بلذاتها وطموحاتها، وأن يأخذ الإنسان بالطرق المشروعة ما يشبع حاجياته وغرائزه، من دون التعلّق والتشبث بها، وأن ينبذ التكبر ويبتعد عن الفوارق الطبقية والعصبيات الجاهلية، كل ذلك عبر أداء الفريضتين، للعودة إلى أصول الإسلام المحمدي. يقول الإمام عليه السلام: «أيُّها الناس: إن أخوفَ ما أخافُ عليكم اثنان: اتِّباعُ الهَوَى، وطولُ الأمل، فأمّا اتِّباع الهوى فيصدُّ عن الحقِّ، وأمّا طولُ

(١) باب الخطب، رقم ٨٣. وهي الخطبة العجيبة وتسمى الغرّاء، المقطع السابع (التذكير بضروب النعيم).

(٢) مغنية، الشيخ محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج١، ص ٣٩٧.

الأمَلِ فيُنْسي الآخرةَ. ألا وإنَّ الدنيا قد ولّتْ حذّاءَ، فلم يَبْقَ منها إلّا صُبابةٌ كصُبابة الإناء اصْطبَّها صابُّها. ألا وإنّ الآخرة قد أقبلت، ولكلٍّ منهما بنونَ، فكونوا من أبناء الآخرة..»[١]. فإنْ كان «العمل للدنيا على نحو يوجب ضمور الحس الأخلاقي في النفس، وعلى نحو يوجب تزييف الواقع وحسبان الخلود، ممّا يوجب نسيان الآخرة، والاندفاع في حياة مادية، تجرد الإنسان من معناه الإنساني، لتحيله إلى مجرد آلة لجمع النقود والاستمتاع، هذا العمل شرّ كله، لأنه يفسد الشخصية الإنسانية ويهبط بها»[٢].

لا للرهبنة، نعم للدنيا في طريق الآخرة:

كان عليه السلام يذكّر المسلمين بالموت والرحيل من الدنيا لتتهذب اندفاعات النفس نحو طلب الدنيا. وهذا لا يعني أن الإمام يدعونا إلى الرهبنة والعزوف المطلق عن الدنيا. فقد قال في إحدى حكمه: «خُذْ من الدُّنيا ما أتاك، وتولَّ عمّا تولّى عنك، فإنْ أنت لم تفعل فأجْمِلْ في الطَّلب»[٣]. «أي ليكن طلبك طلباً جميلاً، لا قبيحاً، كطلب الحريص، والطلب الذي يوجب العقاب»[٤]. ولعل في كلامه عليه السلام مع العلاء بن زياد الحارثي - وهو من أصحابه - ومع

---

(١) باب الخطب، رقم ٤٢. الحذّاء - بالتشديد - الماضية السريعة، وقد رويت (جذّاء) بالجيم، أي انقطع خيرُها ودرُّها. الصُّبابة -بالضم- البقية من الماء واللبن في الإناء. اصطبها صابُّها: كقولك: أبقاها مبقيها، أو تركها تاركها. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص١١٥.

(٢) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ط٤، ص ٣٩٥.

(٣) باب الحكم، رقم ٣٩٣.

(٤) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٤، ص ٤٥٤.

أخيه عاصم، خير شاهد على رؤيته المتوازنة ومعالجته الواقعية لأزمات المجتمع الإسلامي حيث كانت تتجاذبها حالة الإفراط والتفريط. ففي البصرة، وقد دخل على العلاء يعوده، فلما رأى سعة داره قال: «ما كنتَ تصنعُ بسعةِ هذهِ الدار في الدنيا، وأنت إليها في الآخرة كنتَ أحوجَ؟ وبَلى إن شئت بلغتَ بها الآخرة: تَقْري فيها الضيف، وتَصِلُ فيها الرَّحِمَ، وتُطْلِعُ منها الحقوق مطالعها، فإذاً أنت قد بلغت بها الآخرة».

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد. قال: وما له؟ قال: لبس العباءة وتخلّى عن الدنيا قال: عليّ به. فلما جاء قال: «يا عُدَيَّ نفسِه! لقد اسْتهامَ بك الخبيثُ! أما رحمْتَ أهلك وَوَلَدك! أترى الله أحلَّ لك الطيباتِ، وهو يكره أن تأخذَها! أنت أهونُ على الله من ذلك!»[1].

لقد كانت أساليب الإمام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشمل الحديث الصريح والمباشر، كما مرّ في قصة العلاء وأخيه عاصم. وما كان يخلو أسلوبه من التعنيف أيضاً لغرض إحداث هزّة داخلية في الإنسان ليعود إلى رشده. فقد قال في صفات الغافلين وعظة الناس: «.. إنّي أحذِّركم، ونفسي، هذه المنزلةَ، فلينتفع امْرؤٌ بنفسه، فإنّما البصيرُ من سمِع فتفكَّرَ، ونظَر فأبْصَرَ، وانْتفعَ بالعِبَرِ.. فأفِقْ أيُّها السّامعُ من سَكْرتك، واسْتيقِظْ من غَفْلتك، واخْتَصِر من عجلتِك، وأنْعِم الفكرَ فيما جاءك على لسان النبي الأمي ﷺ، ممّا لا بُدَّ منه ولا محيصَ عنه.. وَضَعْ فخرك، واحْطُطْ

(١) باب الخطب، رقم ٢٠٩. عُدَيّ: تصغير عدو.

كبرَك، واذْكُر قبرَك، فإنّ عليه ممرَّك، وكما تَدينُ تُدانُ، وكما تَزرعُ تحَصُدُ..»[١].

فإذاً كان الإمام يتّبع ما يصلح شأن المسلمين من وسائل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد قال عليه السلام في وصيته لولده الحسن: «..وَأمُرْ بالمعروفِ تكنْ من أهله، وأنْكِرِ المنكر بيدك ولسانك، وبايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بجُهدِك..»[٢]. ومعنى «وأنكر المنكر بيدك ولسانك» أي قولاً وعملاً، «وباين» «أي: فارق وابتعد عن «من فعَله» أي فعل المنكر «بجهدك» أي بكل ما تقدر عليه من الجهد»[٣]. وأسلوب الابتعاد عن مرتكبي المنكر والإعراض عنهم واحتقارهم من الأساليب التأديبية لهم، لعلهم ينتبهون. وأما مع السلطان الجائر فلا بد من امتلاك الشجاعة وإطلاق كلمة العدل في وجهه، فقد قال: «..وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقرّبان من أجل، ولا ينقصان من رزق، وأفضل من ذلك كله كلمةُ عدلٍ عند إمامٍ جائر»[٤].

- **مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

لأداء الفريضتين عدة مراتب متدرجة، تبدأ أولاً بالقلب وتتطور إلى اللسان، ثم تبلغ الذروة في طلب التغيير العملي باليد. ولكل مرتبة من هذه المراتب أسبابها وظروفها وأساليبها. كما وتعكس آثارها النفسية والعملية، بدرجات متباينة أيضاً على كلّ من الآمر والمأمور.

---

(١) باب الخطب، رقم ١٥٣.

(٢) باب الرسائل، رقم ٣١. مقطع (احي قلبك بالموعظة).

(٣) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٠.

(٤) باب الحكم، رقم ٣٧٤.

وهذه الحالة التعددّية في أداء هاتين الفريضتين، تدل على المرونة في مسألة التعاطي في أداء هاتين الفريضتين، وذلك وفق القدرات الخاصة والظروف المناسبة للطرفين معاً بشكل عام، والأهم من ذلك، تتحدد المرتبة المطلوبة وفق الحاجة إليها - حسب وعي المؤدّي لهما - وقدرة استيعاب وتفاعل المتلقي للأمر والنهي. فثمّة شخص تغيّره تطلعات القلب في الدعاء والرجاء، وثمّة آخر تصلحه الكلمة، وربما لا يتغيّر إنسان إلا بأساليب القوة. ولكل مرتبة فضلها وأجرها عند الله، وأثرها الاجتماعي والإصلاحي. قال الإمام لأصحابه يوم الالتقاء بأهل الشام: «أيّها المؤمنون، إنَّه من رأى عُدْواناً يُعْمَلُ به ومنكراً يُدعى إليه، فأنكَره بقلبه فقد سَلِم وبرئ، ومن أنكره بلسانه فقد أُجر، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمةُ الله هي العليا وكلمةُ الظالمين هي السفلى، فذلك الذي أصابَ سبيلَ الهدى، وقام على الطريق، ونَوَّرَ في قلبهِ اليقينُ»[١].

فالإنكار القلبي يتم بالمرتبة البدائية، فالذي يؤدي الفريضة بهذه المرتبة «فقد سلم»، «من العقاب «وبرئ» عن الإثم، إذا كان منتهى قدرته ذلك، «ومن أنكره بلسانه فقد أجر» أي أعطاه الله الأجر «وهو أفضل من صاحبه» لأنه أنكر المنكر [علناً وصراحةً]. ومن «أنكره بالسيف» بأن حارب فاعل المنكر - فيما إذا قدر على ذلك- . . . «فذلك» الإنسان هو «الذي أصاب سبيل الهدى» أي وصل إليه «وقام» أي استقام «على الطريق» الموجب للوصول إلى السعادة الأبدية»[٢].

---

(١) باب الحكم، رقم ٣٧٣.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٤، ص ٤٤٤.

كمال الأداء أو ميّت الأحياء:

إن المرتبة الكاملة لأداء الفريضتين «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» هي التي تتم بمراتبها الثلاث على ضوء تطور الحاجة للعلاج المناسب. وإنما الإيمان بها ككل وتنفيذها في وقتها إنما يدل على الوعي الإيماني المتكامل، بينما الذي يترك العمل بكافة المراتب، فهو ميت الأحياء في منطق الإمام علي، حيث يقول: «فمنهُمُ المنِكرُ للمنكِر بيدِهِ ولسانِه وقلبهِ، فذلك المسْتكملُ لخصال الخير، ومنهُمُ المنكِر بلسانه وقلبه والتّاركُ بيده، فذلك متمسِّكٌ بخصلتين من خصال الخير ومُضيِّعٌ خَصلةً، ومنهُمُ المنكر بقلبه، والتّاركُ بيده ولسانه، فذلك الذي ضيَّع أشرفَ الخَصْلتينِ من الثَّلاثِ، وتمسَّكَ بواحدةٍ، ومنهمُ تارك لإنكارِ المنكَر بلسانه وقلبه ويده، فذلك ميِّتُ الأحياءِ»[١]. فإن ضياع أشرف الخصلتين بترك العمل باليد واللسان في إنكار المنكر، «وأشرف الخصلتين من إضافة الصفة للموصوف أي الخصلتين الفائقتين في الشرف عن الثالثة، وليس من قبيل إضافة اسم التفضيل إلى متعدد»[٢]. لذلك يستهدف أعداء الحق في مواجهتهم للمؤمنين أشرف الخصال الثلاث بالمرتبة الأولى ليشلوا جهاد وكفاح أصحاب الحق، فيفقدوا القدرة الماكنة باستخدام القوة، ثم في المرتبة الثانية يستهدفون الخطاب والإعلام، وأخيراً يغزون قلوب المؤمنين، فتنتكس القيم الإسلامية في حينها - لا سَمَحَ الله - لذلك يقول الإمام محذراً أصحابه المؤمنين: «أوّلُ ما تُغْلَبُونَ عليه من الجهاد الجهادُ بأيديكم، ثمّ بألسنتكم، ثم بقلوبكم، فمن لم يعرِفْ

(١) باب الحكم، رقم ٣٧٤.

(٢) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ص ٢٣٥.

بقلبه معروفاً، ولم ينُكرْ منكراً، قُلِبَ فجُعِلَ أعلاهُ أسفلَه، وأسفلُهُ أعلاهُ»[١].

ففي البداية وتحت ذرائع نبذ العنف ومحاربة الإرهاب، «يمنعونكم من الحرب ضد أهل الكفر والفسق «ثم بألسنتكم» فلا يدَعونكم تتكلمون بالحق أمراً ونهياً وإرشاداً، «ثم بقلوبكم» إذ يصرفونكم عن المعروف ويحثونكم إلى المنكر، حتى لا تنكروا منكراً، ولا تعرفوا معروفاً - كما صار في زماننا هذا-»[٢].

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن عدم إمكانية نيل أشرف الخصلتين - كما يقول الإمام عليه السلام - في أداء الواجب باليد واللسان، لا يعني استسلام الأمر القلبي تبعاً لذلك، وإنما في ظروف القهر والاستبداد وعدم إمكانية استخدام اليد واللسان في معركة الأمر والنهي، يتعيّن على المؤمنين استمرار أداء هاتين الفريضتين قلبياً وذلك أضعف الإيمان.

لا تعطيل ولا احتواء لهاتين الفريضتين في مختلف الظروف:

تبقى فريضتا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مستوعبة لمتغيرات الحياة وتطورها، وعلى ضوء تلك المتغيرات، تتطور أساليب أدائهما على مستوى الأمة كلها. ففي حالة قيام دولة إسلامية - في عصرنا الحالي- تتكامل الأدوار ما بين الأداء الرسمي والأداء الشعبي معاً للوصول إلى الهدف المنشود. وهنا يجدر بنا أن نتناول مسألة إمكانية قيام دولة إسلامية في زمن غياب المعصوم، ومن

(١) باب الحكم، رقم ٣٧٥.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٤، ص ٤٤٦.

يمتلك صلاحية قيادة الجهاد، وتنفيذ فريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأجل إقامة الدولة؟

إن الإجابة على هكذا أسئلة، توضح المسار القيادي للأمة في زمن الغيبة. ففي الوقت الذي تعتبر القيادة النائبة للإمام متمثلة بالفقهاء المراجع - لدى المسلمين الشيعة- يختلف الفقهاء المجتهدون أنفسهم في حدود صلاحية ولاية الفقيه. فالرأي المشهور يتمحور حول تصدّي الفقهاء لمهمة «توجيه حركة الأمة على كل المستويات الثقافية والاجتماعية والسياسية، وعلى ترشيد المواقف في مواجهة كل حالات التحدّي»[١]. هذا هو الإطار الايجابي العام الذي يحتاج إلى تفصيل يشرح الحدود، ناهيك عن الرؤية السلبية، التي تدعو إلى الانزواء وعدم الدخول في الحياة السياسية، معتمدة تأويلات خاصة، يقول الأستاذ حسن الصفار: «هنالك بعض الروايات في المصادر الشيعية، يؤدي العمل بظاهرها إلى انسحاب الشيعة من ساحة الحياة، وغيابهم عن معادلة الواقع، وكأن غيبة الإمام تعني تمجيد أحكام الإسلام، وشلّ فاعلية الأمة، وإيقاف الحركة والسعي نحو إقامة [دولة] الحق والعدل»[٢]. ويظهر لي إن هذا الرأي هو من الآراء الشاذة والمنقرضة حالياً، بينما تتمحور عقيدة الإمامية حول قيادة المرجع الفقيه في عصر الغيبة، يقول العلّامة الشيخ المظفر: «ليس معنى انتظار هذا المصلح المنقذ (المهدي)، أن يقف المسلمون مكتوفي الأيدي فيما يعود إلى الحق من دينهم، وما يجب عليهم من نصرته والجهاد في سبيله، والأخذ بأحكامه، والأمر

(١) الغريفي، السيد عبد الله: التشيّع، نشوءه - مراحله- مقوماته، ص٤٨٣.

(٢) الصفار، الشيخ حسن: الحضور في زمن الغيبة، ص٢٩.

بالمعروف والنهي عن المنكر. بل المسلم أبداً مكلف بالعمل بما أُنزل من الأحكام الشرعية، وواجب عليه السعي لمعرفتها على وجهها الصحيح بالطرق الموصلة إليها حقيقة، وواجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.. فلا يجوز له التأخر عن واجباته بمجرد الانتظار للمصلح المهدي والمبشر الهادي، فإن هذا لا يسقط تكليفاً، ولا يؤجل عملاً، ولا يجعل الناس هَملاً كالسوائم»[١].

وعليه تعود «صلاحية إتمام المشوار [القيادي] إلى الفقهاء العدول لتأسيس الدولة الإسلامية الصالحة، والفقيه المسؤول عن إدارة المجتمع المسلم..»[٢]. فالمسألة الخلافية في حجم صلاحية ولاية الفقيه، هل أنها تشمل تشكيل الحكومة لإدارة شؤون المسلمين؟ في الحقيقة هنالك ثلاثة اتجاهات يمكن تحديدها وهي:

«**الاتجاه الأول**: يضيّق دائرة هذه الولاية ويحددها ضمن:

أ • القضاء.

ب • رعاية شؤون القاصرين.

ج • إدارة شؤون الأوقاف العامة.

د • الأمور الحسبيّة.

الاتجاه الثاني: يعطي للفقهاء بالإضافة إلى المهام السابقة، صلاحية إقامة الحدود الشرعية في عصر الغيبة الكبرى كالقصاص وقطع يد السارق، ورجم الزاني وجلده.. الخ.

---

(١) المظفر، الشيخ محمد رضا: عقائد الأمامية، ص٧٩-٨٠.

(٢) النراقي، الشيخ أحمد: ولاية الفقيه، ص٩. في تقديم السيد ياسين الموسوي.

الاتجاه الثالث: يوسع دائرة ولاية الفقيه، فيعطي للفقهاء الولاية الشرعية العامة في شؤون المسلمين السياسية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية والحربية والتنظيمية والحياتية بشكل عام»[١].

وفي تقديري إن المسلمين الشيعة يؤمنون بولاية الفقيه بشكلٍ عام، لذلك يشترطون تقليد المرجع في العبادات، والمعاملات، كتصفية الحقوق المالية وتوزيع الإرث وشؤون الأوقاف وما شابه في كل الظروف، أما مسألة إقامة الحدود الشرعية فهي تعود إلى الظروف المناسبة لتنفيذها، وإني لأتذكر -في عهد الطفولة- كان عندنا في مدينة كربلاء للمرجع الفقيه المرحوم السيد مهدي الحسيني الشيرازي مكان خاص يدعى بالمحكمة لفضّ المنازعات والفصل بين المتخاصمين وهكذا بقية المراجع الدينية. أما المسألة الأهم فهي القيادة السياسية والجهادية للأمة، ومما لا شك فيه إنها مسؤولية كبيرة تحتاج بالإضافة إلى المؤهلات العلمية المفروض وجودها في الفقيه، توافر ما نسميه بالمؤهلات النفسية والتي نعني بها الشجاعة والإقدام على تحمّل هذه المسؤولية المصيرية في قيادة الأمة. وهذه المسألة مرتبطة بالظروف الواقعية التي تحدّد صلاحيتها في الوقت المناسب، وذلك لضمان النجاح أو الحكمة المرجوّة لصالح الإسلام والمسلمين.

إن رؤيتي الشخصية تتحدد ضمن مشروع إقامة حكم الله في الأرض، تحت راية المرجعية الدينية الساعية لقيادة المسيرة الجهادية والسياسية لتشكيل الحكومة الإسلامية، امتداداً لمسيرة أئمة أهل البيت. لأنهم «يمثلون نهجاً رسالياً ينطلق من أصالة القيم

(١) الغريفي، السيد عبد الله: التشيّع، نشوءه - مراحله- مقوماته، ص٤٨٦-٤٨٧.

الإلهية، ويحتضن عمق معارف الدين، ويحمي مصالح الأمة. وأتباع الأئمة يجب أن يحتذوا حذوهم، ويترسموا طريقهم، ويحفظوا نهجهم، حتى يصدق ادعاؤهم في الاتباع والمشايعة.

إن الأمة الإسلامية تواجه الآن أخطر التحديات في تاريخها، وشيعة أهل البيت جزء لا يتجزأ من هذه الأمة، وبحكم انتمائهم لأهل البيت يجب أن يكونوا في طليعة الأمة لمواجهة التحديات الخطيرة»[١].

يقول الإمام الخميني: «إن الإسلام هو دين المجاهدين الساعين للحق والعدالة، دين أولئك الذين ينشدون الحرية والاستقلال، إنه عقيدة المناضلين والمعادين للاستعمار»[٢].

ومن هنا ينتقد السيد الخميني تلك التصورات الخاطئة بتحجيم فريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأجيل فريضة الجهاد في زمن الغيبة، فيقول: «إن هذا التصور الخاطئ عن الإسلام.. والشكل الناقص الذي يعرض فيه الإسلام،.. هدفه سلب الخاصية الثورية والحياتية للإسلام، ومنع المسلمين من السعي للقيام والتحرك والثورة، ومن أن يكونوا محررين وساعين لتطبيق الأحكام الإسلامية، ومن أن يؤسسوا حكومة تؤمّن سعادتهم ويكوّنوا الحياة اللائقة بالإنسان. فكانوا يشيعون مثلاً: ان الإسلام ليس ديناً جامعاً، فهو ليس دين حياة، وليس فيه أنظمة وقوانين للمجتمع، ولم يأتِ

(١) الصفار، الشيخ حسن: الحضور في زمن الغيبة، ص٣٣-٣٤.

(٢) الخميني، الإمام: الحكومة الإسلامية -مقدمة حول صلاحيات الولي الفقيه-، ص٤٤.

بنظام وقوانين للحكم. الإسلام أحكام حيض ونفاس فحسب، وفيه بعض التوجيهات الأخلاقية أيضاً، لكن ليس فيه شيء يرتبط بالحياة وإدارة المجتمع، ومن المؤسف ان دعاياتهم السيئة هذه قد أثرت، وحالياً - فضلاً عن عامة الناس- فإن الطبقة المثقفة سواء من الجامعيين أو الكثير من [الحوزويين] لم يفهموا الإسلام جيداً. .»[١].

ويقول أيضاً: «إننا إذ نعتقد بالولاية، وبأن الرسول الأكرم ﷺ قد عيّن خليفة، وقد ألجأه الله إلى تعيين الخليفة وولي أمر المسلمين، فيجب أن نعتقد بضرورة تأسيس الحكومة الإسلامية ويجب [اليوم] أن نسعى لإقامة السلطة لتنفيذ الأحكام وإدارة الأمور. ان الجهاد من أجل إقامة الحكومة الإسلامية لازم للاعتقاد بالولاية. . انكم مكلفون بتأسيس الحكومة الإسلامية. .»[٢].

وعلى ما تقدم ففي عصر غيبة الإمام «يكون تشكيل الحكومة أمراً واجباً، والعقل يحكم بلزوم تشكيل الأجهزة أيضاً لتأمين القدرة على الدفاع فيما لو هوجمنا. . من الضروري وجود حكومة وجهاز قضائي وتنفيذي من اجل منع تعديات أفراد المجتمع على بعضهم البعض. . الصلاحيات التي كانت للرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام في تعبئة الجيوش، وتعيين الولاة والمحافظين، واستلام الضرائب وصرفها في مصالح المسلمين، قد أعطاها الله تعالى للحكومة المفترضة هذه الأيام. غاية

---

(١) المرجع ذاته، ص٤٤. الحوزات الدينية هي الأماكن التي يدرس فيها الطلبة علوم العربية والفقه الإسلامي، تقابلها الجامعات. للمزيد من الاطلاع راجع كتابنا: الحوزات والجامعات تقويم ومقارنة، طبع مؤسسة البلاغ، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

(٢) الخميني، الإمام: الحكومة الإسلامية، ص٥٦.

الأمر لم يعين شخصاً بالخصوص، وإنما أعطاه لعنوان العالِم العادل»[١].وبهذا المعنى يتم تفعيل أحكام الإسلام بصورة حيّة وواقعية على الأمة، ولتجد البشرية في هذا الدين الحنيف كل معاني الحياة والاستقرار والتحضر والتقدم. وأكررّ القول، بأنه مع قيام الدولة الإسلامية -أيضاً - لا تعطيل ولا احتواء لفريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إن علماء الدين الإسلامي، والحوزات التعليمية، والجامعات الإسلامية، والهيئات التربوية، والمؤسسات الخيرية والإصلاحية، وكذلك الأحزاب السياسية، وهكذا عموم المسلمين، لا تتعطل مسؤوليتهم الشرعية في أداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى في حالة قيام الدولة الإسلامية، فلا تُلغى ولا تحتوى ضمن التوجه الرسمي للدولة، فالعلاقات السياسية والاعتبارات الخاصة بحدود الدولة، لا توقف التواصل والتلاقي بين الشعوب الإسلامية، على مستوى أداء الفريضتين. ففي هذه الحالة، «تبرز أمام سلطة الداعين إلى الله أي سلطة الدولة القائمة، سلطة المجتمع المؤمن، هذه السلطة المشروعة هي التي تدفع بالدولة والمجتمع نحو التكامل ضمن خطة مشتركة ومتكاملة. إنها منهجية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . وأي مصادرة أو إلغاء لهذا الحق من قبل السلطة القائمة صاحبة القوة والنفوذ إنما هو عبث بتعاليم القرآن. . فلكلٍّ حقه ولكلٍّ حدوده»[٢]. يقول الإمام علي عليه السلام: «لا يَتْرُكُ النّاسُ

(١) المرجع نفسه، ص٨٥-٨٦.

(٢) مالك، الشيخ محمد جواد: حوار المعارضة، المشروعية والإشكاليات، مجلة البصائر، العدد ٢٧ السنة الرابعة عشر، ربيع ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣م. ص ٤٤-٤٦. =

شيئاً من أمْرِ دينِهم لاسْتصلاحِ دُنياهم إلّا فتحَ الله عليهم ما هو أضَرُّ منه»[١].

نعم في القضايا المصيرية، على الأمة كلها أن تنتظم تحت لواء الإمام العادل لإنكار المنكر باليد أي بالجهاد، «فإن الحالات الكبرى التي لا بد فيها من تدخل الحاكم العادل والأمة كلها، قد تبلغ درجة من الخطورة، لا بد فيها من الإنكار بالقلب واللسان، وأقصى حالات الإنكار باليد - أعني القتال-»[٢].

● **النفس نقطة البداية:**

إن الأداء المؤثر لهاتين الفريضتين ينطلق من النفس، حيث إن القناعة الذاتية بالمبادئ الحقة، هي التي توفر للإنسان والمجتمع معاً، المناخ الإيجابي لأدائهما، حسب المراتب المطلوبة. لأن الإسلام دين الحياة وهو رحمة لكافة البشر، يأمر أبناءه بنشر العدل والفضيلة والصلاح داخل المجتمع الإسلامي، وبالعلاقات مع المجتمعات الأخرى.

إن المسلم الذي يؤدي فريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما يكشف عن قناعته النفسية بالإسلام، واستيعابه لأهداف الرسالة، ولو بحدوده النسبية، في حماية حقوق المسلمين وإنقاذ

= وهو بحث ألقي في مؤتمر العودة إلى القرآن، (السابع) الذي عقد في دمشق. وذلك في ٢٧/ رجب ١٤٢٣هـ / ٥تشرين الأول ٢٠٠٢م، بعنوان: حوار المعارضة في القرآن الكريم، المشروعية والإشكاليات.

(١) باب الحكم، رقم ١٠٦.

(٢) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: حركة التاريخ عند الإمام علي، ص ١١٧-١١٨.

الناس من الظلمات إلى النور، ومن الظلم إلى العدل، وكلما تطوّرت مراتب الفريضتين، ينمو تصاعدياً في تحمل المسؤولية. ويعني أيضاً الدخول الفعلي في مجال النفوذ الإيماني، حيث يتعامل مع تعاليم الإسلام أخذاً ثم عطاءً للآخرين بالتوجيه والإرشاد، فتتكامل الدورة التربوية لديه. كما وأن أداء الفريضتين من قبل المسلم، يعدّ تلقيناً ذاتياً لمفاهيم الدين، وبه تتكرس الأسس والقيم والمبادئ في النفس، وهكذا كلما يزداد الإنسان إيماناً يزداد عطاءً خيّراً من وحي مسؤوليته الشرعية باتجاه تصحيح الانحراف، وزرع الاستقامة. من هنا جاء في وصية الإمام علي لولده الإمام الحسن قوله: «..وأْمُر بالمعروف تكُنْ من أهله»[١]. وقال في خطبة له: «..وانْهوا عن المنكَر وتناهَوْا عنه، فإنّما أمِرْتُمْ بالنهي بعد التّناهي!»[٢]. ومعنى ذلك «إن النهي عن الشيء إنما يؤثر بعد أن يتناهى الإنسان - بنفسه - عن ذلك الشيء، قال سبحانه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾»[٣].

المعيار هو الصدق:

الإنسان المتصالح مع نفسه، والصادق مع مبادئه، يتحمل مسؤوليته الشرعية عن قناعة، فتخرج مواعظه وإرشاداته ومواقفه الجهادية بحرارة القيم لتستقر في أعماق المتلقين، فتفعل فعلها نحو التغيير والإصلاح، بينما الإنسان غير الصادق، لا يؤثر ذلك التأثير في

---

(١) باب الرسائل، رقم ٣١. مقطع (أحي قلبك بالموعظة).

(٢) باب الخطب، رقم ١٠٥. في نهايتها.

(٣) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص ١٥٨. والآية المباركة من سورة الصف ٦١/ ٢.

النفوس، وحينما يُكتشف على واقعه المخادع، يضر بسمعة الإسلام والمسلمين. لذلك نلاحظ في منهجية الإمام صرامة ملحوظة لفضح هذه الطبقة خصوصاً إذا كانت في مواقع النخبة من المجتمع، ومحل أنظار الناس، فكان يفضح أسلوب هذه الطبقة التي تعلن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لساناً، لا قلباً ولا عملاً، «فتتخذ مواقف لفظية.. دون أن تترجم ذلك إلى أفعال وممارسة عملية، شأنها في ذلك شأن الكثير ممّن يسترون خياناتهم وأنانيتهم وحرصهم على المتاع الدنيوي بالمواقف الأخلاقية اللفظية. ولكن الإمام.. كان يفضح هذه المواقف المنافقة بقسوة»[١].

وقد أثبت لنا الشريف الرضي في نهج البلاغة نصوصاً كثيرة للإمام يلوم هذه الطبقة المخادعة خصوصاً ويلوم الأمة أيضاً على سلوكية التراخي وعدم المبالاة بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله. وللمثال نذكر قوله: «..ظَهَر الفسادُ، فلا مُنكِرٌ مغيِّرٌ، ولا زاجِرٌ مُزدجِرٌ. أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قُدْسِهِ، وتكونوا أعزَّ أوليائه عنده؟ هيهات! لا يُخْدَعُ الله عن جنّته، ولا تُنالُ مرضاتُه إلّا بطاعته. لعن الله الآمرينَ بالمعروفِ التاركين له، والنّاهين عن المنكر العاملينَ به!»[٢]. و«هيهات» «كلمة استبعاد، بمعنى لا يكون ذلك. «لا يخدع الله عن جنته» بأن يخدعه الإنسان ببعض ظواهر يأتي بها لأخذ الجنة.. «لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به»، وهذا من صفات

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: حركة التاريخ عند الإمام علي، ص ١٢٧.
(٢) باب الخطب، رقم ١٢٩.

المنافقين يأمرون وينهون لعدم الصعوبة في ذلك، لكنهم لا يأتمرون بما يأمرون ولا ينتهون عمّا ينهون، لصعوبة العمل»[١].

وهنا - من حقنا- أن نسأل: كيف نفسّر ظهور الفساد، وشيوعه بتعطيل الفريضتين، بينما العدالة قائمة في عهد أمير المؤمنين الحاكم بما أنزل الله؟

الحقيقة أنّ انتشار الفساد مرهون بترك الفريضتين، ففي حالة الترك، أو الالتفاف عليهما بالحيلة والخديعة، يظهر الخطر الذي يهدّد التماسك المبدئي للأمة، فتمتد أذرع الفساد لتشمل تفاصيل الحياة الفكرية والعملية، ممّا يكرّس روح الأنانية، وكره الآخرين، بينما تأمرنا الشريعة السمحاء بمحبة الناس ونبذ الأنانية، فقد قال منقذ البشرية الرسول محمد ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه..»[٢]. «لا يبلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يحبّ للناس ما يحب لنفسه»[٣]. وقال الإمام علي لولده الحسن: «يا بُنيَّ اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحببْ لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها»[٤]. فعدم الاختلاط بالناس، والصبر على أذاهم، لغرض

---

(١) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) صحيح البخاري، ج١، ٢- كتاب الإيمان، ٦- باب (من الإيمان أن يحب لأخيه..» ص١٤، عن قتادة عن أنس بن مالك وكذلك عن حسين المعلم عن قتادة عن أنس. مطبعة الهندي. ضبط الدكتور مصطفى البُغا.

(٣) المتقي الهندي، علاء الدين: كنز العمّال، ج١، ورقم ١٠٤. العسقلاني، ابن حجر فتح الباري مج١، ص٦٨ روى ابن حبان من رواية ابن أبي عدي عن حسين المعلم عن قتادة عن أنس بلفظ: «لا يبلغ عبد..». فقال: «ومعنى الحقيقة هنا الكمال، ضرورة أن من لم يتصف بهذه الصفة لا يكون كافراً».

(٤) باب الرسائل، رقم ٣١، بداية المقطع.

الإصلاح، يعني بروز عقبة خطيرة في طريق العملية الإصلاحية التي قادها الإمام في عهده. ومن الواضح أنّ هذه الحالة السلبية تدل على ضعف الإحساس بجدوائية الإصلاح، نتيجةً لضعف الإيمان، أو لشدة الانغماس في كسب ملذات الحياة المادية على حساب متطلبات العقيدة. وهذا الضعف ناتج من عدم تبلور الوعي الإيماني في النفوس بالشكل المطلوب، لدى عموم المسلمين، وذلك لسوء السريرة، ولعدم توفيقهم في الاستجابة لدعوات التربية الإصلاحية والجهادية. وهو انعكاس لتراكمات سلبية ماضية، تلاقحت مع ما خلّفته الحروب -في عهده - من أزمات اجتماعية ونفسية حادة، خلقت مناخاً عاماً يدفع باتجاه الاحتيال والالتفاف على المبادئ، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1]. وهكذا ينبه الإمام «على أنهم وإن كان فيهم من ينكر ويزدجر، إلّا أنه لا يغيّر ما ينكره، ولا يزدجر عن مثله، وذلك من قبائح الأعمال»[2]. وانه لا تنال مرضات الله ﷻ إلّا بالطاعة المخلصة لا الشكلية.

وهنا نتلمّس طموح الإمام، الحريص على واقع الأمة ومستقبلها، وذلك في مكاشفته التربوية لهذا النمط الخادع من التعامل مع هاتين الفريضتين ومحاولته الإصلاحية الجادّة في إزالة هذه العقبة من الطريق، فيأخذ بأيدي الناس إلى إصلاح ذواتهم، ليبلغوا ذروة الإخلاص في الإيمان والطاعة، ويكونوا من أعزّ الأولياء، كما قال: «أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في قدسه، وتكونوا أعزّ أوليائه عنده؟».

---

(١) سورة البقرة، ٢/ ٤٤.

(٢) البحراني، كمال الدين بن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١٣٥-١٣٦.

هذا، ويوجه الإمام استحقاق غضب الله ولعنته، نحو المخادع المحتال في أداء الفريضتين، وهو الذي يؤديهما باللسان دون العمل، مما يشجع على إشاعة الفساد وشموله لمناحي الحياة، وذلك لأن الفساد إذا بدأ - دون معالجة رادعة- سوف يتوسع شيئاً فشيئاً، ليتناول سائر المعاملات كالبيع والشراء وغيرهما، ومن هنا كان موضوع هذه الخطبة حسب عنوانها: «في ذكر المكاييل والموازين». لأن انتهاكات المبادئ الشرعية ستتزايد بتراكم بواطن الإثم، حتى يتم الانقضاض على بناء الإيمان - المزعوم- في القلب، الذي يرى نيل رضا الله وجنته بتلك الخديعة. لذلك قال: «لا يخدع الله عن جنته».

ولنا في الإمام أسوة حسنة:

فهو الذي لا يقْدم على أمر إلّا وطبّقه على نفسه حيث يقول: «أيُّها النّاسُ، إنِّي والله، ما أحُثُّكُمْ على طاعةٍ إلّا وأسبقُكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلّا وأتناهى قبلكم عنها»[(١)]. وفي حكمة له يقول: «من نصَبَ نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وْليَكُنْ تأديبُه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلّمُ نفسه ومؤدِّبُها أحقُّ بالإجلال من معلّم الناس ومؤدِّبهم»[(٢)].

ويوضح الإمام لنا حقيقة إيمانية بأن الأرزاق بيد الله لا بيد الحكّام، وأن الاعمار كذلك بيد الله لا بيد السلاطين، ليدفع عوامل الخوف والفزع والحسابات الدنيوية أمام أداء الفريضتين فيقول: «وإنّ

(١) باب الخطب، رقم ١٧٥.

(٢) باب الحكم، رقم ٧٣.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يُقرّبان من أجل، ولا ينَقصان من رزق، وأفضلُ من ذلك كله كلمةُ عدلٍ عند سلطان جائر»[١].

● **نتائج ترك العمل بالفريضتين:**

ستواجه الأمة الإسلامية في هذه الحالة نتائج وخيمة، تعكس غضب الله تعالى على عموم الأمة، فولاية الأمة ستكون بيد الأشرار الذين يعيثون في البلاد والعباد، ناراً ودماراً، وان الله لا يستجيب الدعاء -حينذاك-، وانعكاسات ذلك ستظهر في أزمات نفسية وخلقية واجتماعية واقتصادية خانقة يقول الإمام: «لا تَتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيُولّى عليكم شِرارُكم، ثم تدعون فلا يستجابُ لكم»[٢]. وان اللعنة الإلهية تكون شاملة للجميع، لذلك يقول: «. . وإن عندكم الأمثالَ من بأسِ الله وقوارعه، وأيامه ووقائعه، فلا تستبطِئوا وعيدَه جَهْلاً بأخذه، وتهاوناً ببطشه، وبأساً من بأسه، فإنَّ اللهَ سبحانه لم يَلْعَن القَرْنَ الماضي بين أيدِيكم إلّا لتَرْكهُمُ الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، فلعنَ اللهُ السفهاءَ لركوبِ المعاصي، والحُلَماءَ لتركِ التّناهي!»[٣]. وبذلك يقدّم الإمام دليلاً تاريخياً معروفاً لهم، في أمم الأنبياء السابقين، فهو، «تذكير لهم بما ضرب الله لهم من الأمثال بالقرون الماضية[٤]. وما أصابهم من بأس الله وقوارعه

(١) باب الحكم، رقم ٣٧٤.

(٢) باب الرسائل، رقم ٤٧.

(٣) باب الخطب، رقم ١٩٢. (تسمى القاصعة) مقطع (لوم العصاة).

(٤) (القرون الماضية) بصيغة الجمع وردت أيضاً. راجع التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٤٨٩.

وهي الدواهي العظام، وأيامه، وهي كناية عن الأيام التي أوقع الله بهم فيها عقوباته وبأسه حين استعدوا لذلك بمعصيته، وتهديد لهم بذلك إن خالفوا أمره.. وكانوا بمعصيتهم كالمستبطئين للوعيد، فأطلق في حقهم لفظه الاستبطاء ونهاهم عنه.. [وهو] تنبيه لهم على أن لعنة الله للقرن الماضي بين أيديهم قبل الإسلام كان لازماً مساوياً لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منحصراً فيه، وكانت لعنته لسفهائهم وناقصي عقولهم لركوبهم المعاصي المنكرة، وأمّا للحكماء منهم ولذوي العقول فلعدم إنكارهم وتناهيهم عمّا يشاهدونه من ذلك المنكر»[١]. فهو السبب الموجب لغضب الله سبحانه وتعالى ولعنته عليهم، وبذلك ندرك أن الإسلام هو دين الحياة الفاضلة، فلا يكتفي بترك المنكر من قبل المسلمين، وإنما يأمرهم بالانطلاق نحو الآخرين لغرض إصلاحهم، وذلك عبر وسائل الجهاد المتناسبة مع حالتهم المعيّنة، حتى تصل إلى درجة الجهاد الحربي. والإمام بهذا الطرح، والإحاطة التاريخية بالموضوع يرصد هدفه التربوي بدقة، حيث إنه يحمّل المسلمين المتلقين لكلامه مسؤولية جهاد الأعداء وقتالهم، فقد قال في تكملة الخطبة: «ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث والفساد في الأرض..». هذا، ويوضح الشيخ شمس الدين معنى اللعن، بقوله: «واللعن ليس هنا عقاباً روحياً وأُخروياً فقط، إنه هنا يأخذ معنىً سياسياً، إن اللعن هو البعد عن رحمة الله ورعايته، وهذا يعني أن الملعون يتعرّض للنكبات السياسية والاجتماعية التي تؤدي بهم في النهاية إلى الانحطاط والانهيار»[٢]. وفي خطبة أخرى

---

(١) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٢٨٠-٢٨١.

(٢) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: حركة التاريخ عند الإمام علي، ص ١٣٠.

يذكر عليه السلام نموذجاً تاريخياً واضحاً من القرآن الكريم، كشاهدٍ على تعميم العذاب الإلهي، وذلك في تجربة النبي صالح عليه السلام مع قومه ثمود، حيث انبعث أشقى القوم، وقتل الناقة -بمفرده - التي حذّرهم النبيُّ من قتلها، فأنزل الله عذابه عليهم جميعاً «لأنهم رضوا جميعاً به وحثوا عليه، وكانوا قد اقترحوا تلك الآية فاستحقوا بما ارتكبوه من العصيان والطغيان عذاب الاستئصال»[١].يقول الإمام: «وإنّما عقَرَ ناقةَ ثمودَ رجلٌ واحد فعمَّهُمُ اللهُ بالعذاب لمّا عَمُّوه بالرضى..»[٢]. لأن الأكثرية الصامتة على المنكر والراضية به، آثرت حياة الذل والاستكانة حينما فضلّت ترك الواجب الشرعي بحثاً عن السلامة الطويلة في وهم الدنيا.

وهنالك محظور مستقبلي آخر، يتمثل بصراع الأجيال، فإن لم تُسلّم الأمانة إلى الجيل الصاعد بالأمر والنهي، فسوف ينظر قسط من الجيل الجديد إلى الإسلام نظرة هامشيّة، خصوصاً لو هاجر ودرس وعمل في أجواء غير إسلامية، فسيعود بروح متمردة على قيم الأمة، وبعضهم يحاول تطبيق الإسلام ولكن بمقاييس خاصة بهم، وحينها تنقلب الموازين، لذلك يقول الإمام: «وإنّه سيأتي عليكم من بعدي زمانٌ ليس فيه شيءٌ أخفى من الحقّ، ولا أظهرَ من الباطل، ولا أكثرَ من الكَذِبَ على الله ورسوله.. ولا في البلاد شيءٌ أنكر من المعروف، ولا أعْرَفَ من المنكر!.. فالكتاب وأهلُهُ في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم! لأن الضّلالة لا توافقُ الهدى، وإن

(١) الطبرسي، الفضل بن الحسن: مجمع البيان، مج٦، ج٣٠، ص١٥٤. تفسير سورة الشمس -آخر صفحة.-

(٢) باب الخطب، رقم ٢٠١.

اجتمعا.. كأنَّهم أئمةُ الكتاب، وليس الكتابُ إمامَهم..»[١]. فهم يشبهون الخوارج والبغاة في عصره، وفي عصرنا نلاحظ بروز اتجاهين بهذا المعنى، الأول في الحركات والأحزاب القومية التي توجّه بعض الآيات القرآنية لمصالحها السياسية[٢]. والثاني -وهو الأوضح - ما نلاحظ من الحركات والأحزاب التكفيرية وهي تحمل اسم الإسلام لكنها تكفّر المسلمين وتبيح دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وبالفعل تقتل وتنهب وتسبي لكونهم يخالفونهم في تفاصيل تصوراتهم. ففي هذه الظروف يكون القرآن الكريم والعاملون به غرباء ضمن الأجواء المنحرفة، فهما في الناس بوجودهما الظاهري، وليسا فيهم لعدم اتباعهما، لأنهما متضادان وان اجتمعا في الوجود المكاني، وهؤلاء المنحرفون ينصبون أنفسهم أئمة وقادة للكتاب العزيز، وليس العكس -والعياذ بالله- وذلك لما في نفوسهم من «الجرأة على مخالفة ظواهره والاختلاف فيه وتفريعه على حسب أغراضهم»[٣].

---

(١) باب الخطب، رقم ١٤٧. مقطع (الزمان المقبل).

(٢) كانت ترفع في بغداد شعارات سياسية بغلاف إسلامي، لغرض كسب التأييد الشعبي لحزب البعث العربي الاشتراكي - الذي حكم العراق في الثلث الأخير من القرن الماضي-، وذلك باستغلال بعض الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وتحويرها لصالح شعاراتهم القومية، مثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً﴾ - عربية - ﴿وَٰحِدَةً﴾ سورة المؤمنون ٢٣/ ٥٢. بإضافة كلمة عربية تأييداً لشعار البعثيين «أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة».

(٣) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١٨٩.

المطلب الثاني

التعاون الاجتماعي،
وحماية الضعفاء والفقراء

إن السعي الحثيث لتحقيق مبدأ التعاون الاجتماعي وحماية الضعفاء والفقراء في المجتمع، من صميم أهداف التربية الجهادية التي انتهجها الإمام في حياته. ففي المطالب السابقة من هذا المبحث، التي تحدثنا فيها عن البناء الجهادي للإنسان والأمة والدولة، اتضح لنا: أنّ من أهداف التربية الجهادية عند الإمام أن يشعر الإنسان المؤمن بآلام أخيه الإنسان، وأن يتحسس أزماته ومشكلاته من موقع المسؤولية، لكي يمدّ له يد العون والمساعدة، ليتم انتشاله من واقعه المأساوي في حياته الاقتصادية والمعيشية والنفسية، وأخيراً ليصطف بعد تلك المحاولات الإنقاذية إلى جانب الآخرين، وينال حقوقه المشروعة في الحياة الكريمة. وهذه العملية الإنقاذية لا بد أن تحصل من قِبل المسلم المجاهد أو الأمة المجاهدة أو الدولة الإسلامية أو المرجعيات الدينية القائمة، وربما بالتعاون بين كل الوجودات والمؤسسات لأجل تقديم المساعدات، وبرامج الحماية للضعفاء والفقراء في الأمة.

إن منهجية الإمام علي عليه السلام تدعو إلى التعاون والتكافل

والتراحم بين طبقات المجتمع، وإلى حماية ضعاف الأمة، وذلك للتوصل إلى الهدف المنشود في تماسك الأمة وبناء جوهرها على النقاء والصلاح، عبر تذويب الفوارق الطبقية والاقتصادية، وكذلك بسحق المفاهيم الجاهلية، ليتساوى الناس في الحقوق والواجبات أمام القانون الإسلامي، وليأخذ المستضعفون والمحرومون حقوقهم الحياتية والمعيشية من بيت مال المسلمين باحترام وإجلال.

هذا وقد جمع لنا الشريف الرضي نصوصاً كثيرة في نهج البلاغة، في هذا الاتجاه. سنسلط الأضواء على قسط منها في هذا المطلب ضمن المحاور التالية:

١• التعاون الاجتماعي، وحماية حقوق المستضعفين في الأمة.

٢• آفاق التعاون والحماية

٣• الآثار المرتقبة من الحالة السلبية.

● **التعاون الاجتماعي، وحماية حقوق المستضعفين في الأمة:**

قال الإمام: «..وإذا غلبت الرّعيّةُ واليها، وأجْحَفَ الوالي برعيَّته، اخْتلفَتْ هنالك الكلمةُ، وظهرت معالمُ الجَوْرِ.. فعُمِلَ بالهوى، وعُطِّلتِ الأحكام،.. فهنالك تَذِلُّ الأبرارُ، وتَعِزُّ الأشرارُ.. فعليكم بالتّناصح في ذلك، وحُسْنَ التَّعاوُن عليه.. من واجب حقوق الله على عباده النصيحةُ بمبلغ جُهْدِهم، والتّعاوُنُ على إقامةِ الحقِّ بينهم»[1]. ففي حالة عصيان الرعيّة للوالي، وظلم الوالي

(١) باب الخطب، رقم ٢١٦، نهاية المقطع الثاني، (حق الوالي وحق الرعية). أجحف =

لهم، تتفرق كلمة الأمة، وينفرط عقد الاجتماع، فتظهر علامات الجور والانحراف لفقدان العدل، فيكون العمل بالهوى لا بالأحكام الشرعية، وعندها «تذل الأبرار لذلّة الحقِّ المعطَّل الذي هم أهله.. وتعزّ الأشرار لعزّةِ الباطل الذي هم عليه بعد ذلّهم بعزّة الحقّ»[١]. ففي هذه الحالة المتأزمة يرسم الإمام طريق خلاص الأمة بالتناصح وحسن التعاون، فهو واجب وحق إلهي على العباد، سعياً منهم لإقامة الحق وإحياء معالمه. وقد أكد في عهده عليه السلام لمالك الأشتر -كما أشرنا سابقاً- على ضرورة رعاية الضعفاء والفقراء واليتامى وكبار السن والمحتاجين في أداء حقوقهم المادية، وكذلك رعايتهم من الناحية النفسية باللقاء معهم وتخفيف آهاتهم، حيث قال: «.. وتفقّد أمور من لا يصل إليك منهم ممّن تقتحمُهُ العيون، وتحقّرهُ الرّجال، ففرِّغْ لأولئك ثقتَك من أهلِ الخَشية والتّواضُع، فليرفع إليك أمورهم.. فإنَّ هؤلاءِ من بين الرعية أحوجُ إلى الإنصاف من غيرهم، وكُلٌّ فأعْذرْ إلى الله في تأدية حقّه إليه. وتعهّد أهل اليُتم وذوي الرّقة في السّن ممّن لا حيلة له، ولا ينصبُ للمسألة نفسه.. واجعل لذوي الحاجات منك قِسماً تفرّغ لهم فيه شخصك..»[٢]. إن «الإمام ينذر ويحذّر الولاة والحكام من إهمال هذه الفئة، لأنه يجر عليهم أسوأ العواقب، وقد نَصَح الإمام عامله أن يعيّن أشخاصاً من الأبرار المؤتمنين على مصاير الخلق، يتفرغون للبحث عن أحوال الناس من ذوي الحاجات،

= بالرعية: أي كلفهم ما لا يطيقون، فأضرهم وظلمهم. أنيس، د.إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، مج١، باب الجيم، ص١٠٨.

(١) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٤٠.

(٢) باب الرسائل، رقم ٥٣.

ويصغون لمطالبهم، ويرفعونها إليه، ليعمل على إنجازها بالمعروف»[١].

ولم يكتف الإمام بتوجيه الولاة والمسؤولين لأداء حقوق ضعفاء الأمة، والتعاون معهم لحلّ أزماتهم ضمن مسؤولياتهم الشرعية في الإدارة، وإنما شجع الأوساط العامة باعتماد مبدأ التعاون ورعاية الضعفاء، وذلك بفتح قنوات الخير والإحسان بشكلٍ عام لخدمة المحتاجين، فقد قال في خطبةٍ له: «.. فإذا رأيتُم خيراً فأعينوا عليه..»[٢]. وعلى المستوى الفردي قال في خطبة أخرى: «رحم الله رجلاً رأى حقاً فأعان عليه، أو رأى جوْراً فردّه، وكان عوناً بالحقّ على صاحبه»[٣].

دائرة الأرحام -أولاً:

تبدأ الدوائر الاجتماعية المحيطة بالإنسان من الأرحام أي الأقرباء، وهم أولى بالمعروف والإحسان. يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٤] إن هذه الدائرة تحكمها علاقات تاريخية ونفسية وأسرية مشتركة، مما يجعلها أقرب بكثير من الحلقات الاجتماعية الأخرى، إلى التماسك والانسجام، في حالة التواصل والتعاون والحماية وإذا تحقق هذا التعاون والتماسك في دائرته الأولى تترشح تباعاً الدوائر الأخرى لتشمل عموم الأمة،

---

(١) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص١٠٢.

(٢) باب الخطب، رقم ١٧٦، مقطع (القرآن).

(٣) باب الخطب، رقم ٢٠٥، في نهاية كلامه.

(٤) سورة النحل، ١٦/ ٩٠.

وهو الهدف المنشود يقول الإمام عليه السلام: «فمنْ آتاهُ اللهُ مالاً فليَصِلْ به القرابةَ، وليُحْسِنْ منه الضيافة، وليفكَّ به الأسير والعاني، وليُعط منه الفقير والغارم..»[١] ويقول في وصيته لولده الإمام الحسن: «وأكرِمْ عشيرتك، فإنّهم جَناحُك الذي به تَطيرُ، وأصلُك الذي إليه تصيرُ، ويدُك التي بها تَصولُ»[٢]. والعشيرة هي أقرب الدوائر الاجتماعية المحيطة بالإنسان، ففي أجوائها ينمو ويترعرع، وفي داخلها يتفاعل سلوكياً وثقافياً بصورة تلقائية، ومن دون حواجز نفسية، وأفراد العشيرة هم أهله وخاصّته، وقد «استعار لهم لفظ الجناح باعتبار كونهم مبدأ نهوضه وقوته على الحركة إلى المطالب كجناح الطائر، ورشح بذكر الطيران، وكذلك لفظ اليد باعتبار كونهم محل صولته على العدو»[٣]. وفي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام ما يذكرنا بكلمة جناح، حيث يقول: «أول جماعة كانت إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يصلّي وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام معه، إذْ مرَّ أبو طالب به وجعفر معه، فقال: يا بُنيّ صِلْ جناح ابن عمّك، فلما أحسّه رسول الله صلى الله عليه وآله تقدّمهما، وانصرف أبو طالب مسروراً..»[٤]. وهذا الحديث يدفعنا لنسأل: كيف نجمع بين ما يطالب به الإمام من إكرام العشيرة، مع ما عرفناه من السيرة النبوية من إيذاء قوم النبي صلى الله عليه وآله له ولأصحابه الكرام؟ حتى أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ليبتعدوا عنهم، بل هاجر صلى الله عليه وآله، هو أيضاً، إلى المدينة، وأسس فيها عاصمة الدولة

---

(١) باب الخطب، رقم ١٤٢. مقطع (مواضع المعروف).

(٢) باب الرسائل، رقم ٣١. آخر مقطع قبل الدعاء.

(٣) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦٥.

(٤) الريشهري، محمد: ميزان الحكمة، ج٤، ص١٦٤٨، رقم ١٠٧٢٧.

الإسلامية بعيداً عن عشيرته[١]. للإجابة عن هذا السؤال نذهب إلى التاريخ في بداية الدعوة المباركة، لننظر إلى الصور المشرقة التي احتلت صفحات كبيرة من تاريخ المسلمين تعود إلى رجال من عشيرة النبي ﷺ، إلى جانب تلك الصور القاتمة لبعضهم الآخر، فلذلك أمر الله سبحانه نبيّه الكريم أن ينذر عشيرته الأقربين ويبلغهم رسالته، أولاً، في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[٢]. فكان من عشيرته المقربين له عمّه أبو طالب، الحامي والمدافع عن الرسول والرسالة، كما كان أبو لهب المنكر لهما والمؤذي لرسول الله ﷺ - كما هو معروف- في مواقفه العدوانية. يقول المسعودي في مروجه: «وكان بدؤه بعليٍّ إذ كان أقربَ الناس إليه وأتبعهم له»[٣]. وقد جمع وجوهاً من عشيرته ودعاهم إلى الله وأنذرهم عذابه، على مائدة من بركاته ﷺ، يروي لنا الإمام علي تفاصيل ذلك اللقاء، حتى قال عليه السلام: «. . فأخذ برقبتي ثم قال ﷺ: «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا». قال: فقام القوم يضحكون فيقولون لأبي طالب إنه أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»[٤].

---

(١) راجع: ابن الأثير، العلامة عز الدين: الكامل في التاريخ، مج٢، «تعذيب المستضعفين من المسلمين»، ص٦٦-٧٠. وكذلك الذهبي، شمس الدين: تاريخ الإسلام -السيرة النبوية- «ذكرُ أذية المشركين للنبي وللمسلمين» و«ذكرُ شِعب أبي طالب والصحيفة»، ص٢١٥-٢٢٤.

(٢) سورة الشعراء، ٢٦/ ٢١٤. راجع الطبرسي، الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، مج٥، ج١٩، ص١٨٧-١٨٨.

(٣) المسعودي، علي بن الحسن: مروج الذهب، ج٢، ص٢٨٣.

(٤) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الطبري ٢/ ٦٣ عن عبد الله بن عباس عن علي لما نزلت الآية الكريمة المذكورة. والمالكي، ابن صباغ الفصول المهمة في معرفة =

وهكذا ندرك أهمية العشيرة كنقطة انطلاق نحو الآخرين للدعوة والتبليغ والجهاد. يقول أبو الفداء في تاريخه: «لما اشتد إيذاء قريش لأصحاب رسول الله ﷺ، أذن رسول الله ﷺ لمن ليس له عشيرة تحميه في الهجرة إلى الحبشة..»[١]. وهكذا نرى أهمية العشيرة في جانبها الإيجابي. ومن موقع آخر في الوصية ذاتها لولده الحسن يقول: «.. ولا يكن أهلُك أشقى الخلق بك،.. ولا يكوننّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صِلته، ولا تكوننّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان»[٢]. فسعادة الإنسان تبدأ من البيت والأهل، فالسعيد سعيد مع أهله وعياله، ومن ثمّ تنعكس على الساحة الاجتماعية. يقول الشيخ مغنية: «من شقي به أهله فهو أشقى الناس على الإطلاق، لأن من يبغي على القريب ييأس الناس من خيره ويخافون من شرّه، ومن يسعى به القريب يرجوه البعيد لعمل الخير.. «ولا يكون من أخوك أقوى على قطيعتك»، إذا كان هو أقوى منك على القطيعة والإساءة فكن أنت أقوى منه على الصلة والإحسان، شريطة أن يكون في صلتك له شيء من الخير والصلاح»[٣].

● آفاق التعاون والحماية:

لا تنحصر الآفاق باتجاه الدائرة الأولى للإنسان وإنما تتوسع من

= الأئمة ص١٦٢. ابن الأثير، عزّ الدين: الكامل في التاريخ، مج٢، ص٦٢-٦٣.

(١) الهندي، الأمير أحمد: تاريخ الأحمدي، ص٣٧، نقلاً عن أبي الفداء، الملك إسماعيل: المختصر ١/ ١١٨. راجع ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٣٥٨.

(٢) باب الرسائل رقم ٣١، ضمن مقطع (وصايا شتى).

(٣) مغنية، الشيخ محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٣، ص ٥٢٣.

بعدها الدوائر الاجتماعية لتشمل كل المسلمين بل الإنسانية بأكملها، من أجل نشر الفضيلة وإرساء دعائم الخير، وحماية المستضعفين في كل مكان. يقول الإمام في عهده لمالك الأشتر: «. . ولا تكوننّ عليهم سُبعاً ضارياً تغتنم أكْلَهم. فإنّهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»(١). ويقول في وصيته للحسن والحسين: «. . وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً»(٢). ويقول في وصيته للحسن: «. . بئسَ الطّعامُ الحرامُ! وظُلْمُ الضَّعيفِ أفحشُ الظُّلْمِ!»(٣). والظلم بكل صوره قبيح ولكن الأقبح أن يقع على الضعفاء، كما وأن «الظلم إذا كان معناه التجاوز والخروج عن العدل فقد يكون تجاوزاً من الإنسان على أخيه الإنسان، وقد يكون تجاوزاً عن هذا الإنسان على نفسه بأن يظلمها بالخروج عن طاعة الله»(٤). لذلك جعل رفع الظلم عن المظلوم الضعيف من الكفارات الكبرى، حيث قال في حكمةٍ له: «من كفّاراتِ الذُّنوبِ العظام إغاثةُ الملهوفِ، والتَّنفيسُ عن المكروب»(٥). «أي من الأشياء التي توجب محو تلك الذنوب «إغاثة الملهوف» أي المظلوم، وإغاثته رفع الظلم عنه»(٦).

ومما لا يخفى أن الأيتام من ضعفاء الأمة لذلك أوصى بهم

---

(١) باب الرسائل، رقم ٥٣.

(٢) باب الرسائل، رقم ٤٧.

(٣) باب الرسائل، رقم ٣١. ضمن مقطع (وصايا شتى).

(٤) الموسوي، عباس علي: الوصية الخالدة - شرح وصية الإمام عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام، ص١٥٣.

(٥) باب الحكم، رقم ٢٤.

(٦) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٤، ص٢٧٩.

كثيراً، ففي وصيته الأخيرة للحسن والحسين قال: «.. اللهَ اللهَ في الأيتام، فلا تُغِبّوا أفواههم، ولا يَضيعوا بحضرتكم.. وعليكم بالتَّواصُلِ والتَّباذُلِ..»[١].

أي استمروا في إطعام الأيتام لكي لا يشعروا بالضعف، والتزموهم نفسياً ومادياً كي لا يضيعوا في متاهات الحياة ويمكن استغلالهم من قبل السيئين في المجتمع، وهم في حضوركم واطلاعكم على أوضاعهم. ومن ضعاف المجتمع الإنسان المسكين وهو الذي يحتاج إلى مساعدة وحماية، يقول الإمام: «إن المسكينَ رسولُ اللهِ، فمنْ منعَه فقد منعَ اللهَ، ومنْ أعطاهُ فقد أعطى اللهَ»[٢]. إلى هذه الدرجة من الاهتمام بالضعفاء يدعونا الإمام عليه السلام. ومراده «إن الله سبحانه هو الذي أرسل المساكين إلى الناس، ليعطوهم المال «فمن منَعه» ولم يسعفه بحاجته «فقد منع الله» إذ منْع الرسول يلازم منع المرسل «ومن أعطاه فقد أعطى الله» وهذا أبلغ تحريض للإنفاق على الفقراء»[٣].

إن مسألة التعاون والحماية لا تقتصر على المؤمنين والمسلمين، بل إنها شاملة لعموم الناس، ليجعل الضمان الاجتماعي، وحق العيش الكريم لكل إنسان في ظل دولة العدل والإيمان ومما يذكر في سيرته، أنه مرّ بشيخ مكفوف كبير يسأل الناس، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: (ما هذا؟) فقيل له: يا أمير المؤمنين إنه نصراني، وهنا لا بد من الإشارة

---

(١) باب الرسائل، رقم ٤٧. أغبّ القوم: جاءهم يوماً وترك يوماً، أي صلوا أفواههم بالإطعام ولا تقطعوه عنها. عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٧٧.

(٢) باب الحكم، رقم ٣٠٤.

(٣) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٤، ص ٤١٤.

إلى قول الإمام - ما هذا؟ ولم يقل: من هذا؟ فهو يريد معالجة المشكلة في دولته من الأساس. فقال الإمام: «استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه! أنفقوا عليه من بيت المال»[١].

شمولية التعاون والحماية:

إن مسألة التعاون الاجتماعي وحماية الضعفاء والفقراء تمتاز في كلام الإمام بالصفة الشمولية لكافة مناحي الحياة ومظاهرها. فهي لا تقتصر في ناحية دون أخرى. ولا في مظهر دون آخر. فكما إنها مهمة وسارية في الجانب الاقتصادي والاجتماعي، هي كذلك في العمل الجهادي والقتال، وهي هكذا في الجانب الإداري وتحصيل الخراج. يقول الإمام في عهدٍ له إلى بعض عمّاله وقد بعثه على الصدقة: «.. فإنَّهُمُ الإخوانُ في الدِّينِ، والأعوانُ على اسْتخراج الحقوق. وإنَّ لك في هذه الصَّدَقَةِ نصيباً مفروضاً وحقاً معلوماً، وشركاءَ أهْل مسكنةٍ، وضُعفاءَ ذوي فاقةٍ..»[٢]. إن الإمام - هنا- ينصح «موظف الدولة أن لا يستقبل أحداً من الرعية بما يكره، ويستعلي عليه بالمنصب والمركز.. لأنه أجير لا أمير.. والرعية هي السيد والأصل والعمود الفقري للدولة وخزينتها»[٣]. فلا بد أن يكون حريصاً على حقوق الأمة، خصوصاً الضعفاء والفقراء من الناحية الاقتصادية التي تعتبر لهم من أهم النواحي. لذلك يقول في كتاب له إلى عمّاله على الخراج: «.. فأنْصِفوا النّاسَ من أنفسِكم، واصْبِروا

(١) العاملي، الحر: وسائل الشيعة، ١١/٤٩.

(٢) باب الرسائل، رقم ٢٦.

(٣) مغنية، الشيخ محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٣، ص٤٥٢.

لحوائجهم، فإنّكم خُزّانُ الرَّعيَّةِ، ووكلاءُ الأمَّة، وسفراءُ الأئمَّة، ولا تُحشموا أحداً عن حاجته، ولا تحبسوه عن طَلِبته، ولا تَبيعُنّ للناس في الخراج كِسْوةَ شتاءٍ ولا صيفٍ، ولا دابّةٍ يعتَملون عليها، ولا عَبْداً، ولا تضرِبُنّ أحداً سوطاً لمكان دِرْهمٍ، ولا تَمَسُنَّ مالَ أحدٍ من الناس. . ولا تدَّخروا أنفسَكم نصيحةً، ولا الجُنْدَ حُسْنَ سيرةٍ، ولا الرَّعيَّةَ معونةً»[١]. في هذا النص تظهر الشمولية التي قصدناها، حيث يأمر الإمام بالتعاون مع الناس وعدم ظلمهم أثناء أخذ الحقوق المالية منهم، ويأمر أيضاً بحماية أحوالهم الاجتماعية واحترام منزلتهم العامة مما يملكون من كسوة وأثاث ودواب عمل وعبيد. وكذلك يأمر بالرعاية النفسية لهم ليلبوا طلباتهم ولا يستخدموا الإهانة والضرب لأخذ الحقوق منهم. ومراده من «لا تحسموا» أي لا تقطعوا «أحداً عن حاجته» بأن لا تؤدوها إليه «ولا تحبسوه عن طلبته» بأن تحيلوا بينه وبين ما يريد أن يعمل، وليت الإمام كان حاضراً، ليرى ماذا يعمل الموظفون بالناس في هذا الدور؟. . «ولا تمس مال أحد من الناس» بأن تأخذوه للبيع وأخذ الخراج من ثمنه. .»[٢].

- **الآثار المرتقبة من الحالة السلبية:**

ففي حالة عدم شيوع أجواء التعاون والحماية للضعفاء والفقراء، ستستفحل حالات الأنانية والاستغلال لدى البعض، بينما تزداد الطبقات المسحوقة ألماً وحرماناً، وهذا يعني انتشار الفساد

(١) باب الرسائل، رقم ٥١. لا تحشموا أحداً: لا تغضبوه، من أحشمَ يُحشم. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، رقم ٣٩٨٨.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٤، ص ١٤٢.

والكوارث الاجتماعية والأخلاقية في الأمة. ممّا يضاعف مسؤولية الواعين في الأمة، لخوض غمار المعارك المصيرية، انطلاقاً من أسس التربية الجهادية. لتتم عمليات نسف القيم الجاهلية وإعادة الأمة إلى جادة الصلاح والاستقامة والجهاد، في هذا الصدد يقول الإمام: «.. أخذ الله على العلماء ألّا يُقارّوا على كِظَّة ظالم، ولا سَغَبِ مظلوم..»[١]. فالمسؤولية الشرعية تقع على كاهل العلماء الواعين للحقائق، لقد «أشار إلى الدليل القاطع على هذا الوجوب واللزوم، وهو أن الله سبحانه قد أخذ على العلماء عهداً أن يكونوا للمظلوم عوناً، وعلى الظالم حرباً..»[٢]. وفي حالة عدم تحمل طلائع الأمة - لا سيما العلماء- مسؤولية الإصلاح، تتوسع المظالم لتشمل عموم الأمة، ففي حينها «تتكون الطبقية في المجتمع ويُصنّف الناس إلى فئة فرعونية حاكمة ظالمة تمارس الإرهاب والكبت والضغط، وفئة مستضعفة فقيرة بائسة لا تملك حوْلاً ولا قوة»[٣]. يقول الإمام: «بِئْسَ الزّادُ إلى المَعاد، العُدوانُ على العباد»[٤]. ويقول أيضاً: «.. وإذا بَخِلَ الغنيُّ بمعروفه باعَ الفقيرُ آخرتَه بدنياه»[٥]. فلأجل كسب العيش يرتكب الآثام والجرائم ويتحول إلى يد منفذة

---

(١) باب الخطب، رقم٣. ألّا يقارّوا: ألّا يوافقوا مقرّين. الكظة: ما يعتري الآكل من الثقل والكرب عند امتلاء البطن بالطعام، والمراد استئثار الظالم بالحقوق. السّغب: شدة الجوع، والمراد منه هضم حقوقه. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٥٦٧، رقم ١٣٦-١٣٨.

(٢) مغنية، الشيخ محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج١، ص٩٨.

(٣) الموسوي، عباس علي: الوصية الخالدة، ص ١٥٣.

(٤) باب الحكم، رقم ٢٢١.

(٥) باب الحكم، رقم ٣٧٢.

لمآرب المستغلين من ورائه، لقاء معالجة حرمانه، وتأمين لقمة عيشه. بينما يدعو الإمام إلى الانفتاح على الفقراء وذوي الحاجات، عبر اللقاء المباشر معهم، وذلك للاطلاع على همومهم وطلباتهم، لغرض تفهمها وأدائها، فقد ورد في عهد الأشتر قوله عليه السلام: «واجْعلْ لذوي الحاجات منك قِسْماً تفرِّغُ لهم فيه شخصَك، وتجلسُ لهم مجلساً عاماً، فتتواضَعُ فيه لله الذي خلقَك، وتُقْعِدُ عنهم جُنْدَكَ وأعوانك من أحْراسك وشُرَطِكَ، حتى يُكلِّمَك مُتكلِّمُهُمْ غيرَ مُتَتَعْتِعٍ..»[١]. أي: غير متردِّدٍ لعجزٍ أو خوفٍ، فالمفروض على الوالي والمسؤول الحاكم أن يلتقي الطبقات المظلومة في الأمة بنفسه ليردّ إليهم حقوقهم، ويستمع إلى شكاواهم حول الجهاز الإداري في الدولة، «وعليه أن يبعد عن هذا اللقاء مع الشعب جميع مظاهر السلطة من جند وحرس وما إلى ذلك، لئلا يشعر أصحاب الظلامات بأي ضغط أو خوف يمنعهم عن الإفصاح عن حقيقة مشاعرهم. وعلى الحاكم أيضاً أن يحتمل من أصحاب الحاجات عنف كلامهم..»[٢]. وفي غير ذلك ستنتهي الحالة إلى أمور غير محمودة، لذلك قال: «اسْتعملِ العَدْلَ، واحْذَرِ العَسْفَ والحيْفَ، فإنّ العَسْف يعودُ بالجلاءِ، والحيْفَ يدعو إلى السَّيْفِ»[٣]. «والمراد بالجلاء هجرة أهل البلاد عنها فراراً من البغي والجور، والمعنى لا تظلم أحداً من الرعية.

---

(١) باب الرسائل، رقم ٥٣. مقطع (واجعل لذوي الحاجات).

(٢) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: عهد الأشتر، ص ١٠٨-١٠٩.

(٣) باب الحكم، رقم ٤٧٦.عَسَفَ في الأمر: أخذه بالعنف والقوة وظلمه. الحيف: من حاف حيفاً: أي جار وظلم. أنيس، د.إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، مج٢، باب العين، ص٦٠٠. ومج١، باب الحاء، ص٢١٢.

لأن الظلم يدعو المواطنين إلى الثورة أو ترك البلاد، وبالثورة تسفك الدماء، وبالهجرة تخرب البلاد»[١].

إن منهجيّة الإمام تعالج هذه الأزمات من جذورها، بالاعتماد على أسس التعاوُن وحماية المستضعفين، وهكذا يتم استيعاب الأزمات المهددة لكيان الدولة، إن وجدت، والهوية الإسلامية للأمة.

(١) مغنية، الشيخ محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة،ج٤، ص ٤٨٤.

الفصل الرابع

السياسة الجهادية عند الإمام، في إدارة شؤون القتال، وتعليم فنون الحرب

وفيه ثلاثة مباحث:

* المبحث الأول : معركة الجمل *

* المبحث الثاني : معركة صفين *

* المبحث الثالث : معركة النهروان *

تمهيد

● **أولاً: تفاقم الأزمة السياسية ونشوب نار الفتنة:**

يجدر بنا ونحن نستكمل صورة الأحداث، أن نسلط الأضواء على الأجواء التي كانت سائدة في حياة المسلمين أواخر عهد الخلافة الثالثة، وما رافقها من تعقيدات في أزمة الإدارة والحكم، والتي مهّدت الطريق أمام مثيري الفتنة لاستخدام العنف الذي أودى بحياة الخليفة عثمان، وما عكس ذلك من التباس الأمور على الناس، مما أدى في نتيجة الأمر إلى تفريق كلمة المسلمين بعد مقتله. وقد كان الإمام قد حذّر الخليفة - بكل وضوح- ألّا يكون السبب لإثارة الفرقة، بل حمّله المسؤولية الشرعية في اتخاذ خطوات إصلاحية لقمع الفتنة في مهدها، وذلك حينما اجتمع الناس إليه وشكوا ما نقموه على الخليفة عثمان، وسألوه مخاطبته، فدخل عليه وحدّثهُ مباشرة، ومن جملة ما قال له: «. . فاعْلم أنّ أفضلَ عباد الله عند الله إمامٌ عادلٌ، هُدِيَ وهَدى. . وإن شرّ الناس عند الله إمامٌ جائرٌ ضَلَّ وضُلَّ به. . وإني أنشدُك اللهَ ألّا تكون إمام هذه الأمة المقتولَ، فإنه كان يقال: يقتل في هذه الأمة إمامٌ يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة» ويَلبسُ

أمورها عليها، ويَبثّ الفتن فيها، فلا يُبْصرون الحقَّ من الباطل»[١]. هذا، ولم يكتفِ الإمام بالكلام فقط، وإنما أكمل مبادرته الإصلاحية بخطوات عملية واضحة، سنشير إليها بالإجمال ضمناً. أما أهم تلك العوامل التي أدت إلى تفاقم الأزمة السياسية وإشعال نار الفتنة، فهي:

١ • الضعف الإداري العام لدى الخليفة قياساً بالمرحلة السابقة، خصوصاً في توجيه أو محاسبة الولاة المعتمدين لديه، فضلاً عن معاقبة المسيء منهم. وبالفعل وقعت قرارات الخليفة تحت تأثير بني أمية بالتحديد، فهم قد أصبحوا الحكام الحقيقيين على البلاد والعباد، وبات الخليفة حاكماً شكلياً مسيّراً من قبل مروان بن الحكم. وقد قال الإمام للخليفة عثمان، استكمالاً لحديثه الماضي معه: «فلا تكوننّ لمروان سيِّقةً يسوقك حيث شاء، بعد جلال السِّنّ وتقضّي العُمر..»[٢]. وسنلاحظ شيئاً من تصرفات مروان في هذا الاتجاه، يقول السيوطي، حول السياسة الإدارية لعثمان: «كان كثيراً ما يولي بني أميّة ممن لم يكن له مع النبي عليه الصلاة والسلام صحبة، فكان يجيء من أمرائه ما ينكره أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام، وكان يُستعتب فيهم

---

(١) باب الخطب، رقم ١٦٤. القول هو حديث الرسول الأكرم ﷺ، أو حكاية عن الحديث بما يشبهه. ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٥، ج١٠، ص١٧٥.

(٢) باب الخطب، رقم ١٦٤. السيّقة - بتشديد الياء-: ما يسوقه العدو في الغارة من الدّواب. وجلال السنّ: علوه. البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٢٨٢.

فلا يعزلهم»[١]. ويذكر الطبري في تاريخه جانباً من الحوار الصريح بين الإمام والخليفة حول الولاة، لا سيّما معاوية، حيث قال له الإمام: «فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها، فيقول للناس: هذا أمر عثمان، فيبلغك ولا تغيّر على معاوية»[٢]. ويقول ابن عبد ربه في عقده الفريد: «فلما أحدث عثمان ما أحدث من تأمير الأحداث من أهل بيته على الجِلّة من أصحاب محمد ﷺ، قيل لعبد الرحمن [بن عوف]: هذا عملك، قال: ما ظننت هذا، ثم مضى ودخل عليه وعاتبه.. [قائلاً]: لله عليَّ أن لا أكلمك أبداً، فلم يكلمه أبداً حتى مات، ودخل عليه عثمان عائداً له في مرضه، فتحوّل عنه إلى الحائط ولم يكلمه»[٣].

يقول طه حسين: «ووصل بني أمية رهطه فأغراهم بالغنى، وفتح أمامهم أبواب الطمع واسعة، حتى طمعوا فيه هو، فاستأثروا به، وتسلطوا عليه حتى غلبوا على أمره كله، فجعلوا يولون ويعزلون، والخليفة يقرّ ما يفعلون!»[٤].

٢• خطوة الإمام الإصلاحية كانت تصطدم بالواقع العملي. وقد أغضب الإمام ذلك، وقرّر الانسحاب من مشروعه

---

(١) السيوطي، جلال الدين: تاريخ الخلفاء، ص١٧٥.

(٢) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ٣/ ٣٧٧.

(٣) الأندلسي، ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٤/ ٢٨٠. وذكر كلام الإمام مع الخليفة عثمان، كاملاً باختلاف لفظي يسير. للتفاصيل راجع المرجع المذكور، ص٣٠٥-٣١٠، «ما نقم الناس على عثمان».

(٤) حسين، طه: مرآة الإسلام، ص٣٢٣.

الإصلاحي، وذلك لأن استشاراته الجدّية للخليفة عثمان، كانت تترجم بحلول لفظية وخطابية فقط، بينما كان يقع اصطدامها المباشر بإجراءات مروان المضادة. و-هنا- سأكتفي برواية الطبري، وهي تحمل دلالات كافية لتوضيح الصورة بأبعادها الحقيقة، وذلك عندما توجه المصريون المعارضون إلى الحجاز، والتقوا علياً وطلحة وعمّاراً وغيرهم من الصحابة الكرام، يذكر الطبري: «فلما رأى عثمان ما رأى جاء علياً فدخل بيته، فقال: يا ابن عم.. وأنا أعلم أن لك عند الناس قدْراً، وأنهم يسمعون منك، فإنّما أحبّ أن تركب إليهم فتردّهم عنّي، فإني لا أحبّ أن يدخلوا عليَّ.. فقال علي: علامَ أردّهم: قال: على أن أصير إلى ما أشرت عليَّ، ورأيته لي ولستُ أخرج من يديْك. فقال علي: إني قد كنت كلمتك مرّةً بعد مرّةٍ، فكلّ ذلك تخرج فتُكلِّم، ونقول فتقول، وذلك كله فعل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص، وابن عامر، ومعاوية، أطعتهم وعصيتني. قال عثمان: فإني أعصيهم وأطيعك.. فأمر الناس فركبوا معه المهاجرون والأنصار.. وركب علي عليه السلام إلى أهل مصر فردّهم عنه، فانصرفوا راجعين.. ولما رجع علي عليه السلام إلى عثمان رضي الله عنه، أخبره أنهم قد رجعوا، وكلّمه عليّ كلاماً في نفسه.. حتى إذا جاء الغد، جاءه مروان، فقال له: تكلمْ وأعلِم الناس أن أهل مصر قد رجعوا، وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً، فإن خطبتك تسير في البلاد، قبل أن يتحلب الناس عليك من أمصارهم، فيأتيك من لا تستطيع

دفعه.. [فلما خطب عثمان بذلك] ناداه عمرو بن العاص من ناحية المسجد: اتق الله يا عثمان، فإنك قد ركبت نهابير[١]، وركبناها معك فتُب إلى الله نتب.. فنودي من ناحية أخرى تب إلى الله، وأظهرْ التوبة يكفّ الناس عنك.. فرفع عثمان يديه مدّاً واستقبل القبلة فقال: اللهم إني أوّل تائب إليك، ورجع إلى المنزل. وخرج عمرو بن العاص حتى نزل منزله بفلسطين، فكان يقول: والله إن كنت لألقي الراعي فأحرّضه عليه»[٢].

ويروي أيضاً إنه حينما كلّمه الإمام بعد انصراف المصريين، خطب بالناس خطبة وجدانية مثيرة، طلب فيها العفو والتوبة من الله سبحانه، وبكى وأبكى الناس الحاضرين، وعاد إلى منزله فاتحاً بابه للناس - كما أوعدهم- وبالفعل اجتمع الناس على باب البيت وهم في نشوة الأمل بالإصلاح، ولكن مروان في دوره الخبيث بدّد أحلام الناس، لنستمع إلى ما قاله للخليفة عثمان: «.. والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة.. وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس، فقال عثمان: فاخرج إليهم.. فخرج مروان.. فقال: ما شأنكم، قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهبٍ.. تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، اخرجوا عنّا.. فجاء عليّ مغضباً حتى دخل على عثمان فقال: أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلّا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل

---

(١) النهابير: مفردها نُهْبُرة ونُهبورة، بمعنى: المهالك، والأمور الشديدة. معلوف، لويس: المنجد في اللغة، حرف النون، ص٨٤١.

(٢) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ٣/ ٣٩٣-٣٩٥.

الظعينة، يقاد حيث يُسار به، واللهِ ما مروان بذي رأي في دينه، ولا في نفسه، وايم الله إني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائدٍ بعد مقامي هذا لمعاتبتك.. فلما خرج علي دخلت عليه نائلة ابنة الفرافصة، امرأته.. فقالت: قد سمعت قول علي لك.. وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء.. فإنك متى أطعت مروان قتلك.. فأرسلْ إلى عليٍّ فاستصلحه، فإن له قرابة منك، وهو لا يُعصى.. [وفي رواية أخرى يذكرها الطبري أيضاً] ودخل عليه مروان فلم يزل يفتله في الذروة والغارب حتى فتله عن رأيه، وأزاله عما كان يريد»[١]. ومن هنا يقول الشارح البحراني: «وقد كان مروان من أقوى الأسباب الباعثة على قتل عثمان.. مع كونه بغيضاً إلى المعتبرين من الصحابة، وكونه طريد الرسول ﷺ»[٢].

٣• تسجل أحداث التاريخ -آنذاك - نجاحاً للخليفة عثمان في استثمار موقع الإمام في الأمة، وحضوره السياسي لإخماد الفتنة، وإنقاذ الوضع، إلّا أن نفوذ بني أمية قد بلغ من التأثير على قرار الخليفة، إلى درجة إصدار الأحكام بختم الخليفة من دون علمه، واستخدام غلامه وجَمَله الخاص من دون علمه، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على مصادرة رأي الخليفة عمليّاً، وخير مثال على ذلك ما جرى على الوفد المصري المعارض[٣]، الذي ردّه الإمام إلى مصر وهو في

---

(١) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ٣/ ٣٩٦-٣٩٨.

(٢) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ٣/ ٢٨٣.

(٣) رب سائل يسأل: لماذا انطلقت حركة المعارضة من مصر بهذه القوّة؟ والسبب يعود =

الطريق إذ يكتشف كتاباً خاصاً يحمله غلام الخليفة وعلى جَمَله الخاص، مبعوث إلى والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، يأمره بقتل بعضهم وتعذيب آخرين وسجنهم، مما ألهب الوضع مرةً أخرى بأشدّ مما كان سابقاً، فعاد الوفد إلى عليٍّ فأخبروه، كما وأخبروا بعض الصحابة بذلك فغضبوا. ولما واجه المصريون العائدون الخليفة، أنكر علمه بتلك التطورات، فقالوا له: «ما أنت إلّا صادق أو كاذب، فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من سفك دمائنا بغير حقّها، وإن كنت صادقاً فقد استحققت أن تُخلع لضعفك وغفلتك وخبث بطانتك»[1]. ومما يذكر أنهم طالبوه تسليم مروان إليهم باعتباره الكاتب والكتاب بخطّه، فامتنع من ذلك مما أثار الغضب والنقمة مجددّاً[2]. وهذا ما شخّصه

= إلى تصرف الوالي ابن أبي سرح، فقد «جاء أهل مصر يشكون من ابن أبي سرح، فكتب [الخليفة] إليه كتاباً يتهددّه فيه، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان، وضرب بعض من أتاه من قِبل عثمان من أهل مصر ممن كان أتى عثمان فقتله! فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل، فنزلوا المسجد وشكوا إلى الصحابة.. وأرسلت عائشة ﷺ إليه فقالت: تقدم إليك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام، وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت؟ فهذا قد قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عاملك..». السيوطي، جلال الدين: تاريخ الخلفاء، ص١٥٧.

(١) الطبري، المرجع ذاته، ٤٠٨/٣.

(٢) السيوطي، جلال الدين: تاريخ الخلفاء، ص١٥٩. للتفاصيل راجع: السيوطي، المرجع المذكور، ص١٥٨-١٥٩. رسول الخليفة هو أبو الأعور بن سفيان السّلمي، للتفاصيل راجع -الطبري - المرجع نفسه، ص٣٩٩-٤٠٨. ويذكر جبلّة الساعدي الذي هدّده بالقتل، وخاطبه بنعثل، وأنزله من المنبر مرّةً.

الإمام بوضوح للخليفة - كما مرّ معنا - وهكذا حينما التقى سعد بن أبي وقاص عليّاً، يطلب منه التدخل لفك الحصار عن الخليفة، أجابه علي: «. . واللهِ ما زلت أذبّ عنه، حتى إني لأستحي، ولكن مروان ومعاوية وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص، هم صنعوا به ما ترى، فإذا نصحته وأمرته أن ينحّيهم استغشّني حتى جاء ما ترى»[١]. وبالنتيجة يمكننا القول بأن ابتلاء الخليفة عثمان كان في حاشيته وولاته المستغلين لضعفه في محاسبتهم، فقد قال الإمام لابن عباس: «. . ما يريد عثمان أن ينصحه أحد، اتخذ بطانة أهل غشٍّ، ليس منهم أحد إلّا قد تسبب بطائفةٍ من الأرض، يأكل خراجها، ويستذلُّ أهلها»[٢]. وبالفعل لقد خدموا أنفسهم لدنياهم، ولمستقبلهم السياسي والاقتصادي ولم يخدموا خليفة المسلمين ولا مصالح الأمة.

٤• وعندما تأزمت الأمور بعث الخليفة على ولاته والمعتمدين لديه لغرض المشاورة، وبالفعل حضر معاوية وعمرو بن العاص، وسعيد بن العاص وأمثالهم، وتحدثوا في محضر الخليفة، ويذكر المؤرخون هذا اللقاء المهم بتفاصيله، والذي يهمنا من ذكره هو وجود الإحساس العام لدى خواصّه أيضاً بضرورة الإصلاح والتغيير، وفي تقديري كان أجرؤهم في الحديث هو عمرو بن العاص حيث قال للخليفة: «أرى إنك قد ركبت الناس ما يكرهون [يقصد بني أمية]، فاعتزم

(١) الطبري، المرجع ذاته، ص٤١٠.

(٢) الطبري، المرجع نفسه، ٣/ ٤٣٣-٤٣٤.

أن تعتدل، فإنْ أبيت فاعتزم أن تعتزل، فإن أبيت فاعتزم وامضي قدُماً»[١]. هذا وان الخليفة أعادهم إلى مواقعهم دون تغيير، ولكن أهل الكوفة وقفوا في وجه الوالي سعيد بن العاص بالسلاح فاضطر الخليفة إلى تعيين أبي موسى الأشعري مكانه -حسب طلبهم - وأكثر من ذلك - في اعتقادي- إن هذه الجلسة كشفت عن الواقع السياسي والإداري المؤلم، ومدى ضعف معالجات الخليفة، ممّا كرّس الطموح الشخصي لدى بعضهم لاستلام الخلافة، وفتح المجال أمام النفوس التوّاقة لإراقة الدماء وإشعال نار الفتنة، يذكر الطبري، أنه «ما زال معاوية يطمع فيها، بعد مقْدمه على عثمان حين جمعهم فاجتمعوا إليه بالموسم»[٢].

• ٥ إن هذه الإجراءات المضادة للعملية الإصلاحية، أدت -دون أدنى شك - إلى تفاقم الأزمة السياسية في النظام القائم، وانعكاس ذلك إلى واقع عموم المسلمين، مما أحدث تخلخلاً واضحاً في القيم الإسلامية داخل النفوس المريضة التي وجدت مناخاً ملائماً وظروفاً مناسبة لنمو توجهاتها المشبوهة، فتحولت من حالات التجرّي اللفظي على موقع الخلافة، إلى إشعال نار الفتنة باستخدام لغة الحرق والقتل

---

(١) الطبري، المرجع ذاته، ٣/ ٣٧٣. ويذكر فيما بعد تخلصه من غضب الخليفة بحيلة من حيله المعروفة، حيث بيّن قصده هو مخاطبة الناس ليثقوا به، فيقود إليه خيراً أو يدفع عنه شرّاً.

(٢) الطبري، المرجع ذاته، ٣/ ٣٨١.

والدمار، تلك النفوس الجاهلية الشريرة استغلت الاحتقان السياسي العام لتؤجج الفتنة في حياة المسلمين، وقد صدق الإمام في تشخيصه الماضي، حينما ناشد الخليفة ألّا يكون الإمام المقتول لهذه الأمة، لأنه سيكون قتله بأيدي مثيري الفتنة والفرقة والاقتتال، في صفوف المسلمين.

وهذا ما يجعلنا ننظر بعين الاعتبار لرواية الطبري التي تؤكد ظهور دعوات للصلح قبيل المعركة، حتى ان رجال القبائل الذين أخذوا مواقع القتال ما كانوا يشكّون بالصلح، وفي ليلة المعركة خرج للناس علي وطلحة والزبير، وهم يتحدثون بالصلح كهدفٍ عام، وقد بات المعسكران ليلة هانئة بانتظار صباح الوفاق[١].

إلا أن مثيري الفتنة خطّطوا لإفشال محاولة الصلح فتوزعوا ليلاً بين الطرفين، ووضعوا السلاح ورشقوا السهام، فالتهب الموقف واشتعلت الحرب[٢].

هذا، وبالرغم من إمكانية قبول هذه الرواية بحدودٍ معينة، وذلك لعدم خلو الساحة من تلك النفوس الشريرة التي تجد نفسها متألقة وهي تثير الفتنة، وتسبب إراقة دماء المسلمين، إلا أنه لا يمكن -كما أظن- تسليم مصير الأمة في ذلك الظرف الدقيق، بيد فئة مشبوهة، نعم ربما نعتبرها عاملاً ثانوياً مساعداً لإشعال الحرب. وذلك لأن أصحاب الجمل استهلوا عهدهم بالبصرة بالاصطدام

(١) لمعرفة أقوال علي وعائشة وطلحة والزبير، باتجاه الصلح قبيل المعركة، راجع الطبري ٣/ ٤٧٩-٥١٧.

(٢) للوقوف على تفاصيل الرواية، راجع الطبري -أيضاً -: ٣/ ٥١٥-٥١٩.

المسلح ضد والي دولة الخلافة عثمان بن حنيف وأنصاره، وقد قتل في تلك المعركة أكثر من سبعين رجلاً، فيما سمي بيوم الجمل الأصغر، وتمّ إلقاء القبض على الوالي وقد عذّب ونتف شعر وجهه وحاجبيه ورأسه. إن البداية الدامية التي تلت الرحلة الطويلة من الحجاز إلى البصرة، كيف نتصور نهايتها السعيدة - بهذه البساطة- بالصلح!؟ إنه -في تقديري - لمن السذاجة بمكان أن نلقي مسؤولية إفشال الصلح وإشعال فتيل المعركة على هذه الفئة المشبوهة، من دون النظر إلى الاستعدادات النفسية لدى قادة أصحاب الجمل في خوض غمار المعركة. وعلى كل حال فإن الطبري وغيره من المؤرخين يثبتون رواية أخرى للمعركة[١].

وفيها يعتزل الزبير -وهو من قادة أصحاب الجمل - القتال بنفسه، بعد كلام الإمام معه، من دون أن يغيّر الموقف العام في معسكره، ذلك الموقف الذي ساهم في إيجاده مساهمة فعّالة - كما هو معروف-، وكان من المفترض أن يدعو للصلح بجديّة، ويفوّت الفرصة الشيطانية عملياً على الفئة المشبوهة، ويطفئ نار الفتنة، بعد وضوح الأمر لديه. سنقف عند هذه الرواية في حينها.

● **ثانياً: النبي الأكرم ﷺ يخبر عن حروب الإمام المستقبلية:**

قال رسول الله ﷺ لأم سلمة: «اشهدي عليّ إنّ عليّا يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»[٢]. ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «أُمرت

(١) راجع الطبري، ٣/ ٥١٩-٥٢٠.

(٢) الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن: الأمالي، ص ٣٦٦. رقم الحديث ٧٧٣/ ٢٤. عن الإمام الرضا عن آبائه عن علي.

بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين»[١]. لقول الرسول المصطفى ﷺ له: «ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين»[٢].

يقول الشارح المعتزلي: «.. فأما الطائفة الناكثة، فهم أصحابُ الجمل، وأما الطائفة الفاسقة فأصحاب صفيّن، وسمّاهم رسول الله ﷺ القاسطين، وأما الطائفة المارقة فأصحاب النهروان». ويضيف بعد ذكره للحديث النبوي الشريف: «وهذا الخبر من دلائل نبوّته صلوات الله عليه، لأنه إخبار صريح بالغيب، لا يحتمل التمويه والتدليس»[٣].

يقول العلّامة المحقق السيد جعفر العاملي: «إنّ كلّ من له أدنى إطلاع على الحديث النبوي الشريف، لا يخالجه أدنى شك في تواتر الحديث الذي يتحدث عن ثلاث فئات تحارب أمير المؤمنين علياً، عليه الصلاة والسلام. بل إنه سوف يجد قد رواه جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ونحلهم واتجاهاتهم. وهذه الفئات الثلاث هي:

---

(١) المتقي الهندي، العلّامة علاء الدين: كنز العمال ج١١، ص٢٩٢، رقم الحديث: ٣١٥٥٢. عن علي. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢٣٨/٧ (باب فيما كان بينهم يوم صفين ﷺ). عن علي قال: عهد إليّ رسول الله ﷺ في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وفي رواية أمرت بقتال الناكثين فذكره. رواه البزّار والطبراني في الأوسط وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح غير الربيع بن سعيد وثقه ابن حبان.

(٢) ابن حجر العسقلاني، الإمام شهاب الدين: لسان الميزان، ج٢، ص٤٤٦، رقم ١٨٢٧. وابن الأثير، الشيخ العلامة عز الدين: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٤/ ٣٣.

(٣) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج١، ج١، ص١٥٥.

١• الناكثون، أي ناكثو البيعة، وهم أصحاب الجمل...
٢• القاسطون، أي الجائرون، فإنه مأخوذ من «قَسَطَ» بمعنى جار، لا من «أقسط» الذي هو بمعنى عدل. والقاسطون هم الذين حاربوه عليه السلام في صفين، وهم معاوية وأهل الشام.
٣• المارقون، وهم الخوارج...»[١].

لذلك قال الإمام علي عليه السلام في شقشقيّته: «فلمّا نهضتُ بالأمر نَكَثَتْ طائفةٌ، ومرقتْ أخرى، وقسَطَ آخرون: كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ بلى! والله لقد سَمعُوها وَوَعَوْها، ولكنّهُمْ حَلِيَت الدّنيا في أعينهم، وراقهم زبْرجُها!»[٢].

عهد الإمام في مواجهة التحديات الجديدة:

إن النظرة الموضوعية على تطور الأحداث السياسية، والتعقيدات الإدارية تجعلنا نميّز عهد الإمام بظهور تحديات مصيريّة جديدة لمشروعه الإصلاحي - إدارياً وسياسياً -، الذي كان يتمحور حول «إعادة سيطرة أحكام النظام الإسلامي وسلطانه إلى عهدها السابق

---

(١) العاملي، السيد جعفر مرتضى: عليّ والخوارج، تاريخ ودراسة، ج١، ص٩-١٠. وذكر في هامش الصفحة العاشرة تفاصيل المصادر والمراجع التي اعتمدها في استنتاجه. راجع ابن الأثير، الإمام مجد الدين: النهاية...، ٥/ ١١٤.

(٢) باب الخطب، رقم٣. حَلِيَت الدنيا: يقال: حليَ الشيءُ بعيني يَحْلى إذا استحسنه. ابن منظور: لسان العرب، مج٣، حرف الحاء، ص٣١٢. الزّبرج: الزينة من وشْي أو ذهب، زِبْرج الدنيا: غرورها وزينتها. ابن منظور: لسان العرب، مج ٦، حرف الزاي، ص١٣. والآية الكريمة من سورة القصص ٢٨/ ٨٣.

[عهد النبي الأكرم ﷺ]، كما كان عليه إعادة المثل والقيم الإسلامية إلى مكانها من الفكر الإسلامي، وقد كان يعالج في كل ذلك نتائج انقلاب غير عادي في هذا المجال»[1]. ومما لا يخفى أن هنالك عوامل عديدة أدت إلى هذه الحالة، منها ما يتعلّق بالمتصدين لإدارة شؤون المسلمين، ومنها ما يتعلق بوعي المسلمين أنفسهم -التربوي والجهادي-، وفي هذا المجال -حسب تصوّري- إن الأمة الإسلامية عاشت حرارة الإيمان وحماوة الجهاد في عهد الرسول ﷺ بحضوره المبارك مباشرة، ولكن بمجرد أن أمسى على فراش الرحيل من الدنيا، بدت حالة البرود والتباطؤ نحو الجهاد، لذلك غضب ﷺ على المتخلفين عن الالتحاق بجيش أسامة، -كما مرّ معنا- وفي العهد الراشدي، كان على الساسة المتصدّين اتباع أحد الأسلوبين:

الأول • استيعاب طاقات الأمة باتجاه تعميق التربية الإيمانية، ووعي الالتزام الإسلامي، وترسيخ دعائم الفكر والأخلاق، لغرض الانطلاق في مسيرة الدعوة والتبليغ في كل مكان، مع الاستعانة بأعمال المقاومة والجهاد وقت الحاجة.

الثاني • دفع تلك الطاقات المتفجرة في الأمة نحو الجهاد والقتال، وتحقيق الفتوحات، وهذا هو الذي حدث. «ولا شك بأن حركة الفتوح التي أطلقها الخليفة الأول، ودفع بها الخليفة الثاني، محققاً انتصارات عظيمة في إطارها.. أخذت القبائل تنصهر فيها،

(١) الزين، د. حسن: الإمام علي بن أبي طالب وتجربة الحكم، ص٢٢٧.

وتتبوّأ دوراً مهماً تحت لوائها. ولكن اغتيال الخليفة الثاني.. أعاد بهذه القبائل المتقاتلة من أجل قضيةٍ هي الإسلام، إلى أن تخوض الصراع خارج حركة الفتوح الراكدة في عهد عثمان، متوسلة الدفاع عن مواقعها التي اهتزت نتيجة سياسة الخليفة وطغيان ولاته على الأمصار. وجاءت الثورة (الفتنة) لتكرس واقعاً جديداً، أصبحت القبائل في ظله متأهبة للتدخل دفاعاً عن حقوقها، حتى لو اقتضى ذلك التصدي للسلطة العليا (الخلافة»[١].

وبذلك واجه الإمام هذا التحدي الخطير في طريق بناء الدولة الإسلامية، وتوحيد المسلمين تحت راية الخلافة. فسعى تربوياً لتطهير الأمة من مرض الطمع بالسلطة والمال. وبالفعل نجح الإمام في مهمته الشاقة على مستوى البناء والإصلاح نجاحاً باهراً ضمن تلك الظروف الصعبة، فاستطاع أن ينهض بتلك الأمة المتفرقة، وبذلك الجيش الخليط، ويحقق انتصارات مباشرة على الأعداء في ميادين القتال، كما حدث للناكثين والمارقين، أما بالنسبة لمعاوية وزمرته، فصحيح أنهم نجوْا من سيف العدالة، ولكن أسقطت شرعية أعمالهم وكشف عن زيفهم. يقول ابن أبي الحديد: «..فليس يبلغ أحد في حسن السياسة، وصحة التدبير مبلغه، ولا يقدر أحد قدره.. إن سياسة علي.. جرت مجرى المعجزات لصعوبة الأمر وتعذره»[٢].

---

(١) بيضون، د. إبراهيم: الإمام علي في رؤية النهج ورواية التاريخ، ص٩٥-٩٦.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي: عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٤، ج٧، ص٥١.

وهكذا قادَ الإمام عليه السلام جبهة الحق والإيمان والإخلاص في حروبه الثلاث ضد جبهة الباطل والبغي والانحراف، بكل تفاصيلها وخلفياتها وآثارها. فواصل بناء خط الاستقامة والعدل والمساواة في الأمة، بكلّ عزيمة وثقة وصبر وثبات. وبذلك أصبحت هذه الحروب بمنطلقاتها الإيمانية، ومعطياتها السياسية، وتجربتها الميدانية، مصدر إلهام وعطاء فريديْن للأمة على مرّ العصور، وذلك لأنه «عاشها بعقله وأحاسيسه، وحرص على أن تكون كذلك لدى قادته وجنوده، مشددّاً على إبراز الهدف الذي يقاتلون من أجله، والتمييز بين قضيته وقضية العدو..»[1]. يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «كان في قتال علي عليه السلام أهل قبلة بركة، ولو لم يقاتلهم علي عليه السلام لم يدر أحد بعده كيف يسير فيهم»[2]. في التعامل مع القتلى والأسرى والغنائم من الناحية الشرعية.

وعلى ضوء ذلك تناولنا هذا الفصل في ثلاثة مباحث، لكل معركة مبحث مستقل.

---

(١) بيضون، د. إبراهيم: الإمام علي في رؤية النهج ورواية التاريخ، ص١٣٧.

(٢) الريشهري، محمد: ميزان الحكمة، ج١، ص٥٨٢، رقم ١٨٢٥.

المبحث الأول

معركة الجمل [1]

نتناول هذا المبحث ضمن المطالب التالية:

* المطلب الأول : المفاوضات السياسية، محاولات الإمام تجنيب الأمة ويلات الحرب *

* المطلب الثاني : في الطريق إلى المعركة، واختيار البصرة *

* المطلب الثالث: تعاليم وفنون حربية لكسب المعركة *

---

(١) سميت بمعركة الجمل، لأن عائشة في قيادة جيش الناكثين ركبت جَمَلاً في المعركة يقال له: عسكر، ولقد وقعت معركة الجمل يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة لسنة ٣٦هـ، الموافق للرابع من كانون الثاني سنة ٦٥٦م. في البصرة.
راجع تفاصيل الواقعة عند: المفيد، الشيخ أبو عبد الله محمد العكبري: الجمل أو النصرة في حرب البصرة. والطبري، ابن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ٣/ ٤٦٥-٥٥٥. وابن الأثير، عزّ الدين: الكامل في التاريخ، ٣/ ٢٠٥-٢٦٤.
والدينوري، أحمد بن داود: الأخبار الطوال، ص١٤٤-١٥٤. والمسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب، ج٢، ص٣٦٦-٣٨٣.

المطلب الأول

المفاوضات السياسية، محاولات الإمام علي ﷺ تجنيب الأمة ويلات الحرب

للحرب آثارها الاجتماعية وانعكاساتها النفسية الخاصة على الأمة - بغضّ النظر عن مسألة شرعيتها- لذلك حاول الإمام تخذيل عزائم الحرب لدى الأعداء، ومعالجة تراكمات الفتن بالحلول السلمية والمفاوضات السياسية، بشكل يضمن إثبات الحق. إلّا أنّ التطورات السياسية المتلاحقة، التي غذتها إفرازات وتفاعلات الحالات النفسية السلبية لدى الطامعين بالخلافة، عزّزت لديهم خيار الحرب، وبالفعل حصروا علاجهم بخوضها، وبالتالي لتتحمل الأمة ويلات الحرب وآثارها.

- **مفهوم الحرب الداخلية عند الإمام ﷺ:**

قبل الخوض في صميم هذا المطلب، تجدر الإشارة إلى هذه المسألة المهمة، ففي منهج الإمام الجهادي، لا يخرج هذا المفهوم عن مفهوم الجهاد في سبيل الله، وذلك لأن الوقوف في وجه العدو المحارب يتمثل في جبهتين أساسيتين: الأولى الجبهة الخارجية لصد العدوان الأجنبي، والثانية الجبهة الداخلية للقضاء على الفتن

والاضطرابات والعصيان. وربما تكون معالجة الفتن الداخلية عن طريق الحروب أكثر إيلاماً للنظام الإسلامي ودولة المسلمين ومصالحهم.

إن الإمام عليه السلام في سياسته الجهادية ينظر إلى حقيقة ماثلة أمامه، وهي تجسّد قمة أهداف حياته، المتلخصة في حماية مبادئ الإسلام وحفظ المسلمين من جميع الأعداء، سواءً كانوا من الخارج أم الداخل، وترسيخ قيم الرسالة في قلوب المؤمنين، بكل الوسائل المتناسبة مع متطلبات الحاجة المرحلية لذلك. فاليد الطولى التي تمتد نحو عالم الإسلام والمسلمين لتنال منه بالسوء والاعتداء والاستغلال، يوجب الإسلام مقاومتها وحربها تطبيقاً لفرض الجهاد، كذلك يجري فرض المقاومة والجهاد ضدّ اليد الطولى، إذا امتدت من داخل المسلمين وهي تحاول النيل من الإسلام ووحدة المسلمين، وأمنهم. فالإمام عليه السلام حينما استلم زمام قيادة الأمة، كانت الأمة في طريق استمرار الفتن واستفحال الأزمات، والمضي في الانهيارات العقَدَيّة والانقسامات السياسية، فجاءت خلافة الإمام عليه السلام في موقع الإنقاذ للمبادئ الإسلامية الأصيلة من أيدي العابثين بها، ولتثبيت مصالح المسلمين الشرعية - حقوقاً وواجبات - فما كان في ظروف خلافته خيارٌ إلّا خوض غمار الحروب الداخلية المفروضة، لغرض تصفية المعارضة المسلحة التي تحاول استهداف صميم الإسلام في مبادئه وقيمه، لتحوّله إلى نظام ملكي وراثي، وأداة لتحقيق المآرب المصلحية باسم الدين.

فقد قال عليه السلام: «..ولقد ضربت أنفَ هذا الأمر وعيْنَهُ، وقلّبتُ

ظهره وبطنه، فلم أرَ لي فيه إلّا القتال أو الكفر بما جاء به محمد ﷺ»[١].

وعلى ما تقدم، فإن مفهوم الحرب لدى الإمام عليه السلام يتمركز حول مبدأ الجهاد والقتال في سبيل الله بالمعنى الموسّع لهذا الفرض الشرعي، وقد زاوله الإمام في ظل قيادة رسول الله ﷺ في حروبه ضد المشركين واليهود. وحمل راية الجهاد قائداً في عهد خلافته، فكان يرى ببصيرته الثاقبة ووعي تجربته الجهادية في المرحلتين، أن المعركة ذاتها متواصلة في عهده من أجل تثبيت قيم الرسالة الإسلامية في حياة الأمة، لأن الأعداء يستهدفون الإسلام في صميمه، فمرَّةً من خارج حدود الإسلام، كما جرى في عهد رسول الله ﷺ، وتارةً من داخله، كما جرى في عهده، حبّاً منهم للتسلط والعودة إلى امتيازاتهم الاولى. فإذن كانت حروبه عليه السلام امتداداً لحروب الرسول الأعظم ﷺ ضد المعتدين والمستغلين، لذلك قال في رسالته إلى أخيه عقيل بن أبي طالب: «.. فدعْ عنكَ قريشاً وتركاضَهُمْ في الضّلال، وتجوالَهُمْ في الشّقاق، وجماحَهُمْ في التّيه، فإنّهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهمْ على حرب رسول الله - ﷺ - قبلي»[٢].

وبذلك كان مفهوم الحرب عند الإمام عليه السلام: «مواكباً فكرة

---

(١) باب الخطب، رقم ٤٣. ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه: مثل تقوله العرب في الاستقصاء في البحث والتأمل والفكر.

(٢) باب الرسائل، رقم ٣٦. التركاض: مبالغة في الركض، واستعارة لسرعة خواطرهم في الضلال. التّجوال: مبالغة في الجول والجولان. الشّقاق: الخلاف. جماحهم: استعصاؤهم على سابق الحق. التيه: الضلال والغواية.التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٦٦٠.

الجهاد ومضمونها الإسلامي الشمولي، فهي حرب معلنة ضد الباطل والظلم والبغي، نهض فيها علي وهو دون العشرين، وقد ذرّف على الستين، كما يقول في خطبته الشهيرة[١]، وهو خائض غمارها من أجل هذه المبادئ»[٢] الحقة والقيم الإنسانية في الإسلام، ولأجل إنقاذ الأمة المهدّدة في إيمانها ووعيها من عوامل الظلم والبغي والاستغلال، حيث بدأت تَرسم معالم الانحراف دوائرُ النفعيّين والمستغلين. «وبهذا المعنى كانت دولة علي استمراراً لدولة الرسول، إذ عاشت كلتاهما حالة حرب دائمة، ولم تتوان عن التعبئة وحشد المقاتلين والتأهّب لدفع الخطر، ورفع راية الجهاد، ومن ثمّ ترسيخ مبدأ الشهادة التي تصبح مطلباً، كما النصر في نهاية المطاف»[٣]. لذلك قال عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة: «. . ولكم علينا العملُ بكتاب الله تعالى وسيرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والقيام بحقّه، والنّعْشُ لسُنّته»[٤]. فإن أطاعوه «يعمل فيهم بكتاب الله

---

(١) إشارة إلى إحدى خطبه الاستنهاضيّة للجهاد، حيث جاء فيها: (. . وهل أحدٌ أشدّ لها مراساً، وأقدم فيها مقاماً منّي! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وهأنذا قد ذرّفت على الستين. .). باب الخطب، رقم٢٧. بنهاية الخطبة. مراساً: مصدر مارسه ممارسة ومراساً. أي: عالجه وزاوله وعاناه. أنيس، د.إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، باب الميم، ص٨٦٣. ذرّفت على الستين: زدتُ عليها. بن زكريا، أحمد ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مج ٢، كتاب الذال، ص٣٥١.

(٢) بيضون، د. إبراهيم: الإمام علي في رؤية النهج ورواية المنهج، ص١٣٧.

(٣) المرجع ذاته، ص ١٣٩.

(٤) باب الخطب، رقم ١٦٩. النّعش، مصدر نعشه، إذا رفعه. الصالح، د. صبحي: نهج البلاغة، فهرس الألفاظ الغريبة المشروحة، ص٦٣٩، رقم ٢١٧٥.

ويسير سيرة رسول الله ﷺ، والقيام بحقوقه التي أوجبها وإقامة سنته، وذلك هو الواجب على الإمام»[١].

نتناول هذا المطلب عبر المحاور التالية:

١• الأولوية للحوار السياسي.

٢• استمرار نصائح الإمام عليه السلام لأصحاب الجمل.

٣• أساليب الحوار لدى الإمام.

● **الأولوية للحوار السياسي:**

وذلك لغرض تحقيق الحل السلمي، وإبعاد الأمة عن العنف والقتال وكوارث الحرب وآثارها. لقد استخدم الإمام سلاح الحوار السياسي في مواجهة المعارضة والمحاربين، لغرض إتمام الحجّة على الأعداء، في تثبيت الحق. ولم تكن أولويته للحوار مع الأعداء منطلقة من زاوية الضعف، بل من موقع القوة والثبات لذلك قال عليه السلام في خطبة له، حين بلغه خبر الناكثين ببيعته: «. . فإنْ أبَوْا أعطيتُهُمْ حدّ السيف وكفى به شافياً من الباطل، وناصراً للحق! . . لقد كنتُ وما أُهدّدُ بالحرب، ولا أرهبُ بالضرب!»[٢]. وإنه ليعلم بانتصار جيشه على ضوء المعطيات الموضوعية، فقد قال قبل معركة الجمل: «والله ليقتلنّ ثلثهم، وليهربنّ ثلثهم، وليتوبنّ ثلثهم»[٣]. ومع هذه الثقة النادرة

---

(١) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٣٢٦.

(٢) باب الخطب، رقم ٢٢، المقطع الأخير (التهديد بالحرب).

(٣) المحمودي، الشيخ محمد باقر: نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٢٥٠.

بالنفس كان يبادر أعداءه بالحوار والمفاوضات، رادّاً على شبهاتهم وذرائعهم في إثارة الفتنة وشنّ الحرب، مسلّطاً الأضواء على الأسباب الحقيقية التي تقف وراء دوافعهم العدوانية وشبهاتهم، وأهمها:

أ • شبهة اتهام الإمام بالوقوف وراء مقتل الخليفة عثمان، وهذه الشبهة ندركها من خلال ردّ الإمام لها - كما سنرى-، وقد تذرّع بها الأعداء، لإثارة الحميّة القبلية والرأي العام ضد الخليفة الجديد. وكان من أبرز الذين رفعوا قميص عثمان ذريعة لشن حرب الجمل ضد دولة الخلافة، هم: طلحة والزبير وعائشة - زوجة الرسول المصطفى ﷺ- ومعاوية، وعمرو بن العاص[1].

لقد كان موقف الإمام واضحاً من سياسة الخليفة عثمان، ولم يخرج عن إطار النصح والإرشاد، كما أعلن براءته من دم عثمان، حيث قال لطلحة والزبير: «وقد زَعْمتُما أنّي قتلتُ عثمان، فبيْني وبينكما من تخلّفَ عنّي وعنكما من أهل المدينة، ثُمّ يُلزَمُ كُلّ امْرئ بقدْر ما احتَمل فارْجعا أيّها الشيخان عن رأيكما..»[2]. وبهذا الردّ

(١) يذكر الطبري في رواية، بأن القاتل المباشر قد قُتل، وهو سودان بن حمران السكوني، بعد أن حاولت زوجة الخليفة نائلة أن تحميه، وقد قطعت أصابع يدها إثر ذلك. فدخل غلمة الخليفة عليه، فقتلوا القاتل. ويذكر رواية أخرى بأن القاتل هو كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي، من مصر، وقيل غيره أيضاً. الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٤٢١-٤٢٤.

(٢) باب الرسائل، رقم ٥٤.

الواضح يلزمهما الإمام بتقديم البيّنة على ادّعائهما الباطل، ويطالبهما بالتراجع. وله أكثر من موقف يردّ على معاوية في هذا الاتجاه، فقد قال له في إحدى رسائله: «ولعمري يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدَني أبرأ الناس منْ دم عثمان، ولتعلمنّ أنّي كنت في عُزلةٍ عنه إلّا أن تتجنّى..»[١]. أي أني «أكثر الناس براءة، إذْ لم أشرك فيه بيد ولا لسان»[٢]. بينما كان موقفه في إطار النصح والإرشاد للخليفة، والتحذير من العواقب، حيث قال عليه السلام: «..فإن كان الذنبُ إليه إرشادي وهدايتي له، فرُبّ مَلوم لا ذنبَ له. وقد يستفيدُ الظّنّةَ المتنصّحُ. وما أردت إلّا الإصلاح ما استطعتُ، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٣]. يقول الشيخ محمد عبده: «..والظّنة -الكسر-: التّهمة، والمتنصّح: المبالغ في النصح لمن لا ينتصح، أي ربّما تنشأ التهمة من إخلاص النصيحة لمن لا يقبلها»[٤]. فيتّهم بالغشّ من كثرة النصح، وقد ذكر الإمام عليه السلام عجز بيت يضرب به المثل، والبيت - بصدره وعجزه - هو: [الطويل]

وكمْ سُقْتُ في آثاركم من نصيحة
وقد يستفيدُ الظّنّةَ المتنصّحُ[٥]

---

(١) باب الرسائل، رقم ٦.
(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٣، ص٤٦١.
(٣) باب الرسائل، رقم ٢٨. والآية المباركة من سورة هود ١١/ ٨٨.
(٤) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٣٤-٣٥.
(٥) المرجع ذاته، ص٣٦.

ب• كشف الإمام النقاب عن المحرّضين والمتهمين بقتل الخليفة عثمان، فقد حرّض على قتله أقطاب الحروب العدوانية ضد دولة الإمام. فمثلاً حرّضت أم المؤمنين عائشة على قتله لأنها كانت غاضبة على سياسته، قال الإمام عليه السلام: «وكان من عائشة فيه فَلتةُ غضب»[١]. ولقد روي: «إن عائشة أم المؤمنين أخرجت نعليْ رسول الله صلى الله عليه وآله وقميصه من تحت ستارها، وعثمان على المنبر، وقالت: هذان نعلا رسول الله وقميصه لم تُبْلَ، وقد بدّلتَ من دينه، وغيّرت من سنّته، وجرى بينهما كلام المخاشنة، فقالت: اقتلوا نعثلاً، تشبهه برجل معروف»[٢]. والروايات التاريخية تؤكد على أنها مع طلحة والزبير، كانوا من أشدّ المحرّضين على قتل الخليفة عثمان، يذكر الشيخ المفيد إن عائشة التقت ابن عباس وهو في طريقه إلى المدينة، أيام محنة الخليفة، فقالت له: يا بن عباس إنك قد أوتيت عقلاً وبياناً، إياك ان تردّ الناس عن قتل الطاغية»[٣]. لذلك يقول اليعقوبي في تاريخه: «وكان أكثر من يؤلّب عليه طلحة والزبير وعائشة، فكتب إلى معاوية يسأل تعجيل القدوم عليه، فتوجه إليه في اثني عشر ألفاً، ثم قال: كونوا بمكانكم في أوائل الشام، حتى آتي أمير المؤمنين لأعرف

(١) باب الرسائل، رقم ١.

(٢) التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٥٨٨. راجع ابن أبي يعقوب، أحمد: تاريخ اليعقوبي، ٢/ ١٧٥، باختلاف لفظي يسير.

(٣) الشيخ المفيد، محمد العكبري: الجمل، أو النصرة في حرب البصرة، ص٧٧.

صحّة أمره، فأتى عثمان.. فقال: قد قدمتُ لأعرف رأيك وأعود إليهم فأجيئك بهم. قال: لا والله، ولكنك أردت أن أُقتل فتقول: أنا وليُّ الثأر، ارجع وجئني بالناس. فرجع فلم يعد إليه حتى قتل»[١]. يظهر من هذه الرواية أنّ الخليفة أدرك بوضوح موقف معاوية الانتهازي، و«هو موقف الرجل الذي لا يبالي بعد أمانه على ولايته، أن تنجم الفتنة حيث نجمت، وان يبتلي بها الخليفة بنجوةٍ منه»[٢]. من هنا يستنتج الشيخ المفيد من استقرائه التاريخي قوله: «ألا ترى أن طلحة والزبير وعائشة بإجماع العلماء بالسير والآثار، هم الذين كانوا أوكد السبب لخلع عثمان وحصره وقتله، وأمير المؤمنين لم يزل يدفعهم عن ذلك.. ويبذل الجهد في إصلاح حاله مع المنكرين عليه»[٣]. ويذكر ابن عبد ربه انه «دخل المغيرة بن شعبة على عائشة، فقالت: يا أبا عبد الله لو رأيتني يوم الجمل، وقد نفذتْ النِّصال هوْدجي حتى وصل بعضها إلى جلدي. قال لها المغيرة: وددت والله أن بعضها كان قتلك.. لعلها تكون كفارة في سعيك على عثمان..»[٤]. لذلك قال

(١) ابن أبي يعقوب، أحمد: تاريخ اليعقوبي، ٢/ ١٧٥.

(٢) العقاد، عباس محمود: معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية، مج٤، الكتاب الخامس، ص٩٥.

(٣) الشيخ المفيد، محمد العكبري: الجمل..، ص٦٧-٦٨. ويذكر تفاصيل ما صنعوه مع الخليفة عثمان، في المرجع ذاته، ص٦٧-٧٧.

(٤) الأندلسي، ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٤/ ٢٩٦.

الإمام: «والله ما أنكروا عليّ منكراً، ولا جعلوا بيني وبينهم نِصْفاً، وإنّهم ليَطْلُبُون حقّاً هم تركوه، ودماً هم سفكُوهُ، فإن كنتُ شريكهم فيه، فإنّ لهم نصيبهم منه، وإنْ كانوا وَلُوهُ دوني فما الطِّلِبَةُ إلّا قِبَلَهُمْ»(١).

إن الإمام يحتجّ على تصرفهم قبيل مقتل عثمان، في عدم نصرته والدفاع عنه، ويطالبهم بالموقف العادل اتجاه دفاعه عن الخليفة وخذلانهم له، فمثلاً يقول الإمام في إحدى رسائله لمعاوية، حول الخليفة عثمان:

«. . فأيُّنا كان أعْدى له، وأهدى إلى مقاتِلِه! أمَنْ بَذَلَ له نُصْرَتَهُ فاسْتَقْعَدَهُ، واسْتَكَفَّهُ، أم مَنِ اسْتنصَرَهُ فتراخى عنه وبثَّ المنونَ إليه، حتى أتى قَدَرُهُ عليه. كلا واللهِ لـ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾»(٢).

وهكذا يبين الإمام أن معاوية «هو الذي كان عدوّه وخاذله، وانه عليه السلام كان ناصره ومعرض نفسه للذبّ عنه، فاستفهم عن أيّهما كان أعدى عليه. . استفهام توبيخ له. . وأشار إلى دخول معاوية في دمه بقوله: «أمّن استنصره فتراخى عنه وبثّ المنون إليه»، وذلك أنه بعث حال حصاره إلى الشام مستصرخاً بمعاوية فلم يزل يعده

(١) باب الخطب، رقم ١٣٧. النّصف - بكسر النون -: الإنصاف، والمعاملة بالعدل. الطِّلبة - بفتح الطاء وكسر اللام -: الحاجة، والمطلوب بالثأر. أنيس، د.إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، باب النون، ص٩٢٦. وباب الطاء، ص٥٦١.

(٢) باب الرسائل، رقم ٢٨، والآية المباركة من سورة الأحزاب ٣٣/١٨.

ويتراخى عنه، لطَمَعه في الأمر إلى أن قُتل»[١]. وحينما سئل فيما بعد عن سبب عدم نصرته الخليفة عثمان، قال: «طلبي بدمه نصرة له»[٢]. وبالفعل حينما آل الأمر إليه فيما بعد، طوى عن اهتماماته ملف كشف حقيقة القاتلين، وذلك لتحقيق غرضه منه.

ج • شبهة عدم إجماع الأمة على بيعة الإمام بالخلافة، والحقيقة أنّ هذه الشبهة غير دقيقة، على ضوء مجريات الأحداث آنذاك - وبعيداً عن المسألة الاعتقادية في أحقية الإمام بالخلافة - فإن كتب التاريخ تتحدث عن تزاحم الصحابة وعموم الناس على بيعة الإمام من دون إكراه، وأكتفي هنا بذكر استنتاج الدكتور محمد حسين الصغير في منهجه التحليلي لحياة الإمام علي عليه السلام، حيث يقول: «وكأن علياً أراد ببيعته الإصحار لا الإسرار، حتى لا يدّعي أحدٌ الإكراه، وكأنه أراد المهاجرين والأنصار.. فلم يبق بدريّ إلّا أتى عليّاً، وقالوا له جميعاً: ما نرى أحداً أحقّ بها منك يا أبا الحسن. وكان ما قالوه عين الصواب.. وكانت البيعة رضا للمهاجرين والأنصار، وبمباركة أهل بدرٍ خاصّة، وكانت رضا للثوار من الأمصار والأقاليم، وتخلّف عن البيعة من طمَعَ بالخلافة، أو انحرف عن الإمام، أو أظهر الاعتزال، وهم جماعة يعدّون

(١) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٣٩١-٣٩٢.

(٢) السيوطي، جلال الدين: تاريخ الخلفاء، ص٢٠٠. أجرى معاوية حواره مع الصحابي أبي الطفيل عامر بن واثلة.

بالأصابع.. تمّت البيعة لعلي عليه السلام، وكانت رضا لعامّة المسلمين، إلّا هذا النفر الشاذ..»[١]. وبالفعل لقد بويع «بيعة العامة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، وبايع أهل البصرة، وبايع له بالمدينة طلحة والزبير..»[٢]. وقد قال الإمام عليه السلام واصفاً حالة المسلمين يوم بيعته: «وبسطتم يدي فكفَفْتُها، ومددْتمُوها فقبضْتُها، ثمّ تداكَكْتُمْ عليّ تداكّ الإبل الهيم على حياضها يوم وِرْدها، حتى انقطعت النّعلُ، وسقط الرّداءُ، ووطئ الضعيف، وبلغ من سرور الناس ببيْعتهمْ إيّاي أن ابتهج بها الصغير، وهَدَج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليلُ، وحسَرَتْ إليها الكعاب»[٣].

ويمكن تفسير هذا الموقف المتشدّد من قبل الإمام في مسألة مبايعة الأمة له، إنه أرادها بيعة مشروطة بإطاعته التامة، وذلك لأنه عليه السلام قرأ مستقبلاً صعباً لمهمته القيادية، لما أصاب الحالة الإسلامية من توجهات مصلحية ومادية، فمرحلته الاصلاحية تتطلب تضحيات جسيمة وصبر طويل من قبل الأمة، لثقل مسؤولية العودة إلى جادة الاستقامة، لذلك قال عليه السلام: «دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوهٌ وألوانٌ، لا تقوم له

(١) الصغير، أ.د.محمد حسين: الإمام علي عليه السلام، سيرته وقيادته في ضوء المنهج التحليلي، ص٢٣٧-٢٣٨.

(٢) الشبلنجي، الشيخ مؤمن بن حسن: نور الأبصار، ص٩٨.

(٣) باب الخطب، رقم ٢٢٩.

القلوبُ، ولا تَثْبُتُ عليه العقولُ، وإنّ الآفاق قد أغامت، والمحجّةَ قد تنكرّت، واعلموا أني إن أجَبْتكم ركبْتُ بكم ما أعلم، ولم أصْغِ إلى قول القائل وعَتْبِ العاتب..»[١].

ولذلك بلغ ازدحام الأمة أوجّه في المسجد، وبمختلف الفئات حول الإمام عليه السلام لمبايعته بالخلافة، إلى درجة التداكّ، «كأن كل واحد يدكّ الآخر، أي يدّقه»[٢]. مثل تدافع الإبل العطاش حين ورودها الماء.

حتى انقطعت نعل الإمام، وسقط رداؤه من على منكبه، وسحق الضعيف من شدة ازدحام الناس، وهم مقبلون على البيعة طوعاً من دون إكراه. ففرح الصغير بالبيعة و«هدج إليها الكبير» أي: «مشى مشياً ضعيفاً مرتعشاً. وتحامل نحوها العليل: تكلف المشي على مشقة.. وحسرت إليها الكعاب: كشفت عن وجهها حرصاً على حضور البيعة، لتعقدها بلا استحياء لشدة الرغبة والحرص على إتمام الأمر لأمير المؤمنين. والغرض من الكلام الاحتجاج على المخالفين بأن الأمة بايعته مختارة»[٣]. ومما يذكر أنّ قلة من الصحابة لم يبايعوا عليّاً، فلم يجبرهم على البيعة، أمثال: سعد بن

(١) باب الخطب، رقم ٩٢.
(٢) التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٥٦٧.
(٣) المرجع ذاته، ص٥٦٧.

أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وحسّان بن ثابت، وحينما طلبوا من ابن عمر كفيلاً لاخلاء سبيله، قال علي: «دعوه أنا كفيله»![1].

● **استمرار نصائح الإمام عليه السلام لأصحاب الجمل:**

وهم الناكثون لبيعته، وذلك سعياً منه لإيقاظهم من غفلتهم، وتحريك وجدانهم الداخلي ليعودوا إلى رشدهم، وقد منح أقطاب الفتنة مهلة كافية قبل قتالهم.

وكانت هذه النصائح والإرشادات، متوجهة إليهم بشكل مباشر أحياناً، وتارة بصورة غير مباشرة، بهدف إعطاء المتلقين العبرة والدروس من تجربته الإرشادية مع الناكثين.

وللمثال نذكر تلك النصيحة المباشرة التي كتبها إلى طلحة والزبير في قوله عليه السلام: «أما بعد، فقد عَلِمْتُما، وإنْ كتمْتُما، أنّي لمْ أرد الناس حتى أرادوني، ولم أبايعْهُمْ حتى بايعوني، وإنّكما ممّنْ أرادني وبايعني، وإن العامّة لم تُبايعْني لسُلطانٍ غالب، ولا لعَرَض حاضر، فإنْ كُنتْما بايعتُماني طائعيْن، فارْجعا وتوبا إلى الله من قريب، وإن كُنتما بايعتُماني كارهيْن، فقدْ جعلتُما لي عليكُما السبيل بإظْهاركُما الطّاعة، وإسراركُما المعصية. ولَعَمرْي ما كنتُما بأحقّ المهاجرين بالتّقية والكتمان، وإنّ دَفْعَكُما هذا الأمر من قبْل أنْ تدخلا فيه، كان أوسَعَ عليكما من خروجكُما منه، بعد إقرار كما به.

---

(١) ابن الأثير، عزّ الدين: الكامل في التاريخ، ٣/ ١٩١.

. . . فارْجعا أيّها الشّيْخان عَن رأيكُما، فإنّ الآنَ أعظمَ أمركما العارُ، منْ قبْل أن يتجمّع العارُ والنارُ، والسلام»[١].

يقول الشارح المعتزلي في قوله عليه السلام: «وإن العامّة لم تبايعني لسلطانٍ غالب، ولا لغرضٍ حاضر». أي «لم يبايعني العامّة والمسلمون لسلطان غصَبَهم وقهرهم على ذلك، ولا لحرص حاضر، أي مال موجود فرّقته عليهم. ثم قسّم عليهما الكلام، فقال: إن كنتما بايعتُماني طوعاً عن رضا فقد وجب عليكما الرّجوع، لأنه لا وجه لانتقاض البيعة، وإن كنتما بايعتُماني مكرهيْن عليها فالإكراه له صورة، وهي أن يجرد السيف ويمدّ العنق، ولم يكن قد وقع ذلك، ولا يمكنكما أن تدّعياه، وإن كنتما بايعتماني لا عن رضا ولا مكرهين بل كارهين، وبينَ المُكرَه والكاره فرقٌ بيّن، فالأمور الشرعية إنما تُبنى على الظاهر، وقد جَعَلْتما لي على أنفسكما السبيل بإظهاركما الطاعة، والدخول فيما دخل فيه الناس، ولا اعتبار بما أسررْتُما من كراهية ذلك. على أنه لو كان عندي ما يكرهه المسلمون لكان المهاجرون في كراهية ذلك سواء، فما الذي جعلكما أحقّ المهاجرين كلّهم بالكتمان والتقيّة!.

ثم قال: وقد كان امتناعكما عن البيعة في مبدأ الأمر أجمل من دخولكما فيها ثمّ نكثها. . ثم نهاهما عن الإصرار على الخطيئة، وقال لهما: إنكما إنما تخافان العار في رجوعكما وانصرافكما عن الحرب،

---

(١) باب الرسائل، رقم ٥٤. العَرَض - بالتحريك -: المتاع، عَرَض الدنيا: أي ما كان من حالٍ قلّ أو كثر، يقال: الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأكل منها البر والفاجر. الجوهري، إسماعيل بن حمّاد: الصحاح، ج٣، مادة: عَرَض، ص١٠٨٣.

فإن لم ترجعا آجتمع عليكما العار والنار»[١]. العار في الدنيا بلزومكما الغدر ونقض العهد، والنار يوم الحساب.

وقال عليه السلام لهما في توجيه نصائحه بصورة غير مباشرة، وربما قصد منها تزويد المتلّقين دروس الصبر والثبات في المواقف: «. . ولقد استتبْتُهما قبل القتال، واسْتأنيْتُ بهما أمامَ الوقاع، فغَمطا النّعمة، وردّا العافية»[٢]. والمعنى: «طلبت منهما أن يثوبا، أي يرجعا، ويروى: «ولقد استتبْتهُما» أي طلبت منها أن يتوبا»[٣]. وهذا هو «إظهار لعذره مع الناس في حقّهما قبل وقاع الحرب، بتأنّيه فيه في حقهما، واستعطافه لهما في الرجوع إلى الحق، واستتابته لهما من ذنبهما في نكث البيعة. [ثمّ بيّن ردّهما العملي]. . مقابلتهما للسلامة والعافية من بلاء الحرب والشقاق وهلاك الدين والنفس في عاقبة فعلهما بردّهما لهما والإصرار على الحرب. .»[٤]. وقد قال الخليفة عثمان لطلحة -حينما دخل عليه مستغفراً الله سبحانه من عمله في حجز أموال بيت المال، التي وزّعت بالعدل، وذلك بإشارة من الخليفة، وبأمرٍ من عليٍّ -: «إنك والله ما جئت تائباً، ولكنك جئت مغلوباً، والله حسيبك يا طلحة»[٥]. هذا وقد كتب الإمام إلى

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٩، ج١٧، ص٩٦-٩٧.

(٢) باب الخطب، رقم ١٣٧. غمط النعمة: - بالكسر - يغمطُها - يقال: غمِط عيشه وغمَطه - أيضاً بالفتح، غَمْطاً بالتسكين فيهما، أي بطرَهُ وحقّرهُ. الجوهري، المصدر ذاته، ج٣، مادة غمط، ص١١٤٧.

(٣) التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٣٢٩.

(٤) البحراني، العلّامة ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١٥٨.

(٥) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ٣/ ٤٥٣.

عائشة رضي الله عنها «اما بعد: فإنك خرجتِ من بيتك تطالبين أمراً كان عنك موضوعاً، ثم تزعمين أنك لم تريدي إلّا الاصلاح بين الناس، فخبّريني ما للنساء وقوْد العسكر، وزعمت انكِ مطالبة بدم عثمان، وعثمان رجل من بني أُمية، وأنتِ امرأة من بني تيم بن مرّة، لعمري إن أخرجك لهذا الأمر وحمَلك عليه لأعظم ذنباً إليك من كل أحد، فاتقي الله يا عائشة وارجعي إلى منزلك واسبلي عليك سترك، والسلام»[1].

- **أساليب الحوار لدى الإمام علي عليه السلام:**

اتبع الإمام عدة أساليب في حواره مع الأعداء، فمن تلك الأساليب في معركة الجمل:

أ • أسلوب كتابة الرسائل، فمثلاً «لما سار أمير المؤمنين عليه السلام من ذي قار، قدم صعصعة بن صوحان بكتاب علي عليه السلام إلى طلحة والزبير وعائشة، يعظّم عليهم حرمة الإسلام ويخوفهم فيما صنعوه، وقبيح ما ارتكبوه، من قتل مَنْ قَتلوا من المسلمين، وما صنعوا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وآله عثمان بن حنيف رضي الله عنه [عامله على البصرة] وقتلهم المسلمين صبراً، ووعظهم ودعاهم إلى الطاعة. قال صعصعة -رضي الله عنه- فقدمت عليهم فبدأت بطلحة وأعطيته الكتاب وأديت الرسالة، فقال: الآن حين عضّت ابن أبي طالب الحرب ترفّق لنا. ثم جئت إلى الزبير فوجدته ألين من

(١) الشبلنجي، الشيخ مؤمن بن حسن: نور الأبصار، ص١٠١.

طلحة، ثم جئت إلى عائشة فوجدتها أسرع الناس إلى الشر، فقالت: نعم خرجت للطلب بدم عثمان، والله لأفعلن وأفعلن. فعدتُ إلى أمير المؤمنين -عليه السلام- فلقيته قبل أن يدخل البصرة، فقال: ما وراءك يا صعصعة؟ قلت يا أمير المؤمنين رأيت قوماً لا يريدون إلّا قتالك: فقال: الله المستعان»[١].

ب• أسلوب المفاوضات المباشرة، إما من قبله عليه السلام - وجهاً لوجه - مع رموز الفتنة والحرب، وإما عبر اختيار المفاوضين المناسبين لغرض إجراء الحوار مع الأعداء، مع تزويدهم بالخبرات الخاصة والوصايا المطلوبة. فمثلاً، حينما أنفذ الإمام عليه السلام عبد الله بن عباس إلى الزبير قبل حرب الجمل، ليحاوره، في محاولة لإرجاعه إلى طاعة الإمام، وقد زوّده بالمعلومات المهمة حيث قال عليه السلام: «لا تَلْقَيَنّ طلحةَ، فإنك إنْ تلقَهُ تجدْهُ كالثّور عاقصاً قَرْنَهُ، يركبُ الصّعْبَ ويقول: هو الذّلولُ. ولكن القَ الزبير، فإنه ألين عريكةً، فقل له: يقولُ لك ابْنُ خالك: عرفتني بالحجاز وأنْكرتني بالعراق، فما عدا ممّا بدا»[٢].

---

(١) الشيخ المفيد، أبو عبد الله محمد العكبري: الجمل، أو النصرة في حرب البصرة، ص١٦٧. وصعصعة بن صوحان العبدي، هو من أصحاب الإمام عليه السلام الثقاة، وهو الذي أسلم في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يَرَه، وكان خطيباً فصيحاً ومؤثراً، وله مواقف شجاعة يحتجّ فيها على معاوية، رادّاً كلامه ومُنتقداً سلوكه، ولقد نفاه المغيرة من الكوفة بأمر من معاوية، وتوفي في عهد معاوية. انظر: الأمين، الإمام السيد محسن: أعيان الشيعة، مج١١، حرف الصاد، ص٤١٨، رقم ٧٧٢٢.

(٢) باب الخطب، رقم ٣١. عاقصاً قرنه: من (عقَصَ شعره) إذا ضفره وفتله ولواه، =

يقول العلامة البحراني في شرحه الوسيط لقوله عليه السلام في طلحة «كالثور عاقصاً قَرنه»: «هو وجه الشبه بالثور، وكنّى به عن تكبره وخشونة جانبه، وإصراره على الحرب. والعقص: التواء القرنيْن. وكنّى بقوله: «يركب الصعب ويقول: هو الذّلول» عن تهوّره في ركوب الأمور الصعبة. والعريكة: الطبع، وكان الزبير ألين طبعاً، وذكر النسب تذكيراً بالرّحم، وكونه ابن خاله لأن صفية أم الزبير، أخت أبي طالب وبنت عبد المطلب، وقوله: فما عدا مما بدا، مثل يضرب لمن يفعل فعلاً باختياره ثم يرجع عنه وينكره..»[١].

وهكذا نلاحظ، إن الإمام يختار من يعتمد عليه في الحوار وهو ابن عباس، يطلب منه محاورة الزبير لامكانية الحوار معه، بينما يترك طلحة لأنه مغلق على فكرته مغرور بإصراره عليها، ألا وهي المعركة والقتال. وأنْ يذكّر الزبير بالرحم قد يعيده إلى الرشد والانتباه، من دون استفزاز نفسي، فلم يقل له، يقول أمير المؤمنين أو الخليفة[٢].

بهذه الروحية السامية كان الإمام يبعث المفاوضين،

= يقال: تيسٌ أعقص، وهو الذي التوى قرناه على أذنيه من خلفه. الجوهري، إسماعيل ابن حمّاد: الصحاح، ج٣، مادة عقص، ص١٠٤٦. كناية عن تغطرسه وكبره.

(١) البحراني، كمال الدين ابن ميثم: اختيار مصباح السالكين، شرح نهج البلاغة الوسيط، ص ١٣٦-١٣٧.

(٢) البستاني، محمد: الإستراتيجية العسكرية عند الإمام علي عليه السلام، ص١١٨-١١٩.

لغرض إجراء الحوار مع الأعداء المحاربين، وإذا اقتضى الأمر فيُجري الحوار بنفسه مباشرة مع العدو والمحارب، كما حدث مع الزبير - أيضاً- قبيل وقوع حرب الجمل. يقول الطبري: «فلما توافقوا خرج عليّ على فرسه فدعا الزبير فتوافقا، فقال عليّ للزبير: ما جاء بك. قال: أنت ولا أراك لهذا الأمر أهلاً، ولا أوْلى به منّا. فقال عليّ: لست له أهلاً بعد عثمان ﷺ، قد كنّا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء، ففرّق بيننا وبينك.. فذكر أن النبي ﷺ مرّ عليهما، فقال لعلي: ما يقول ابن عمتك ليقاتلنك وهوَ لك ظالم، فانصرف عنه الزبير، وقال: فإني لا أُقاتلك، فرجع إلى ابنه عبد الله. فقال: ما لي في هذه الحرب بصيرة، فقال له ابنه: إنك قد خرجت على بصيرة، ولكنك رأيت رايات ابن أبي طالب وعرفت أن تحتها الموت فجبنت [!].. وقال: ويحك إني قد حلفت له ألّا أُقاتله.. وكان علي قال للزبير أتطلب مني دم عثمان وأنت قتلته، سلّط الله على أشدّنا عليه اليوم ما يكره. وقال عليّ: يا طلحة جئت بعُرس رسول ﷺ تقاتل بها وخبّأت عُرسك في البيت، أما بايعتني»[1].

(١) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ٣/٥١٩-٥٢٠. ومن الطريف ذكره، أن أم المؤمنين عائشة كتبت للصحابي زيد بن صوحان تأمره بلزوم بيته في الكوفة وعدم لحوقه بعلي إلى البصرة، فقال: «رحم الله أم المؤمنين أمرت أن تلزم بيتها، وأمرنا أن نقاتل، فتركت ما أمرت به، وأمرتنا، وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه». الطبري، المرجع ذاته، ٣/ ٤٩٢.

ج • رفع المصحف المبارك، إتماماً للحّجة واستكمالاً للعُذر إليهم، وذلك حينما وصلت محاولات التفاهم عبر الحوار السياسي والفكري مع محرّكي الفتنة وقادة الحرب في الجبهة المعادية، إلى طريق مغلقة وباب مسدود، والغرض من هذه المحاولة السلمية الأخيرة - كما يبدو لي- هو إثارة الرأي العام في جبهة الأعداء، للضغط على كبارهم، ليستجيبوا إلى نداء القرآن ويدخلوا في الحوار مع الإمام وجيشه، وذلك لحلّ الإشكاليات والمنازعات، حرصاً من الإمام على دماء المسلمين. وبالفعل قبيل نشوب الحرب وبالتحديد بعد عودة ابن عباس من حواره مع طلحة والزبير، وانتهاء أمره إلى عائشة- وهو يحمل القرآن الكريم بيده يطالب بتحكيمه بين الطرفين -فقالت له عائشة في نهاية المطاف: «. . والله لا سمعت منك شيئاً ارجع إلى صاحبك وقل له: ما بيننا وبينك إلّا السيف، وصاح مَن حولها ارجع يا ابن عباس لئلا يسفك دمك»[1].

هنا حينما أُخبر الإمام بنتائج الحوار معهم، بادر إلى محاولته الأخيرة في رفع المصحف الكريم - الله ما أوسع صدرك وأعظم صبرك، يا أمير المؤمنين، وأنت تحمل القرآن الكريم بيديْك - وتقول لأصحابك: «من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إليه وهو مقتول وأنا ضامن له على الله الجنّة»، ولثلاث مرات لم يقم إلّا غلام اسمه مسلم بن عبد

(١) الشيخ المفيد، محمد العكبري: الجمل أو النصرة في حرب البصرة، ص ١٨٠-١٨١.

القيس وأمّه كانت حاضرة، وبالفعل خرج إليهم «حتى وقف بازاء الصفوف ونشر المصحف وقال: هذا كتاب الله وأمير المؤمنين يدعوكم إلى ما فيه. فقالت عائشة: اشجروه بالرماح فقبحه الله، فتبادروا إليه بالرماح فطعنوه من كل جانب»[١]. حتى قتل.

من كل ما تقدّم نكتشف أنّ أقطاب المعارضة لخلافة الإمام علي عليه السلام تصرفوا وكأنهم يخططون -وبإصرار منهم- للوصول إلى الحرب والقتال، لذلك «ساروا في خيار الحرب، بعد اتخاذ قرارهم بمغادرة مكة، فضلاً عن الطريقة التي سيطروا فيها على البصرة، وما ألحقوه بواليها من تعذيب وإهانة، مما كان يدفع نحو اتجاهٍ لا يؤدي مطلقاً إلى الحوار»[٢].

---

(١) المرجع ذاته، ص ١٨١. هكذا يربي الإمام أصحابه تربية جهادية واعية في الوقوف والتصدي بشجاعة وثقة أمام الأعداء في الحرب، لأن حربه حرب رسول الله كما أن سلمه سلم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد قال صلى الله عليه وآله لأهل بيته: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم» عن أبي هريرة قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٦٩: رواه أحمد والطبراني وفيه تليد بن سليمان وفي خلاف وبقية رجاله رجال الصحيح ورواه الطبراني في المعجم الصغير عن زيد بن أرقم ٢/ ٣/ ٧٦٧. وقال في المستدرك هذا حديث حسن. وله شاهد عن زيد بن أرقم بلفظ (أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم). المستدرك ٣/ ١٤٩ كتاب معرفة الصحابة. وعليه فالشهيد في جبهة الإمام بنية صادقة مضمون الجنة كالشهيد بين يدي رسول الله. ولا غرابة من أن يضمن أمير المؤمنين الجنة للمؤمن المجاهد الشهيد في جبهة الحق ضد الباطل يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ آل عمران ٣/ ١٦٩.

(٢) بيضون، د. إبراهيم: الإمام علي في رؤية النهج ورواية التاريخ، ص ٦٨.

المطلب الثاني

في الطريق إلى المعركة، واختيار البصرة

تركزت السياسة الجهادية للإمام علي عليه السلام في معركة الجمل -وهي أولى المعارك في عهد خلافته- على تجذير الأسس التربوية الجهادية في واقع المسلمين، وتهيأتهم لخوض الحروب المصيرية للدفاع عن المبادئ الإسلامية الأصيلة. عوضاً عن اللجوء إلى حالة الاسترخاء الباطل، والهروب من تحمل المسؤولية الشرعية أمام الواقع المرير.

إن هذه المسألة الجوهرية تتطلب إجراء عمليات سبر الأغوار في نفوس المسلمين، لغرض استئصال جذور الخوف وعوامل التخاذل وبالتالي تطهير الذوات لتقف نقيّةً مخلصةً وهي تستجيب لنداء الجهاد في سبيل الله، بكلّ صدق ووعي وبصيرة، وبالمقابل تتطلب -أيضاً- كشف زيف النفعيين الذين يتعاملون مع الإسلام من منطلقات الكسب المصلحي، بل ويستغلون مواقعهم الإدارية والسياسية لمصالحهم الخاصة على حساب الإسلام وقيم الرسالة.

نتناول هذا المطلب ضمن المحاور التالية:

١ • أعداء الإمام يختارون الحرب.

٢• إلى البصرة، الموقع الاستراتيجي المختار.

٣• مواقف الإمام عليه السلام المبدئية.

● **أعداء الإمام عليه السلام يختارون الحرب:**

ففي الوقت الذي وضع الإمام أصابعه على مثيري الفتن ورجال المنافع في الواقع السياسي للأمة، - وهو في بداية عهده الجديد- لم يقرّهم في مواقعهم الإدارية والتوجيهيّة كمعاوية، كما لم يستجب لضغوط تسليم بعضهم مناصب في الدولة كطلحة والزبير. وبالمقابل إن هؤلاء يعرفون عليّاً ومبدئيته وصلابته في تطبيق أحكام الإسلام. وعلى ما تقدّم أخذ كلّ فريق يعمل وفق منطلقاته الفكرية ورؤاه السياسية لتحقيق أهدافه المنشودة. فالإمام عليه السلام حينما لم يقرهم في مواقعهم بمعنى إنه جمّدهم سياسياً، وكذلك لم يمنح الآخرين مناصب داخل الدولة، بادر إلى معالجة خلفياتهم المصلحية، وذلك ليتم تحصين الأمة تربوياً من الانحراف المرتقب في حالة عدم المعالجة، وتزويدها بمناعات وقائية تحفظهم من عدوى هذه الأمراض الفتاكة. فدخل مع أقطاب المعارضة ومثيري الفتن بالحوار السلمي -سياسياً وفكرياً-، كما مرّ معنا في المطلب السابق، وكانت هذه العملية الإصلاحية فرصة ذهبيّة لأعداء الإمام ليعودوا إلى رشدهم. ولكن حينما استنفذ الحوار السياسي والفكري أغراضه -تماماً- وأعلن أعداء الإمام عجزهم عن مسايرة الحوار لأجل التفاهم والإصلاح، فأغلقوا باب الحوار ونزلوا إلى الساحة العملية، مختارين المواجهة العسكرية المبكرة من طرفهم ضد حكومة الإمام علي عليه السلام، قبل أن تتجذّر في الأمة أسسها ودعائمها. وأمام خيار الحرب والقتال، كان لا

بد للإمام من النزول لحربهم بالطريقة العلاجية التي اختاروها لأنفسهم. فقد قال الإمام عليه السلام، لما أشير عليه بألّا يتبع طلحة والزبير، ولا يرصد لهما القتال: «والله لا أكون كالضّبُع، تنام على طول اللّدْم، حتى يصل إليها طالبُها، ويختلها راصدُها، ولكنّي أضرب بالمُقْبل إلى الحقّ المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً، حتى يأتي عليّ يومي..»[1]. بمعنى إنه لا يمكّن عدوّه من خداعه، فالقعود عن مواجهته يعني استسلام العاجز.

(١) باب الخطب، رقم٦، هنالك روايتان في الشخص المشير على الإمام، الرواية الأولى تذهب إلى أنه ابنه الحسن عليه السلام، ذكرها المعتزلي في شرحه وهي رواية طارق بن شهاب الأحمسي. راجع المعتزلي، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج١، ج١، ص١٧٢-١٧٣. والرواية الثانية يذكر الشيخ المفيد في كتابه (الجمل) على أنه أسامة بن زيد، وذلك حينما دخل على أمير المؤمنين وكان قد اجتمع بابن عباس، ومحمد بن أبي بكر، وعمار بن ياسر، وسهل بن حنيف يستشيرهم في الأمر. راجع للتفاصيل، الشيخ المفيد، أبو عبد الله محمد العكبري، الجمل أو النُصرة في حرب البصرة، ص١٢٨-١٢٩.

وإن البحاثة المحقق صاحب كتاب (بَهج الصباغة) يذكر الروايتين، ويناقش الأولى فيردها لمخالفتها للعقل والأدب، بينما يثبت الرواية الثانية التي تذهب إلى أن المشير على الإمام هو أسامة. راجع التستري، العلامة المحقق الشيخ محمد تقي، بَهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، مج ١٠، ص ٢٣-٢٨. واللدْم: صوت الحجر أو العصا أو غيرهما، تضرب به الأرض ضرباً غير شديد. يختلها: يخدعها: يقال: إن صائد الضّبع يأتي فيضرب بعقبه الأرض عند باب جحرها ضرباً غير شديد، وذلك هو اللدم ثم يقول: خامري أمّ عامر، بصوت ضعيف يكررها مراراً، فتنام الضبع فيصيدها. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٥٦.

● إلى البصرة، الموقع الاستراتيجي المختار:

لما يئس طلحة والزبير من استحصال مآربهم من الإمام، فكّرا بالخروج من مناطق نفوذ الإمام أي العاصمة بالتحديد وذلك ليتسنى لهما نقض البيعة، وجمع الأنصار، والتخطيط لتوحيد قوى المعارضة ولو على الجوامع المشتركة الدنيا، وتطوير العمل المعارض، إلى مستوى المواجهة المسلحة والحرب. وقد لقيت توجيهاتهم المعادية لأمير المؤمنين هوىً لدى المتضرّرين من مبدئية الإمام وحكومته العادلة وادارياته الحاسمة، بالإضافة إلى بروز حالة العصبية القبلية داخل قريش، وصداها المدوّي داخل البيوتات التي لا زالت تئن غاضبةً على قتلاها في معركة بدر وأخواتها في عهد رسول الله ﷺ، وكان لسيف علي السبق المشهود في تلك المعارك وإليه يعود قتل صناديهم. يقول الدكتور إبراهيم بيضون: «ولعل هذه المسألة بالذات تستحق وقفة خاصة، إذ إنّ العصبية القبلية التي تمكّن من ترويضها الرسول، ودامت كذلك على كثير من الاسترخاء في عهدي أبي بكر وعمر، عادت إلى الانتعاش في عهد عثمان. فقد أدت عصبية العشيرة التي ارتكزت عليها سياسة هذا الخليفة، إلى استفزاز عصبيات القبائل في (الأمصار)، حين واجهت هذه طريقته بمثلها، في الاحتجاج أولاً، ثم في التطرف الذي هيأ الأجواء لقتله، وإذا كان بمقدور علي ضبط هذه العصبية مرة أُخرى قبل حرب البصرة، . . . أن خصومه لم يترددوا عن استخدامها ورقةً أساسية لتعزيز موقعهم وجذب الأنصار إليهم»[1]. وبالفعل لقد توسعت دوائر

(١) بيضون، د. إبراهيم: الإمام علي في رؤية النهج ورواية التاريخ، ص٦٩.

المتمردين إثر انتشار الدعوة القريشية أي القبلية، ووجدت في البصرة موطأ قدمٍ للتمركز والانطلاق.

لماذا اختيار البصرة؟:

في النظرة العامة إلى حركات المعارضة السياسية بغضّ النظر عن شرعيتها وأحقيتها - إنها تسعى لتطوير أساليبها في العمل الإعلامي والصراع السياسي، فإن فشلت في تحقيق مطاليبها تستكمل مشوارها باللجوء إلى العمل المسلّح أي استخدام العنف والقتل والنار والدمار، الذي هو في الواقع منزلق خطير يستدرج طاقاتها للدخول في مطب الأعمال الإرهابية، ويكون هذا الأمر واضحاً، إذا كانت تلك الحركات قائمة على أسس مصلحيّة ومنطلقات دنيوية وسلطوية، ففي هذه الحالة تفتقد الضوابط الإيمانية والحدود الشرعية في إراقة الدماء، وسرقة الأموال والدجل السياسي. وهذا ما حدث بالضبط في مؤامرة الناكثين في معركة الجمل ضد دولة الخلافة الشرعية.

ومما لا يخفى أنّ أهم مقوّمات حركة التمرد، وإدامة عملياتها القتالية هي: المال والشعار السياسي، والأرض الخصبة التي تتخذها مركزاً للانطلاق والنمو والانتشار. أما المسألة المالية فقد كانت متبناة من قبل أقطاب المعارضة كطلحة والزبير وعائشة، والإمدادات المالية التي وردتهم من ولاة وعمّال الخليفة عثمان. أما الشعار السياسي الذي اتفق عليه، فهو المطالبة بدم عثمان، هذا الشعار الذي أكّده معاوية من الشام -كما في رسالته للزبير-[1] وقد أخرجوا أم المؤمنين عائشة لتقود

(١) جاء في الرسالة قوله: «..لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان: =

الحرب وهي تركب الجمل، ومن هنا سميت بمعركة الجمل. ومما لا يخفى كان لإخراجها الأثر الواضح في نفوس عامة الناس، ولو للوهلة الأولى حبّاً لرسول الله ﷺ.

ويذكر التاريخ أنّ عبد الله بن أبي ربيعة عامل عثمان على صنعاء، نادى بين الناس في مكة: «من خرج لطلب دم عثمان فعليّ جهازه»، فجهّز كثيراً منهم ويذكر أنه قد صحب مالاً كثيراً فأنفقه لتجهيز الناس وإرسالهم إلى حرب البصرة. وهكذا قال للناس يعلى بن أُمية التميمي عامل عثمان على الجند[1]. يذكر الطبري، أنه قد: «أعان يعلى بن أمية الزبير بأربعمائة ألف، وحمل سبعين رجلاً من قريش، وحمل عائشة -رضي الله عنها- على جمل يقال له: عسكر، أخذه بثمانين ديناراً، وخرجوا.. [ويضيف لقد] قدم يعلى بن أُميّة معه بمال كثير، وزيادة على أربعمائة بعير، فاجتمعوا في بيت عائشة -رضي الله عنها- فأرادوا الرأي، فقالوا: نسير إلى عليّ نقاتله.. فقال بعضهم ليس لكم طاقة بأهل المدينة، ولكنا

= سلام عليك، أما بعد، فإني قد بايعت لك أهل الشام.. فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنه لا شيء بعد هذيْن المصريْن، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك فأظهرا الطلب بدم عثمان..». راجع: ابن أبي الحديد المعتزلي، عز الدين: شرح نهج البلاغة، مج١، ج١، ص١٧٥.

(١) بيضون، د. إبراهيم: الإمام علي في رؤية النهج ورواية التاريخ، ص١٢٣-١٢٤. ويذكر الشبلنجي، أن اسمه يعلى بن منيّة كان من عمّال الخليفة عثمان على اليمن، وقد جهزّهم بستمائة ألف درهم وستمائة بعير. فنادى منادي عائشة رضي الله عنها (ان أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة، فمن أراد إعزاز الدين والطلب بثأر عثمان وليس له مركب وجهاز فليأت، فحملوا على ستمائة بعير وساروا في ألف من أهل مكة ولحقهم أناس آخرون، فكانوا ثلاثة آلاف رجل، وأعطى منية جملاً لعائشة اسمه عسكر اشتراه بمائة درهم). الشبلنجي، مؤمن بن حسن: نور الإبصار، ص١٠٠.

نسير حتى ندخل البصرة والكوفة، ولطلحة بالكوفة شيعة وهوى، وللزبير بالبصرة هوى ومعونة، فاجتمع رأيهم على أن يسيروا إلى البصرة وإلى الكوفة، فأعطاهم عبد الله بن عامر مالاً كثيراً وإبلاً فخرجوا. .»[١].

وهكذا أصبحت البصرة محطّ أنظارهم، باعتبارها الأرض الخصبة لحركة التمرد، والبعيدة عن مناطق نفوذ الإمام عليه السلام، فبالرغم من أن مكة أصبحت بؤرة حركة المعارضة والتمرد، لاحتوائها أهم أقطاب المعارضة السياسية إلّا أنها «كادت تشكل مأزقاً لقادتها الذين سيطر عليهم الارتباك بشأن الخطوة التالية، من دون أن يكون هذا الموقع ملائماً لحركة تحتاج إلى عناصر للصمود لا توفرها الحاضرة القرشية. ذلك ان الفتوحات التي انضوت تحت رايتها قبائل شبه الجزيرة، أفرغت مكة وبقية الحواضر الحجازية من المادة البشرية التي استقرت بثقلها في الأمصار. فكان على قادة الحركة، البحث عن مكان أكثر ملائمة في هذا المجال، وأكثر بعداً عن نفوذ الخليفة الذي يجد صعوبة في القضاء على تمردهم في هذا المكان»[٢].

ويذكر الشيخ المفيد أنه «لما تحقق عزم القوم على المسير إلى البصرة، وظهر تأهبهم لذلك، اجتمع طلحة والزبير وعائشة وخواصهم من قومهم وبطانتهم وقالوا: يجب أن نسرع النهضة إلى البصرة فإنّ بها شيعة عثمان وأنصاره، وعامله عبد الله بن عامر وهو قريبه ونسيبه وقد

---

(١) الطبري، ابن جرير: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٧١.

(٢) بيضون، د. إبراهيم: الإمام علي في رؤية النهج ورواية التاريخ، ص ٥٩-٦٠.

عمل على استعداد الجنود من فارس وبلاد المشرق لمعونته على الطلب بدم عثمان، وقد كاتبَنا معاوية بن أبي سفيان أن ينفذ لنا الجنود من الشام فإنْ أبطأنا عن الخروج خفنا أن يدهمنا علي عليه السلام بمكة، أو في بعض الطريق فيمن يرى رأيه في عداوة عثمان، خوفاً من أن يفرّق كلمتنا، وإذا أسرعنا المسير إلى البصرة وأخرجنا عامله منها، وقتلنا شيعته بها واستعنّا بأمواله منها كنا على الثقة بالظفر بابن أبي طالب، وان أقام بالمدينة سيّرنا إليه جنوداً حتى نحصره فيخلع نفسه أو نقتله كما قتل عثمان، وان سار فهو كالئ ونحن جامون، وهو على ظاهر البصرة ونحن بها متحصنون، فلا يطول الأمان إلّا بفل جموعه واهلاك نفسه أو إراحة المسلمين من فتنته»![1].

ويتساءل الدكتور نوري جعفر: «هل المطالبة بدم عثمان - إن صحّت - تستلزم الثورة على النظام القائم، أم تتم على أساس تقديم شكوى من قبل أولياء عثمان [الشرعيين] إلى الحكومة لتُجري التحقيق في ذلك وتتخذ الإجراءات القانونية بحقّ الذين تثبت إدانتهم؟

وما حق عائشة وطلحة والزبير - من الناحية الشرعية - بالمطالبة بدم عثمان؟ إن ولي عثمان هو ابنه عمرو؟ وما شأن البصرة والثورة على عثمان؟ لماذا لم يتجهوا إلى مصر المؤلِّبة؟..»[2].

في الحقيقة هنالك مجموعة استفهامات شرعية وعقلية وعرفية،

---

(١) الشيخ مفيد، أبو عبد الله محمد العكبري: الجمل.. ص ١٢٥-١٢٦. فهو كالئ ونحن جامون: أي فهو ساهر محبوس متأخر، ونحن كثيرون مجتمعون مستريحون. ابن منظور: لسان العرب مج ٥، مادة كلأ، ص٤٢٤. ومج١، مادة: جمم، ص٤٦٢-٤٦٣.

(٢) جعفر، د.نوري: علي ومناوئوه، ص١٤١.

تجيب عنها كلمات أقطاب التمرد، وتتلخص بالمصالح الدنيوية وبالسلطوية تحديداً.

● **مواقف الإمام عليه السلام المبدئية:**

لما تبين من خلال تطور الأحداث أنّ أقطاب التمرد صمّموا على إشعال نيران الفتنة والحرب بين المسلمين، تصدّى الإمام لهم قبل استفحال أمرهم في إشاعة الفتن والفوضى في بلاد المسلمين، وتجلّت مواقف الإمام المتتالية - رغم قساوة الظروف - بروحها الأصيلة المعبّرة عن عمق المبادئ الإسلامية، في كل تفاصيلها، فهو الإمام والخليفة الشرعي المسؤول عن شؤون المسلمين وبلادهم.

فمنذ البداية وقف أمام ظهور العصبيات القبلية خصوصاً في قريش التي استعادت شيئاً من مجدها الجاهلي، ليعيدها مع الأمة إلى قيم الإسلام ومبادئ الإيمان فلقد قال عند خروجه لقتال أهل البصرة: «. . ما لي ولقريش! والله لقد قاتلْتُهُمْ كافرين، ولأقاتلنّهم مفتونين، وإني لصاحبُهم بالأمس، كما أنا صاحبُهم اليوم! والله ما تنقمُ منّا قريشٌ إلّا أنّ الله اختارنا عليهم، فأدخلناهم في حيّزنا. .»[1].

وقال عليه السلام في إحدى خطبه الخاصة بأصحاب الجمل: «. . إن معي لبصيرتي ما لبسْتُ ولا لُبسَ عليّ. وإنّها للفئة الباغية فيها الْحَمأ والحُمّةُ، والشبهة المغدفة. . . . اللهم إنهما [أي طلحة والزبير] قطعاني وظلماني، ونكثا بيعتي، وألّبا الناس عليّ، فاحْلُلْ ما عَقَدا،

(١) باب الخطب، رقم ٣٣. مقطع (توبيخ الخارجين عليه).

ولا تُحْكم لهما ما أبرما، وأرهما المساءةَ فيما أمّلا وعملا..»[١]. فالإمام عليه السلام على بصيرة ووضوح من أمره لا يدلّسُ على أحد، ولا يدلّس عليه أحد حتى يشتبه عليه الحق. وان أصحاب الجمل هم الفئة الباغية على الحقّ والظالمة لإمام الهدى، يقول الشيخ محمد عبده: «المراد بالحمأ هنا مطلق القريب والنسيب، وهو كناية عن الزبير فإنه من قرابة النبي صلى الله عليه وآله ابن عمّته، وكان النبي أخبر علياً أنه ستبغى عليه فئة فيها بعض أحمائه، وإحدى زوجاته. والحُمَة بضمّ ففتح كناية عنها، وأصلها الحيّة أو أبرة اللاسعة من الهوام»[٢]. وهي «استعارة للغلّ والفساد الذي كان في صدور هذه الفئة. ووجه الاستعارة استلزامه لتكدير الإسلام وإثارة الفتنة بين المسلمين كما تكدّر الحمأ الماء وتخبثه. واستلزامه للأذى والقتل كما يستلزم ذلك سم العقرب»[٣]. ومعنى «الشبهة المغدفة» «أي الشبهة التي تظلم وجه الحق، وتستر على الناس الدوافع الحقيقية لطلب هؤلاء بدم عثمان»[٤]. ثم دعا الإمام عليه السلام على طلحة والزبير بعدم التوفيق في خطتهما وأعمالهما، وبالفعل قتلا شرّ قتلة. فطلحة رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله ثأراً لدم عثمان، والزبير قتله ابن جرموز غيلة وهو قد اعتزل الحرب بوادي السباع[٥]. ومما يذكر «إن طلحة لما علَم بانصراف الزبير هَمّ أن ينصرف، فعلم مروان بن الحكم ما يريده، فرماه بسهمٍ، فوقع في

(١) باب الخطب، رقم ١٣٧.
(٢) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٢٠.
(٣) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١٦٦.
(٤) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص٣٢٦.
(٥) الشيخ المفيد، محمد العكبري: الجمل.. ص٢٠٧-٢٠٩.

ركبته، فنزف حتى مات»[١]. وقد قال مروان: «لا أنتظر بعد اليوم بثأري في عثمان»[٢].

ويذكر الشارح المعتزلي خطبته عليه السلام في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وقد جاء فيها: «. . . وبايعني هذان الرجلان في أول من بايع، تعلمون ذلك، وقد نكثا وغدرا، ونهضا إلى البصرة بعائشة ليفرقا جماعتكم، ويُلقيا بأسَكم بينكم، اللّهم فخذهما بما عملا أخذةً رابية. .»[٣].

وحينما قرروا الحرب، لم يمهلهم الإمام عليه السلام كثيراً، بل استجاب لطلبهم، بعد فشل المحاولات السلمية لحل الخلاف، حيث قال في إحدى خطب واقعة الجمل: «ألا وإن الشيطان قد ذَمَرَ حزبه، واستجلب جَلبَه، ليعودَ الجورُ إلى أوطانه، ويرجعَ الباطل إلى نصابه. . يا خيبةَ الداعي! من دَعَا! وإلامَ أجيب! وإني لراضٍ بحجة الله عليهم، وعلمه فيهم، فإنْ أبوْا أعطيتُهُمْ حدّ السيف، وكفى به شافياً من الباطل، وناصراً للحقّ. ومن العَجَب بَعْثَتُهمْ إليّ أن أبرُزَ للطّعان، وأنْ اصبر للجلاد. هبلتهُمُ الهبول! لقد كنتُ وما أهدّدُ بالحرب، ولا أرهّبُ بالضّرب. وإنّي لعلى يقينٍ من ربّي، وغير شُبهةٍ من ديني»[٤].

---

(١) الدينوري، أحمد بن داود: الأخبار الطوال، ص١٤٨.

(٢) الاندلسي، ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ٣٢١.

(٣) ابن ابي الحديد المعتزلي، عزّالدين: شرح نهج البلاغة، مج١، ج١، ص٢٢٥. ويذكر أيضاً خطبة له عند مسيره إلى البصرة، وخطبة أخرى بذي قار، بالمعاني ذاتها. راجع المرجع ذاته، ص٢٢٦-٢٢٨.

(٤) باب الخطب، رقم ٢٢. ذَمَرَ حزبه: أي حثهم وحضّهم. استجلب جَلَبَه: أي جلب جماعته وجمعهم. نصابه: بمعنى أصله ومنبته. الصالح، د.صبحي: نهج البلاغة، =

بهذه الروح المبدئية دخل الإمام ميدان الصراع ضدّ أعدائه بثقة عالية بالنفس ويقين مطلق بالإسلام، من دون خوف أو تراجع عن نصرة الله، وقد قال الإمام عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة: «إن الله بعث رسولاً هادياً بكتاب ناطق وأمر قائم، لا يهلكُ عنه إلّا هالك. وإنّ المبتدعات المشبّهات هُنّ المهلكات إلّا ما حفظ اللهُ منها. وإنّ في سلطان الله عصمةً لأمركم، فاعْطوهُ طاعتكم غير مُلَوّمة ولا مُسْتكْرَهٍ بها. والله لتفعَلُنّ أو لينقُلَنّ اللهُ عنكم سلطانَ الإسلام.

... إنّ هؤلاء قد تمالؤوا على سخْطة إمارتي، وسأصبرُ ما لم أخَفْ على جماعتكم: فإنهم إن تممّوُا على فيالة هذا الرأي انقطع نظامُ المسلمين.. ولكم علينا العمل بكتاب الله تعالى وسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله..»[1].

أوضح الإمام عليه السلام بأن «المبتدعات المشّبهات هنّ المهلكات إلا ما حفظ الله، لمخالفتها الكتاب والسّنة الجامعيْن لحدود الله.. وقوله: «إن هؤلاء قد تخاذلوا»، إشارة إلى طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم، وأومى إلى أنّ مسيرهم لسخطهم من إمارته لا ما أظهروه من الطلب بدم عثمان. ثم وعد بالصبر عليهم ما دام لا يخاف على

= فهرس الألفاظ الغريبة المشروحة، ص٥٧١، رقم ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥. هبلتهم: أي ثكلتهم، والهَبول - بالفتح - من النساء: هي التي لا يبقى لها ولد، وهو دعاء عليهم بالموت العاجل، لأنه خير لهم من حياة جاهلية. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٧٩.

(١) باب الخطب، رقم ١٦٩. فيالة الرأي - بالفتح -: ضعفه. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، تحقيق السيد أحمد الحسيني، ج٥، كتاب اللام، باب ما أوله الفاء، مادة: فيَل، ص٤٤٥.

حوزة الجماعة، وأخبر أنهم إن بقوا على ضعف رأيهم في مسيرهم ومخالفتهم قطعوا نظام المسلمين وفرّقوا جماعتهم.. ثم أخبر بما عليه من الحق إن أطاعوه الطاعة غير المدخولة، وهي أن يعمل فيهم بكتاب الله ويسير سيرة رسول الله ﷺ..»[١].

هذا، وإن الإمام عليه السلام إلى آخر لحظة قبل وقوع المعركة، كان مستمراً في مدّ جسور الحوار لغرض عودة الأعداء الناكثين ورجوعهم إلى دائرة الحق، وبذلك اتضحت عدة مواقف مبدئية للإمام، هي في الحقيقة دروس في التربية والصبر والجهاد ومقاومة الانحراف.

(١) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٣٢٤-٣٢٦.

المطلب الثالث

التعاليم الجهادية والفنون الحربية لكسب المعركة

تمحورت السياسة الجهادية لدى الإمام عليه السلام حول تربية الإنسان والأمة على العمل الجهادي لأغراض الإصلاح الداخلي في حياة المسلمين، والإعداد النفسي والتقني لخوض الحروب المصيرية ضد الطبقة السياسية النفعية، التي برزت بمظاهر إسلامية، وذلك باستخدام القوة العسكرية، حينما تنحصر المعالجة بها. ففي واقعة الجمل، حصر الأعداء خيارهم بالحرب ضد دولة الخلافة، بل ومارسوا أوليات استفزازية منذ رحيلهم إلى مكة، ودخولهم البصرة فقد أخرجوا أم المؤمنين عائشة لساحات المواجهة والحرب وتركوا نساءهم في البيوت، وأقدموا على ممارسات عدوانية عنيفة في البصرة مع الوالي والشرطة، لذلك قال الإمام عليه السلام: «فخرجوا يجرّون حرمة رسول الله -صلى الله عليه وآله- كما تُجرّ الأمَة عند شرائها، متوجهين إلى البصرة، فحَبَسا نساءهما في بيوتهما، وأبرزا حبيس رسول الله -صلى الله عليه وآله- لهما ولغيرهما، في جيشٍ ما منهم رجل إلّا وقد أعطاني الطاعة، وسمح لي بالبيعة، طائعاً غير مُكرَه، فقدموا على عاملي بها وخُزّان بيت مال المسلمين، وغيرهم من أهلها، فقتلوا

طائفةً صبراً، وطائفة غدراً. .»[١]. لقد كانت تلك الأعمال الإجرامية، إيذاناً منهم بإعلان الحرب، وبالفعل باتت المواجهة العسكرية قاب قوسين أو أدنى، ومع ذلك لم يوافق الإمام على الابتداء بقتالهم، تعليماً منه وأدباً لاستكمال الحجّة، وعسى أن يعودوا عن مكرهم وغيهم وبالتالي تحقن الدماء بشكل عام، ومن ثمّ تفتح صفحة جديدة في محاولات الهداية والإصلاح.

إن التطورات العملية لوقائع معركة الجمل منذ انطلاقتها، وإلى ما جرى في ميدان القتال، وبعد المعركة - أيضاً -، وما رافق تلك الوقائع من قضايا إدارية وفكرية، ومسائل شرعية وإنسانية، هي ضمن حلقات التربية الجهادية لدى الإمام عليه السلام، بشكل متتابع، وهي مصدر ملهم للمتلقين في كل زمان ومكان، تربّي الإنسان والأمة على كيفية مواجهة الباطل وعدم المساومة والمداهنة مع رموزه، مهما بلغت الضغوط الواقعية على قرار المبدئية الإسلامية. قال الإمام عليه السلام لما أظفره الله بأصحاب الجمل: «. . ولقد شَهَدنا! في عسكرنا هذا أقوامٌ في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعَفُ بهم الزمان، ويقوى بهمُ الإيمان»[٢]. يقول الشارح البحراني ها هنا: «بالإشارة إلى من سيوجد من أنصار الحق الذابّين عنه، وعباد الله الصالحين الشاهدين معه عليه السلام أيضاً، والشهادة شهادة بالقوّة، أي أنهم موجودون في أكمام الموادّ

(١) باب الخطب، رقم ١٧٢.

(٢) باب الخطب، رقم ١٢. سيرعَفُ بهم الزمان: أي سيخرجهم ويظهرهم في المستقبل، ويجود بهم على غير انتظار، كما يجود الأنف بالرعاف، أي الدم الذي يخرجه. الصالح، د.صبحي: نهج البلاغة، فهرس الالفاظ الغريبة المشروحة، ص٥٦٩، رقم ١٩٦.

بالقوّة، ومن كان في قوّة أن يحضر من أنصار الله فهو بمنزلة الحاضر الموجود بالفعل في نصرته إذا وجد.

وقوله: «سيرعف بهم الزمان»، استعار لفظ الرعاف وهو الدم الخارج من أنف الإنسان لوجودهم»[١]. «أي: سيجود بهم الزمان كما يجود الأنف بالرعاف، يأتي بهم على غير انتظار»[٢].

فالإمام علي عليه السلام واجه رموز التمرد والفتنة بكلّ رحابة صدر، على مستوى الحوار والتوجيه وبث القيم الخلقية، ولما ركبوا جهلهم واختاروا الحرب بكل ما أُوتوا من حيلة ومكر، حينها اصطدموا بصلابة الإيمان، وعندها ذاقوا مرارة الهزيمة والخسران.

ويمكننا معرفة رسالة الإمام في تربيته الجهادية في معركة الجمل، من خلال التعرف على أهم تعاليمه وفنونه الحربية التي أدت إلى كسب المعركة على الأرض خلال أربع ساعات من الاقتتال الضاري في وضح النهار[٣]. وذلك ضمن الحقائق التالية:

- **الحرب النفسية:**

وهي تعتبر الأهم للمقاتلين في مرحلتي الإعداد للمعركة حتى قبيل القتال الفعلي، وأثناء المعركة حتى بعد انتهائها، لتتكامل صورة العبرة والموعظة والمثل لبقية المتلقين آنذاك، ولسائر المجاهدين الإسلاميين على مرّ العصور. لأنها تعدّ الأنموذج الأول، بهذا

(١) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج١، ص٢٨٨.
(٢) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص٤٤.
(٣) ابن أبي يعقوب: أحمد، تاريخ اليعقوبي، مج٢، ص١٨٣.

الوضوح في حياة المسلمين، ففي ظروف بالغة التعقيد، شديدة الالتباسات، لم يكن أحد قادراً على اقتحامها بجدارة وهمّة، ويؤديها خطوةً خطوة، وضمن الأطر الشرعية بدقّتها، والتأثيرات النفسية المطلوبة غير الإمام علي عليه السلام، الجامع لشرائط القيام بهذه المهمة الحسّاسة.

فبالرغم من أن جيش الناكثين من أصحاب الجمل بلغ ثلاثين ألفا في البصرة، إلّا ان الحرب النفسية التي شنّها الإمام عليهم فتّتْ في عضد المقاتلين وثبطت عزائمهم القتالية، وأخذوا يراجعون حساباتهم، ويتعرفوا على مصيرهم الذي اختاروه بإرادتهم أو بعواطفهم وأطماعهم، وبالتالي ضعفت جبهتهم، بدءً من قادتهم، فالزبير تنحّى عن القتال ولوحق في وادي السباع وقتل غيلةً، ومروان ابن الحكم من رموز الجمل يقتل طلحة - أحد القادة الثلاثة- بسهمه في المعركة ليرديه قتيلاً، ثأراً لدم عثمان، وعائشة بعد الهزيمة النكراء ندمت واعتبرت المعركة فتنة ساهمت فيها[١]. ومما يذكر ان أم المؤمنين عائشة «حين انتصر الإمام عليها، أصبح محقاً [لديها] بعد أن كان مبطلاً، وعرضت عليه تأييدها، بعد أن قادت الجيوش لحربه»[٢].

ومن هنا، كانت ثمار تعبئة الإمام للمجاهدين بالوعي الإيماني المطلوب، وبالوضوح في منطلقات المسيرة الجهادية وأهدافها، ظاهرة في جيش الإمام، وعلى العكس تماماً في جيش الناكثين مما

---

(١) الشيخ المفيد، محمد العكبري: الجمل.. ص ٢٠٠-٢٠٩. وضمناً يذكر رواية جديرة بالمطالعة على لسان عائشة.

(٢) مغنية، محمد جواد: فضائل الإمام علي، ص١٣١.

أوجد تخلخلاً واضحاً لديهم أدّى إلى هزيمتهم النفسيّة ومن ثمّ العسكرية.

لقد كان الإمام عليه السلام دائم التحذير لعموم المسلمين، ولأصحابه -بالتحديد بصورة أدق- من الوقوع في الفتن، والانخراط نحو حب المال والسلطة والدنيا، واستخدام العصبيات الجاهلية لتحقيق الهدف. وكان يكشف عن أبصارهم المحدودة لينظروا ببصيرة ووعي إلى عواقب أصحاب الهوى ورجال الدنيا، لنستمع إلى نموذج من كلماته في إحدى خطبه، حيث يقول عليه السلام: «ثم إنكم معشرَ العرب أغراضُ بلايا قد اقتربت. فاتقوا سكرات النعمة، واحذروا بوائق النقمة، وتثبّتوا في قَتَام العشْوَة، واعوجاج الفتنة عند طلوع جنينها، وظهور كمينها، وانتصاب قُطبها، ومدار رَحاها.

تبدأ في مدارجَ خفيّة، وتؤولُ إلى فظاظة جلية. شِبابُها كشِباب الغلام، وآثارُها كآثار السِّلام، يتوارثُها الظّلَمةُ بالعهود! أولّهم قائدٌ لآخرهم، وآخرُهم مقتدٍ بأوّلهم، يتنافسون في دنيا دنيّة، ويتكالبون على جيفةٍ مُريحة. وعن قليلٍ يتبرأ التّابع من المتبوع، والقائد من المقوُد، فيتزايلون بالبغضاء، ويتلاعنون عند اللقاء.. [حتى يقول].. بين قتيلٍ مطلولٍ، وخائفٍ مستجيرٍ، يختلون بعَقْد الأيْمان وبغرور الإيمان، فلا تكونوا أنصاب الفتن، وأعلام البدع، والْزَمُوا ما عُقدَ عليه حبلُ الجماعة، وبُنيتْ عليه أركان الطاعة، واقدَموا على الله مظلومين، ولا تقدَموا عليه ظالمين، واتقوا مدارجَ الشيطان، ومهابط العُدوان، ولا تُدْخلوا بطونكم لُعَقَ الحرام..»[1].

(١) باب الخطب، رقم ١٥١. البوائق: جمع بائقة وهي الداهية. الطريحي، فخر الدين: =

فالبلايا والمحن تقصد الناس، وهم في مرمى سهامها، معرّضون إليها، «وأشد المحن أن يفرح المرء بما لديه من جاهٍ أو مال، ويذهل عن مصيره وعاقبته، وقد حذّر الإمام من عقبى الغفلة بقوله: «واحذروا بوائق الفتنة»، إذا كنت معافى فأحذر المرض، وإذا كنت غنياً فلا تنس غوائل الدهر، وإذا كنت قوياً فترقب الضعف، وكل شيء إلى زوال. «وتثبتوا في قتام العشوة»: أحجموا عن الشبهات، ولا تقدموا على شيء إلّا بعد الروّية والنظر في العواقب، فأكثر الناس ندماً من بادر من غير تثبت. إذا ظهرت الفتنة، واستفحل أمرها فقفوا منها موقف الحكيم، وعالجوها بعد البحث والدرس والتخطيط السليم.. ولا تظهر الفتنة على حقيقتها في البداية. بل تتقنع بثوب الصلاح والاصلاح، ثم تتكشّف مع الأيام عن أفدح الأضرار وأخطرها «وشبابها كشباب الغلام» بكسر الشين، والمراد به الوثوب والطفرة أي قد ترى الفتنة هادئة، ولكن سرعان ما تنشط وتثبت كما يقفز ويطفر الغلام المعافى «وآثارها كآثار السّلام» -بكسر السين - وهي الحجارة، والمعنى إن الفتنة تترك أثراً سيئاً في المجتمع عاماً كما تفعل الأحجار التي تُرجم الأبدان»[1]. وفي تقديري أن الإمام بكلامه هذا كان يغذّي وعي الأمة بمضادات حيوية،

= مجمع البحرين، ترتيب محمود عادل، مج١، الربع الأول، حرف الباء، مادة (ب وق) ص٢٦٥. القَتام - كسَحَاب -: الغبار الأسود. أنيس، د.إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، باب القاف، ص٧١٥. اللّعق: من اللّعقة - بالفتح - أي: اللحسة واللطعة باللسان. الطريحي، المصدر ذاته، تحقيق أحمد الحسيني، كتاب القاف، باب أوله اللام، ج٥، ص٢٣٣.

(١) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٢، ص ٣٦٣-٣٦٤.

منعاً لنشوب نار الفتنة وانتشارها في أوساط المسلمين، بل ويدفعهم نحو خنق الفتنة في مهدها، وذلك تحسباً من خطورة النفوس المثيرة للفتنة، أو المستعدة لتقبّل نيرانها والاحتراق في أُتونها[١].

ثم شدّد على المؤمنين ألّا يخدعوا بيمين الطغاة فيندفعوا بسذاجة ليكونوا في مقدمة المحرقة، بل عليهم ان يكونوا مع نظام المسلمين العام وفي ظل الخلافة الشرعية الضامنة لطاعة الله ورسوله.

أما قوله عليه السلام: «واقدموا على الله مظلومين»، «.. المراد إنكم إذا كانت لكم مكْنة من الظلم فلا تظلموا، ولو استلزم ترك الظلم انظلامكم..»[٢]. وشدّد على لقمة الحلال من مكتسبات الدنيا لتأثيرها على السلوك والمواقف.

من مقومات الحرب النفسية:

يمتاز المجاهدون في سبيل الله بقوة إيمانهم، ورسوخ عقيدتهم، وثقتهم بدينهم وبربهم، وصلابة مواقفهم الجهادية ضد اغراءات الشيطان وجيش العدوان، ورجاحة عقولهم لا عواطفهم في تشخيص جبهة الحق، ووضوح علائقهم على أساس المبادئ والأخلاق. كل ذلك يوفر القناعة النفسية بجهادهم وحربهم سواء انتصروا في المعركة أو استشهدوا فيها، إنها الأسلحة المعنوية التي تمنح امتيازات النجاح والنصر لجبهة المؤمنين في حربهم ضد الباطل، من

---

(١) لقد تحدثنا في تمهيدنا لهذا الفصل عن رواية الطبري حول مثيري الفتنة، في فقرة: (تفاقم الأزمة السياسية ونشوب نار الفتنة)، رقم ٥. وللوقوف على تفاصيل الرواية راجع: الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ٣/ ٥١٥-٥١٩.

(٢) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٢٢٧.

دون النظر إلى عددهم وعدّتهم. إنها مقومات الحرب النفسية، التي تزرع الخوف والخيبة والهزيمة في صفوف الأعداء بينما تحوّل قلوب المجاهدين إلى جبال صخرية من الصبر والشجاعة في المقاومة والجهاد، من دون أن يستوحش أحدهم من قلة عددهم وضعف إمكانياتهم المادية. لذلك قال عليه السلام: «إني والله لو لقيتُهُمْ واحداً وهم طلاعُ الأرض كلها ما باليتُ ولا استوحشتُ، وإني من ضلالهمُ الذي هم فيه والهدى الذي أنا عليه لعلى بصيرةٍ من نفسي ويقينٍ من ربّي..»[١]. هكذا نلاحظ الإمام في سياسته الجهادية يزوّد أصحابه بهذه المقومات ويربّيهم على أسسها، موضحاً - في مواقف عديدة - انتقاداته لأصحاب الجمل، في ضعفهم الديني والعقلي والأخلاقي وحتى في الرؤية السياسية.

كل هذه العوامل أدّت إلى اهتزاز الأعداء معنوياً، وعدم القناعة النفسية بالحرب، وبالتالي إلى الهزيمة النفسية والعسكرية معاً. لنتوقف على نماذج من أقواله وهو يكشف عن ضعف أعدائه، قال الإمام في صفته وصفة خصومه، ويقال إنّها في أصحاب الجمل: «وقد أرعدوا وأبرقوا، ومع هذيْن الأمرين الفشل، ولسنا نُرْعدُ حتى نُوقع، ولا نُسيل حتى نُمطر»[٢]. أي نحن «إذا أوقعنا بعدوٍ أوعدْنا آخر بأن يصيبه ما أصاب سابقه، وإذا أمطرنا أسلنا، أما أولئك الذين يقولون نفعل ونفعل وما هم بفاعلين، فهم بمنزلة من يسيل قبل المطر وهو محال غير موجود، فهم كالإعدام فيما به يوعدون»[٣].

---

(١) باب الرسائل، رقم ٦٢. الطلاع - ككتاب -: طلاع الشيء: ملؤه. الجوهري، إسماعيل بن حمّاد: الصحاح، ج٣، مادة طلع، ص١٢٥٤.

(٢) باب الخطب، رقم ٩./(٣) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص٤٣.

وقال عليه السلام في ذم أهل البصرة بعد وقعة الجمل: «كنتم جندَ المرأة، وأتْباعَ البهيمة، رَغَا فأجبْتُمْ، وعُقر فهربتم. أخلاقُكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق، وماؤكم زُعاق، والمقيم بين أظهركم مُرْتهنٌ بذنبه، والشّاخصُ عنكم متدارَكٌ برحمة من ربه..»[١].

ويقصد بالمرأة عائشة، وبالبهيمة الجمل، فإنهم كانوا يتبعون الجمل حيث مال وذهب في ساحة المعركة، وقد كان الجمل في حرب البصرة هو راية معسكر الناكثين، وقد أخذ خطامه سبعون رجلاً من قريش قد قتلوا بأجمعهم، فطلب الإمام عقره، ولما ضربت قوائمه وسقط إلى الأرض انهزم أصحاب الجمل[٢].

● **الاستعراض العسكري المنظّم له دلالاته وانعكاساته:**

من المفروض أن تظهر قوة الحق على الساحة بشكلها العسكري المنظّم قبل دخول الحرب، في مقابل استعدادات الأعداء لخوضها، خصوصاً وقد نفّذوا خطوات أولية نحو التسلّط وإشعال فتيل الحرب. هذا الاستعراض العسكري من قبل جيش الإمام يستهدف إرهاب العدو من ناحية، ومن ناحية ثانية ليخلق حالة من الاطمئنان لدى الأمة على القوة الفعلية للمؤمنين، وهذه الحالة توفر المناخ المناسب لتنفيذ

---

(١) باب الخطب، رقم ١٣. رغاء الجمل: صوته المعروف. عقر: جُرح أو ضربت قوائمه أو قتل. أخلاقكم دِقاق: من اللؤم والدناءة. ماؤكم زعاق: أي مالح، وصحيح إن هذا الماء لم يكن من أفعالهم، وإنه مما تُذمّ به المدينة، ولكن يسبب البَلادة، وضعف التركيز في معرفة الحقيقة. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٦١-٦٢.

(٢) الشيخ المفيد، محمد العكبري: الجمل..، ص١٩٩-٢٠٣.

البرنامج السياسي والإداري لشؤون الأمة، الذي تحميه هذه القوة العسكرية بشجاعة وإصرار.

ينقل المسعودي في مروجه هذا الاستعراض لعسكر الإمام عن المنذر بن الجارود، قوله: «لما قدم علي - رضي الله عنه - البصرة دخل مما يلي الطفّ، فأتى الزاوية فخرجتُ أنظر إليه، فورد موكب في نحو ألف فارس يتقدمهم فارس على فرس أشهَب، عليه قلنسوة وثياب بيض، متقلد سيفاً ومعه راية، وإذا تيجان القوم الأغلب عليها البياضُ والصفرة مُدجّجين في الحديد والسلاح، فقلت: من هذا؟ فقيل: هذا أبو أيوب الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ، وهؤلاء الأنصار وغيرهم، ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض متقلد سيفاً متنكب قوساً، معه راية على فرس أشقر في نحو ألف فارس، فقلت: من هذا، فقيل: هذا خُزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين، ثم مرّ بنا فارس آخر على فرس كُمَيْتٍ معتمّ بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء وعليه قباء أبيض مصقول، متقلد سيفاً، متنكّب قوساً في نحو ألف فارس من الناس ومعه راية، فقلت: من هذا؟ فقيل لي: أبو قتادة بن ربعي، ثم مر بنا فارس آخر على فرس أشهب، عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدَ لها من بين يديه ومن خلفه شديد الأدَمة، عليه سكينة ووقار، رافع صوته بقراءة القرآن متقلدٌ سيفاً، تنكب قوساً معه راية بيضاء في ألف فارس مختلفي التيجان حول مشيخة كهول وشباب.. فقيل: عمار بن ياسر في عدة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم»، وهكذا ينقل ابن الجارود تتابع أفواج الجيش باستعراض مهيب، يتقدم كل فوج مقاتل رمزٌ من رموز المسلمين في المقاومة والجهاد من الصحابة الكرام،

أمثال: قيس بن سعد بن عبادة، وعبد الله بن العباس، وقثم بن العباس، حتى يقول: «ثم أقبلت المواكب والرايات يقُدم بعضها بعضاً، واشتبكت الرماح، ثم ورد كوكب فيه خلق من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفوا الرايات، في أوله راية كبيرة يقدمهم رجل..، عن يمينه شاب حسن الوجه وعن يساره شاب حسن الوجه، وبين يديه شاب مثلهما قلت: مَنْ هؤلاء؟ قيل له: هذا علي ابن أبي طالب وهذا الحسن والحسين عن يمينه وشماله، وهذا محمد ابن الحنفية بين يديه، معه الراية العظمى، وهذا الذي خلفه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهؤلاء ولد عقيل، وغيرهم من فتيان بني هاشم، وهؤلاء المشايخ هم أهل بدر من المهاجرين والأنصار. فساروا حتى نزلوا الموضع المعروف بالزاوية، فصلى أربع ركعات، وعفّر خديه على التراب، وقد خالط ذلك دموعه، ثم رفع يديه يدعو: «..هذه البصرة، أسألك من خيرها، وأعوذ بك من شرها، ..اللهم إن هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتي، وبَغَوْا عليّ، ونكثوا بيعتي، اللهم احقن دماء المسلمين»[1].

● **الفنون الحربية لكسب المعركة:**

ففي واقعة الجمل سلّم الراية إلى ابنه محمد ابن الحنفيّة، وهي راية رسول الله ﷺ، قائلاً: «يا بني هذه الراية لا تُردّ قط..». ولما أراد أن يمشي بها قال له: «قف يا بُني حتى آمرك». وحينما بدأ الأعداء برمي النبال والسهام وقُتل من قتل من أصحاب علي عليه السلام، قال

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، ج٢، ص٣٦٨-٣٧٠.

محمد ابن الحنفية: «فقال أمير المؤمنين: رايتك يا بُني قدّمها، وبعث في الميمنة والمسيرة، ودعا بدرع رسول الله فلبسه، وحزم بطنه بعصابةٍ أسفل سُرّته، ودعا ببغلته الشهباء، وهي بغلة رسول الله ﷺ، فاستوى على ظهرها، ووقف أمام صفوف أصحابه، فوقفتُ بين يديه باللواء وهو للحرب مستعد»[١]. وقد خاطب الإمام ولده ابن الحنفية لما أعطاه الراية: «تزول الجبال ولا تَزُلْ! عضّ على ناجذك. أعر اللهَ جُمْجُمتَكَ، تدْ في الأرض قَدَمك، ارْمِ ببصرك أقصى القوم، وغُضّ بصرك، واعْلم أنّ النصر من عند الله سبحانه»[٢].

إن الإمام بكلامه هذا «أشار إلى آداب الحرب، فنهى عن الفرار وأكّده، والتقدير، لو زالت الجبال لا تَزل.. والناجذ: السن بين الناب والضرس، وللعضّ عليه فائدتان: إحداهما، ربط الجأش وتماسك أجزاء البدن المتجزيّة. والثانية، تصلّب عضل الرأس، فيقاوم ما عساه يقع من الضرب فيه..»[٣].

---

(١) الشيخ المفيد، محمد العكبري: الجمل، ص ١٨٢. محمد ابن الإمام عليه السلام، أمه خولة بنت جعفر بن قيس.. بن حنيفة.. بن بكر بن وائل. اختلف الرواة في أمرها، ويرجح ابن أبي الحديد قول المحققين، حيث يقول: (وقولهم الأظهر: إن بني أسد أغارت على بني حنيفة في خلافة أبي بكر الصديق، فسبُوا خولة بنت جعفر، وقدموا بها المدينة فباعوها من علي عليه السلام، وبلغ قومها خبرها، فقدموا المدينة على علي عليه السلام، فعرفوها وأخبروه بموضعها منهم، فأعتقها ومهرها وتزوّجها، فولدت له محمداً، فكنّاه أبا القاسم).ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّالدين: شرح نهج البلاغة، مج١، ج١، ص ١٨٤.

(٢) باب الخطب، رقم ١١.

(٣) البحراني، ابن ميثم: اختيار السالكين، شرح الوسيط، ص ١٠٥.

فإذن خمسة أوامر في كلامه عليه السلام تلخص فنون الحرب لكسب المعركة، أولها: العضّ على الأضراس، ويتبع ذلك استجماع قوى الإنسان باتجاه هدف مركزي معيّن بكل صلابة.

الثاني: «اعر الله جمجمتك»، يعني ابذلها في طاعة الله على سبيل الاستعارة لتحقيق النفع للإسلام.

الثالث: «تد في الأرض قدمك»، بمعنى الزم الأرض واثبت عليها - كالوتد الثابت - بكل عزيمة وشدة، تثبت في المعركة وتتقدم أثناء القتال. وفي ذلك دلالة على الشجاعة والصبر مما يزعج الأعداء ويهزمهم.

الرابع: «ارم ببصرك أقصى القوم» بهمة عالية لتنال آخر الأهداف ونهاية المطاف.

الخامس: «وغُضّ بصرك»، ولا تتأثر ببريق السيوف من حولك، لأن ذلك يوجد الرهبة في النفس[١]. يقول الشارح المعتزلي: «ولا تناقض بين قوله: «ارم ببصرك..»، وقوله: «وغضّ بصرك»، وذلك لأنه في الأولى أمره أن يفتح عينيه ويرفع طرفه، ويحدّق إلى أقاصي القوم ببصره، فعل الشجاع المقدام غير المكترث ولا المبالي.. وفي الثانية أمره أن يغضّ بصره عن بريق سيوفهم ولمعان دروعهم، لئلّا يبرق بصرهُ، ويدهش ويستشعر خوفاً..»[٢]. تلك التعاليم والفنون الحربية، التي أمر الإمام عليه السلام باتباعها في ساحة المعركة، تثبت العزائم القتالية، وتحطّم حواجز الخوف، وتمنح المقاتل قدرة

(١) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج١، ص ٢٨٧- بتصرف -.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّالدين: شرح نهج البلاغة، مج١، ج١، ص ١٨٢.

متميزة في الإقدام والسيطرة على الموقف، وهي بالنتيجة تؤدي إلى كسب المعركة بأقل الخسائر المحتملة.

فن المبادرة الشخصية:

وهو أسلوب من الأساليب التعليمية في غاية الأهمية والتأثير، لأنه يقدّم للمجاهد المقاتل الصورة العملية المباشرة للاقتحام والاستبسال بكل ثقة وشجاعة. ففي الرواية إن أمير المؤمنين حينما سلّم الراية لولده محمد ابن الحنفية قائلاً له: «يا بُني لا يستفزّنك ما ترى، قد حملتُ الراية وأنا اصغر منك، فما استفزني عدوي، وذلك إني لم أبارز أحداً إلّا حدثتني نفسي بقتله..»[1]. ومن وقائع يوم الجمل، حينما دفع الإمام عليه السلام رايته لمحمد ابنه، «قال له: احمل، فتوقفَ قليلاً، فقال له: احمل، فقال: يا أمير المؤمنين، أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر! فدفع في صدره، فقال: أدركك عرق من أمّك، ثم أخذ الراية فهزّها، ثم قال: [الرجز]

اطعَن بها طعن أبيك تُحمدِ لا خير في الحرب إذا لم تُوقَدِ

بالمشرفَيّ والقَنا المسدّدِ

ثم حمل، وحمل الناس خلفه، فطعن عسكر البصرة.. [ثمّ] دفع إليه الراية، وقال: امْحُ الأولى بالأخرى، وهذه الأنصار معك.. فحمل حملات كثيرة، أزال بها القوم عن مواقفهم وأبلى بلاءً حسناً»[2].

---

(١) الشيخ المفيد، محمد العكبري: الجمل، ص١٩٦.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج١، ج١، ص ١٨٣-١٨٤.

تشخيص راية الأعداء:

كانت الراية في المعركة رمز القوّة والشرف، ولها أهمية معنوية كبرى في نفوس أتباعها وأعدائها، فاستمرار وقوفها بالمعركة يدل على استمرار الحرب، وحينما تتقدّم مرفوعةً خفاقةً في ساحة الحرب، إنّما تحمل دلالة التقدم والانتصار، وفي حالة سقوطها ينفرط عقد المحاربين، ويصابون بالخيبة والانكسار، ففي معركة الجمل، حيث استمر القتال الضاري بين الطرفين. وقد كان عسكر الإمام علي عشرين ألف مقاتل، بينما عدد جيش الناكثين بحدود الثلاثين ألفا. وكان الجمل بمثابة الراية في عسكرهم التفوا حوله، وقتل الكثير من أجله، فلما شخّص الإمام رايتهم، طلب من أصحابه أن يعقروا الجمل ويقتلوه فقد نادى بأعلى صوته: «ويلكم اعقروا الجمل فإنهُ شيطان!»[١]. وبالفعل حينما تمّ ذلك، «فرّت الرجال كما يطير الجراد المنتشر في الرياح الشديدة»[٢]. ويذكر المسعودي، أنّه قتل من أصحاب الجمل ثلاثة عشر ألفاً، ومن أصحاب الإمام خمسة آلاف، وتمت الواقعة في يوم واحد[٣]. ثم عامل الإمام عائشة بلطف واحترام لقربها من الرسول ﷺ، وكان أخوها محمد بن أبي بكر من المقاتلين البارزين في جيش الإمام، وقد كلفه الإمام برعايتها، ومن ثمّ بعثها إلى بيتها لتقرّ فيه، بطريقة كريمة[٤]. ولما عرفت ذلك «سجدت وقالت: ما ازددت والله يا ابن أبي طالب إلا كرماً، ووددت أني لم أخرج..»[٥].

---

(١) المرجع ذاته، مج١، ج١، ص١٩٠.

(٢) مغنية، محمد جواد: فضائل الإمام علي عليه السلام، ص١٣٧.

(٣) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، ج٢، ص٣٦٠.

(٤) الشيخ المفيد، محمد العكبري: الجمل ص ١٩٦.

(٥) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، ج٢، ص٣٧٩.

فهرس المجلد الثاني

المبحث الثاني: أساليب التربية الجهادية ٥

المطلب الأول: إثارة الحميّة والنخوة في النفوس ٧

توجيه غريزة العدوان نحو الشيطان، باعتباره العدو الأكبر للإنسان ١٠

الالتزام الواعي بمبادئ الإسلام والإيمان، يعني صياغة روحية جديدة للإنسان ١٣

توجيه الاقتتال نحو أعداء الإسلام ١٧

الاعتبار من تجارب الأمم السابقة والتذكير الدائم بمصائرهم ١٨

المطلب الثاني: رسم معالم عطاءات النفس الكبيرة: في التضحية والإيثار ... ٢٣

إيجاد محفّزات التنافس الإيجابي ٢٤

معالجة حالات العطاء المتباطئ بكثرة محاسبة النفس ٢٦

الجهاد فريضة تنمويّة ٢٩

المطلب الثالث: الدعاء - بصدق وإخلاص - إلى الله سبحانه ٣٣

صدق النوايا وإخلاص السريرة، والتوكل على الله وحده ٣٥

في آداب الدعاء ٣٨

عمل المؤمن بين الخوف والرجاء ٤٢

المطلب الرابع: ترويض النفس لغرض: تحمل الصعاب، وحبّ الآخرين ٤٥
المراقبة والمحاسبة الدائمة للنفس، لكسب المزيد من التقدم والنجاح ٤٦
عدم الرضى عن النفس، واتهامها دوماً ٤٩
حمل النفس على الصبر في الطاعة والعبادة والجهاد ٥٠
تطبيقات للتعاليم القتالية ٥٣

الفصل الثالث: أهداف التربية الجهادية عند الإمام علي عليه السلام ٥٧

المبحث الأول: بناء الإنسان والأمة - إيمانياً وجهادياً - ٥٩

المطلب الأول: بناء الإنسان المؤمن المجاهد ٦١
عوامل أساسية في تربية الإنسان المؤمن المجاهد ٦٢
إبقاء الفطرة السليمة على نقاوتها في الذات، وصيانتها من التلوث ٦٥
ترسيخ الإيمان بالله وسائر أسس العقيدة بالأدلة والبراهين ٦٨
الله هو الخالق ٦٩
النبوة وخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله ٧٤
المعاد يوم الحساب ٧٧
لزوم التمسك بروح العبادة ٨٠
العبادة طقوس جامدة أم معانٍ روحية متنامية ٨٣
معالجة المتطلبات الفطرية في الإنسان ٨٥
التحلّي بأوصاف المؤمن المقدام من الناحية النفسية والسلوكية ٩٠

المطلب الثاني: بناء الأمة المؤمنة المجاهدة ٩٥
الإطاعة التامة للولي القائم بالحجّة على الخلق ٩٧
تكثيف الوعي الإنساني وقيم الإيمان لدى المجاهدين ١٠١
رصّ الصفوف داخل الأمة على ضوء الأخلاق والفضائل الإسلامية ... ١٠٣
الوضوح في العلاقات الاجتماعية بين الطبقات ١٠٥

مسؤولية الأمة في التغيير والإصلاح ١١٠
المبحث الثاني: بناء الدولة الإسلامية القوية ١١٣
بناء الدولة الإسلامية القوية ١١٥
المطلب الأول: الحاكم والأجهزة الإدارية ١١٧
معرفة أهم خصائص الحاكم الإسلامي ١١٧
التنظيم المتماسك للأجهزة الإدارية ١٢٣
الإصلاح والتفتيش الإداري ١٢٧
المطلب الثاني: الجانب الاقتصادي والقضائي في الدولة ١٣٥
وضع الجانب الاقتصادي للدولة ١٣٥
نزاهة القضاء ومبدئيته ١٤٤
المطلب الثالث: استمرارية الإعداد التربوي لأغراض الدعوة والمقاومة والجهاد ١٤٩
مهمات الجيش العقدي ١٤٩
صاحب الشرطة ١٥٢
معوّقات موضوعية في الطريق ١٥٧
المبحث الثالث: حماية وتطوير البناء الإيماني والجهادي ١٦٧
المطلب الأول: مواصلة أداء فريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... ١٦٩
أهمية وخطورة الفريضتين ١٦٩
وسائل وطرق أداء الفريضتين ١٧٢
مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٧٦
النفس نقطة البداية ١٨٦
نتائج ترك العمل بالفريضتين ١٩٢

المطلب الثاني: التعاون الاجتماعي، وحماية الضعفاء والفقراء ١٩٧
التعاون الاجتماعي، وحماية حقوق المستضعفين في الأمة ١٩٨
آفاق التعاون والحماية ٢٠٣
الآثار المرتقبة من الحالة السلبية ٢٠٧

الفصل الرابع: السياسة الجهادية عند الإمام، في إدارة شؤون القتال، وتعليم فنون الحرب ٢١١

أولاً: تفاقم الأزمة السياسية ونشوب نار الفتنة ٢١٣
ثانياً: النبي الأكرم ﷺ يخبر عن حروب الإمام المستقبلية ٢٢٣

المبحث الأول: معركة الجمل ٢٢٩

المطلب الأول: المفاوضات السياسية، محاولات الإمام علي عليه السلام
تجنيب الأمة ويلات الحرب ٢٣١
مفهوم الحرب الداخلية عند الإمام عليه السلام ٢٣١
الأولوية للحوار السياسي ٢٣٥
استمرار نصائح الإمام عليه السلام لأصحاب الجمل ٢٤٤
أساليب الحوار لدى الإمام علي عليه السلام ٢٤٧

المطلب الثاني: في الطريق إلى المعركة، واختيار البصرة ٢٥٣
أعداء الإمام عليه السلام يختارون الحرب ٢٥٤
إلى البصرة، الموقع الاستراتيجي المختار ٢٥٦
مواقف الإمام عليه السلام المبدئية ٢٦١

المطلب الثالث: التعاليم الجهادية والفنون الحربية لكسب المعركة ٢٦٧
الحرب النفسية ٢٦٩
الاستعراض العسكري المنظّم له دلالاته وانعكاساته ٢٧٥
الفنون الحربية لكسب المعركة ٢٧٧

فهرس المجلد الثاني ٢٨٣

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم التكويني ١١٤٩٧٨

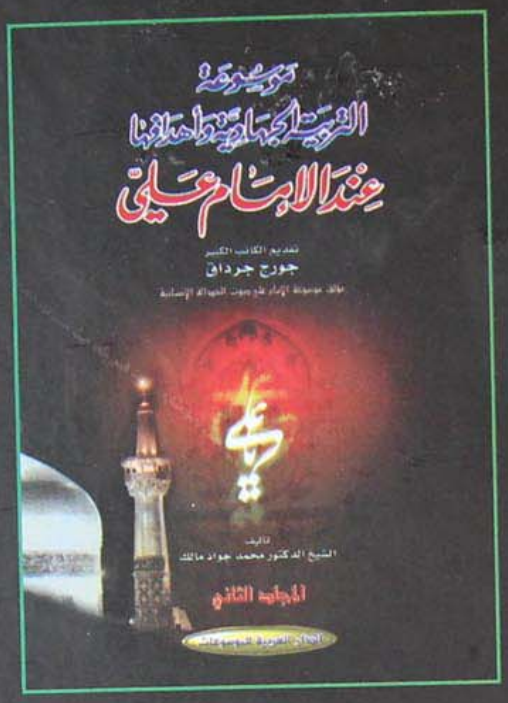

من أقوال الإمام علي

- أيها الناس إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها.
- العلم من الصغر كالنقش في الحجر.
- الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة.
- أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على قطة ظالم.
- استعمل العدل واحذر العسف والحيف، فإن العسف يعود بالجلاء، والحيف يدعوا إلى السيف.
- إنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر.
- لا تقل ما لا تعلم بل لا تقل كل ما تعلم.

ISBN 9786144240274